من روائع الأدب الإنجليزي

إميلي برونتي

مرتفعات وذرينغ

رواية



المركز الثقافي العربي

إميلي برونتي

مرتفعات وذرينغ

رواية

المركز الثقافي العربي

إميلي برونتي

مرتفعات وذرينغ

الكتاب

مرتفعات وذرينغ

تأليف

إميلي برونتي

الطبعة

الأولى، 2015

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-788-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

المقدّمة

نودّ أن نُطلع القارئ العزيز على لمحة موجزة عن حياة كاتبة قصتنا، إميلي برونتي، وعن بيئتها لما فيهما وفي القصة من صور متقاربة.

ولدت إميلي جان برونتي، الابنة الخامسة للقسّيس (باترك برونتي)، الإيرلندي الأصل، في الثامن عشر من يوليو عام 1818 في ثورنتون بولاية يوركشاير بإنجلترا.

وقد انتقلت عائلتها وهي في السنة الثالثة من عمرها إلى (هاورث) وهي قرية تقع على حدود مروج يوركشاير حيث قضت إميلي معظم حياتها القصيرة. وتوفيت والدتها السيدة برونتي عام 1821 تاركة وراءها أطفالها الستة، وهم إليزابيت، وماريا، وشارلوت، وباترك برانول، وإميلي، وآن، إلى رعاية عمتهم إليزابيت برانول.

وفي عام 1824، التحقت إميلي، مع شقيقاتها الثلاث اللواتي يكبرنها سناً، بمدرسة (كوان بريدج) وهي معهد خاص لتعليم بنات رجال الدين. وقد رسمت آن شارلوت برونتي في كتابها جين آير صورة معتمة عن الحياة في ذلك المعهد الذي لم تكن تتوفر فيه عوامل الراحة والصحة، وخاصة بالنسبة إلى بنات رقيقات الجسم

أمثال بنات عائلة برونتي. فلم يمضِ على وجودهنّ هناك عام واحد حتى أُصيبت ماري بمرض السل، وتبعتها إليزابيت بعد فترة قصيرة، وتوفيت الواحدة تلو الأخرى في عام 1825 بذلك الداء الوبيل، لا يفصل بين وفاتهما أكثر من ثلاثين يوماً. وقد عادت عندئذٍ شارلوت وإميلي إلى هاورث.

ومن ذلك الحين وحتى عام 1831 تلقى أولاد القسّيس برونتي علومهم الأوّليّة في البيت على يد والدهم. وسارت حياة العائلة حسب برنامج قاس منظم ينفذ تحت إشراف الوالد الأوتوقراطي، ولكن هذا البرنامج ترك لأطفال العائلة وقت فراغ كبير يخلون به لأنفسهم، فكانوا يجولون خلاله في مناكب قريتهم ويجوبون المروج المحيطة بها، ويقضون الأمسيات الطويلة يستمعون إلى القصص الغريبة. ولقد حيل بين الأطفال والحياة الاجتماعية فعاشوا في عالم فكري مثير، وفي هذا العالم عاشت إميلي حياة خاصة بها لم يستطع أحد أن ينفذ إليها.

وفي عام 1836 التحقت إميلي بمدرسة الآنسة (ولر) في (روهد) حيث كانت شقيقتها شارلوت تعمل كمعلمة، ولكن إميلي لم تستطع أن تعيش في تلك المدرسة وعادت إلى بيتها بعد ثلاثة أشهر.

ولمّا لم يكن باستطاعة والدها أن يعيل جميع أطفاله بدخله القليل، فقد قبلت إميلي في العام التالي العمل كمعلمة في مدرسة (لوهل) وهي قرية تقع بالقرب من مدينة هاليفاكس، وبقيت هناك حتى نهاية عام 1838. وقد دلّت القصائد الشعرية الكثيرة التي نظَمَتْها في تلك البقعة على التعاسة التي وجدتها أثناء إقامتها في هذه المدرسة.

وابتدأت الفترة الأخرى التي تغيّبت فيها إميلي عن هاورث في

فبراير عام 1834، وقد سافرت فيها مع شقيقتها شارلوت إلى بروكسل حيث التحقتا بمعهد للبنات كانتا تأملان في الحصول على دراستهما فيه على تفوّق في اللغات والثقافة العامة يؤهلهما لفتح معهد عالٍ لتعليم البنات. غير أن العمّة إليزابيت توفّيت بعد ستة أشهر من سفرهما إلى بروكسل فعادت الشقيقتان إلى البيت مرّة أخرى.

ومن ذلك الحين عاشت إميلي في هاورث تعمل بصمت، جادة، وبدون كسل أو ملل من الصباح إلى المساء في جوّ حزين ومضطرب، وقد أخذ هذا الجو يزداد عبوساً واضطراباً عاماً بعد عام، وإميلي لا تنفك تحيا حياتها الخاصة، المحاطة بسياج من الكتمان الشديد، في قصائدها الشعرية. وفَقَد والدها بصره تدريجياً في هذه الحقبة (ولمّا عمي تماماً أُجريت له عملية أعادت له بصره بعض الشيء). أمّا شقيقها برانول، الذي كانت تكنّ له حبّاً قويّاً، فقد جلب العار والمسبّة لعائلته وتوفي أخيراً من تأثير المشروبات الروحية.

وفي مطلع عام 1846، قررت الشقيقات الثلاث شارلوت، وإميلي، وآن، الاشتراك معاً في طبع منتجات من قصائدهنّ على حسابهنّ الخاص. وقد نفّذن قرارهنّ فنشرن في شهر مايو من ذلك العام كتاباً تحت عنوان **قصائد شعرية من شعر كوربر، وإيلاس، وأكتون بل** - وهي أسماء مستعارة اخترنها لإخفاء هويتهنّ - غير أنّ الكتاب لم يثر أية ضجة كما كنّ يتوقعن ولم يجد رواجاً. ومنذ ذلك الحين بدأت الشقيقات بكتابة القصص فكتبت شارلوت قصة البرفسور، وكتبت آن **أغنس غراي** بينما كتبت إميلي **مرتفعات وذرينغ**، وهو أول وآخر مؤلفاتها النثرية. وقد رفض الناشرون بادئ

الأمر، واحداً بعد آخر، كتابها وكتابَي شقيقتيها، ولكن أحد الناشرين قبِلَ أخيراً طبع كتاب **مرتفعات وذرينغ**، وكتاب آن على نفقتهما ونفقته مناصفة. فنشر الكتابان عام 1847، وبعد عام طبعت شارلوت كتابها **جين آير** فلاقى في الحال نجاحاً كبيراً، لكن إميلي لم تعمّر طويلاً لتشاهد نجاح **مرتفعات وذرينغ**، ففي خريف عام 1848 أُصيبت بالسل - ذلك الداء اللعين الذي قتل قبلاً شقيقتيها ماريا وإليزابيت، والذي قتل آن أيضاً بعد إميلي بسنة - وماتت في التاسع عشر من ديسمبر من ذاك العام.

بهذه اللمحة القصيرة نرجو أن نكون قد عرضنا للقارئ العزيز لمعاً موجزة عن حياة كاتبة قصتنا تمكّنه من تفهّم هذا الأثر الأدبي.

1

عام 1801 – لقد عدتُ الساعة من زيارة مالك الأرض التي أسكُنها، وهو جاري المنعزل عن الناس الذي سيسبب لي المشاكل في المستقبل. إن هذه البلاد جميلة حقاً، ولا أعتقد أن باستطاعتي أن أجد مكاناً في جميع إنجلترا يشبه هذا المكان بخلوّه كلياً من ضجيج الحياة الاجتماعية. إنّه الجنّة الحقّة لمحبّي الانعزال والوحدة، وآني ومستر هيثكلف لَخَيْرُ زوجين متناسبين يمكنهما أن يقتسما الوحدة بينهما. إن جاري شخص ممتاز! إنّه لم يعلم تماماً مقدار العطف الذي شعرت به نحوه عندما لمحت عينيه السوداوين، وأصابعه ممسكة بصدريته، بينما كنت لا أزال ممتطياً صهوة جوادي في أول زيارة له.

سألته: أأنت مستر هيثكلف؟

هزّ رأسه دلالة على الإيجاب.

قلت: «إني مستر (لوك ود) مستأجر أراضيك الجديد، لقد شرَّفتُ نفسي بالحضور فور وصولي لأعرب لك عن أملي في ألّا أكون قد سببت لك إزعاجاً لاختياري الإقامة في (ثرشكروس غرانغ). لقد سمعت بالأمس أنه قد خطر على بالك بعض الأفكار».

قاطعني ممتعضاً: «إن (ثرشكروس غرانغ) ملكي، ولن أسمح لأي إنسان أن يقلقني. ادخلْ!».

وأخرج هذه الكلمة من بين أسنانه وكأنه يقول لي: «اذهب إلى الشيطان». وحتى المدخل الذي كان يتكئ عليه كان يبدو لي أنه لم يكن يرحّب بي. وأعتقد أن الظروف هي التي جعلتني أقبل الدعوة. وهكذا شعرتُ باهتمام نحو رجل كان يبدو لي أكثر مني تحفّظاً.

وعندما أبصر بجوادي يدفع الحاجز بصدره، تقدّم وأفلته من عقاله ثم تقدّمني عبر الممر وهو كئيب، وصاح منادياً:

«يا يوسف! خذ جواد (مستر لوك ود)، وأحضر بعض النبيذ».

كان يوسف رجلاً مسنّاً، بل، يمكن القول إنّه طاعن في السن، إلا أنّه كان صلب العود، قوي الساعد، وقد قال لي في لهجة تنّم عن حزن واضطراب بينما أمسك بمقود جوادي: «ليساعدنا الباري تعالى» وتطلّع إلى وجهي وقد بدا عليه القلق الشديد.

إنّ مرتفعات وذرينغ هي اسم البيت الذي يقطن فيه مستر هيثكلف، ولكونه بيتاً إقليمياً مرتفعاً فقد كان معرّضاً للعواصف من كل جانب، ومن حسن الحظ أن المهندس الذي رسم خطّة بنائه كان بعيد النظر فأقامه قوياً، كانت نوافذه الضيّقة غائرة في جدرانه وزواياه مرتكزة على أحجار كبيرة بارزة.

وقبل أن أجتاز عتبة البيت، توقّفتُ قليلاً إذ لفت انتباهي بعض النقوش البديعة على الجدار الأمامي، وخاصة تلك المحفورة حول الباب الرئيس، وتبيّن لي أن تاريخ الحفر يعود إلى عام 1500، كما تبين لي اسم (هارتن أرنشو)، وكنت أودّ أن أفوه ببعض التعليقات أو أطلب تاريخاً مختصراً للبيت من صاحبه، إلّا أنّ الهيئة التي كان يبدو فيها مستر هيثكلف عند الباب أوحَت إليّ أنّه يطلب منّي الإسراع في

الدخول أو مغادرة المكان حالاً، ولم يكن لي أيضاً رغبة في أن أزيد من نفاد صبره قبل أن أقوم بتفقّد ذلك المعبد.

وما إن خطوت خطوة واحدة حتى أصبحتُ في غرفة الجلوس العائلية بدون أن أعبر أيّ ممر. وتُسمَّى هذه الغرفة عندهم «بالبيت»، وتضمّ المطبخ وقاعة الجلوس معاً. وفيها موقد كبير، عُلِّق فوق مداخنه بنادق قديمة مختلفة الأشكال والأنواع، وزوج من المسدسات التي يستعملها الخيّالة، وعلى سبيل الزينة، وضعت ثلاثة صناديق مزخرفة على رفٍّ فوق الموقد. وكانت أرض الغرفة من البلاط الأبيض الناعم، والكراسي ذات ظهور عالية مصنوعة على شكل بسيط ومطليّة باللون الأخضر، وفي الزاوية كان كرسيّان أسودان يقبعان في ظلّ الأنوار الخافتة، وإلى جانب خزانة الصحون، اضطجعت كلبة كبيرة وقد أحاط بها عدد من الكلاب الصغيرة.

كان أثاث الغرفة بسيطاً كأثاث بيت مزارع من مُزارعي الشمال رقيقي الحال، الذين يتّصفون بالملامح القاسية العنيدة، لكن (مستر هيثكلف) كان على النقيض من مسكنه وأسلوب حياته. كان في منظره كالغجر أسمر اللون، وفي ثيابه وعاداته وأخلاقه كسادة القوم، إلّا أنّه لم يكن يكترث بترتيب هندامه إلّا قليلاً، لكن هذا الإهمال لم يكن يبدو واضحاً لأنه كان منتصب القامة، ظريف الشكل والهيئة، كان سكوتاً قليل الكلام، حتى إن بعض الناس كانوا يعتقدون أنه متكبّر، غير أني كنت أشعر في قرارة نفسي بأنه لم يكن من هذا النوع من الناس. وعرفتُ بالغريزة أنّ تحفّظه ناشئ عن عدم رغبته في إظهار مشاعره. إنّه يحب ويكره في صمت. . . ولكن مهلاً، فلقد أسرعتُ في الحكم عليه.

اتّخذتُ مقعداً بالقرب من نهاية الموقد مقابل المقعد الذي

جلس عليه مستر هيثكلف، وصمتُّ فترة كنت أحاول فيها أن أداعب الكلبة الكبيرة التي كانت قد تركت صغارها وأخذت تلحس ساقي. أثارت المداعبة الكلبة فنبحت.

عندئذٍ قال مستر هيثكلف بصوت أجشّ:

«أفضّل أن تدع الكلبة وحدها، إنّها غير معتادة على مثل هذا، إنها لم تنشأ على الدلال».

ثم اتجه نحو باب جانبي في الغرفة وصاح: «يا يوسف!».

تمتم يوسف وهو في أعماق القبو بكلمات مُبهمة، ولكنه لم يُبدِ أيّة إشارة إلى أنه سيصعد، فهبط سيده إليه. وتركني وجهاً لوجه أمام الكلبة التي اشتركت مع صغارها في مراقبة جميع حركاتي. وبما أني لم أكن في شوق إلى الاصطدام معها جلستُ ساكناً، ولكن لسوء الحظ وجدتُ نفسي وقد أخذتُ أغمز وأشير إلى الكلاب بطرف عيني، فأثار ذلك الأم وقفزت على ركبتي. ردَدْتُها إلى الوراء وسحبتُ حالاً الطاولة لتفصل بيني وبينها، غير أن هذا العمل ألّب عليّ جميع الكلاب الصغار، وهجمت كلها على قدمي وأطراف ثيابي، ممّا أرغمني على طلب النجدة والعون بأعلى صوتي من أهل البيت.

صعد مستر هيثكلف وخادمه درجات القبو ببطء، ولا أعتقد أنهما أسرعا خطوة واحدة أكثر من المعتاد، مع أن الضجيج والنباح كانا يملآن الغرفة. ومن حسن الحظ، أسرعت إحدى السيدات من المطبخ، وهي تحمل في يدها مقلاة، وفصَلَت بيني وبين الكلاب مستخدمة المقلاة في ذلك. وبَقِيَتْ في الغرفة حتى دخل سيدها.

سألني مستر هيثكلف وهو ينظر إليّ نظرة لم أكن أستطيع أن أتقبّلها بعد هذا الاستقبال غير اللائق: «ماذا حدث بحق الشيطان؟».

أجبتُ متمتماً: «أيُّ عمل شيطاني هذا! ليس في الوجود أرواح

أسوأ من الأرواح التي تتقمّص حيواناتك، يا سيدي. إنّي لا أدري كيف تستطيع أن تترك شخصاً غريباً مع هذه النمور المفترسة!».

قال، وهو يضع زجاجة من النبيذ أمامي ويُعيد الطاولة التي كنت قد أزحتها: «إن الكلاب لا تقترب من الأشخاص الذين لا يلمسون شيئاً في الغرفة، إنّها على حق في أن تكون حذرة متيقظة. خُذْ كأساً من النبيذ».

أجبته: «كلا، شكراً لك».

سألني: «هل آذتك؟».

قلت: «كلّا».

قطب هيثكلف وجهه وقال: «تقدم، إنّك مضطرب يا مستر لوك ود. خذ قليلاً من النبيذ. إنّ الذين يزورون هذا البيت قليلون جداً حتى إنّي وكلابي نُلاقي كثيراً من الصعوبة في كيفية استقبالهم. نخب صحتك يا سيدي!».

انحنيت لأردّ التحية، وابتدأتُ أشعر أنه من الحماقة أن أجلس كئيباً لسوء سلوك حيوانات لا تعي، بالإضافة إلى أنّي لاحظت أخيراً أنه استعاد مرحه. ومن المرجّح أنه قد شعر هو أيضاً أنه من الحماقة أن يؤذي شعور مستأجر أملاكه الطيّب فخفّف من حدّة كلماته، وأخذ يحدّثني عن موضوع يلذّ لي سماعه، وهكذا ابتدأ يشرح لي محاسن المكان الذي أقطن فيه ومساوئه. تبيّن لي أنه ملمّ بالمواضيع التي تطرّقنا إلى بحثها، وقبل أن أعود إلى منزلي كنت قد قررتُ أن أقوم بزيارة أخرى له في الغد. إلّا أنّه كان على ما يبدو لا يرغب في أن تتكرر زيارتي، لكني سأذهب على الرغم من ذلك.

2

كان الطقس بعد ظهر أمس بارداً ملبّداً بالغيوم، ولذا فقد قررتُ أن أقضي وقتي إلى جانب الموقد بدلاً من أن أسير متخبطاً في الأوحال، إلى (مرتفعات وذرينغ).

غير أني بعد أن انتهيت من تناول غدائي، وصعدت درجات السلّم المؤدي إلى الطابق العلوي، عدلت عن فكرتي عندما رأيت الخادمة تنظّف الموقد، وقد أحاطت نفسها بالفحم وعيدان الأخشاب، وأرسلت الدخان في أنحاء الغرفة. عدت أدراجي فوراً وتناولتُ قبعتي، وأخذتُ طريقي إلى بيت جاري، وبعد أن سرت أربعة أميال وصلت إلى باب الحديقة، وفي ذلك الوقت أخذ الثلج يتساقط.

كان الهواء بارداً جداً، ممّا جعلني أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي، ولما كنت غير قادر على حلّ السلاسل، قفزتُ من فوقها واتجهتُ مسرعاً عبر الممر المسيّج بالعوسج وشجيرات الكرمة، وطرقتُ الباب طرقاً شديداً تردَّد صداه داخل البيت فنبحت الكلاب. وهمست قائلاً: «تبّاً لكم أيّها التعساء، إنّكم تستحقون العزلة الدائمة لسوء ملاقاتكم للضيف، إنّي لا أغلق أبواب بيتي في

النهار على الأقل، ولكني لست أبالي... سأدخل!». ولمّا كنت مصمماً على أن أدخل البيت أمسكت بالباب وهززته بعنف، فبرز عندئذٍ وجه يوسف من نافذة مخزن الحبوب وقال:

«ماذا تريد؟ إنّ السيد غير موجود داخل البيت، إذا كنت تريد أن تتحدث إليه عليك أن تبحث عنه في الحقل».

سألته: «ألا يوجد أحد في الداخل ليفتح الباب؟».

أجاب: «لا يوجد أحد سوى السيدة، وهي لن تفتح الباب، ولو بقيتَ تطرقه حتى منتصف الليل».

قلت: «لماذا؟ ألا تستطيع أن تبلّغها مَن أنا، يا يوسف؟».

أجاب متمتماً: «كلا، لا أودّ أن أتدخّل في الأمر». واختفى وجهه من وراء النافذة.

أخذ الثلج يتساقط بغزارة بعد ذلك، فأمسكت بأكرة الباب مرة أخرى لأحاول فتحه، وإذ بي أرى شاباً في الساحة الخلفية يحمل مشط الزراعة فناداني أن أتبعه. لحقت به فمرَّ بي من وسط غرفة للغسيل، ومخزن للفحم إلى أن وصلت إلى الغرفة الكبيرة التي استُقْبِلْتُ بها سابقاً. كانت الغرفة دافئة، مضاءة بوهج النيران المشتعلة في الموقد، وإلى جانب المائدة التي وضعت في الوسط، أُعدّ عشاء فاخر. وبالقرب من الموقد جلست «السيدة». انحنيت لها وانتظرتُ أن تأمرني بالجلوس، إلّا أنّها رشقتني بنظرة ثم أسندت ظهرها إلى الكرسي وظلّت صامتة لا تُبدي أية حركة.

قلت مبتدئاً الحديث: «إن الطقس قاسٍ اليوم، ولقد وجدتُ صعوبة في لفت انتباه الخدم إليّ وأنا واقف أنتظر على الباب».

إلا أنّها لم تنبس ببنت شفة، فصمتُّ كما ظلَّت هي صامتة، لكنها ظلّت تنظر إليّ ببرود وعدم اهتمام ممّا أثار السخط في نفسي.

وبعد برهة قال الشاب الذي أوصلني إلى الغرفة بصوت أجش: «اجلسْ! سيأتي حالاً».

أطعتُ أمره، ثم حاولت مداعبة الكلبة التي رأيتها في زيارتي الأولى وأشرتُ إليها أن ترفع ذيلها دلالة على أنها تعرفني.

وقلت للسيدة: «حيوان جميل! هل تنوين يا سيدتي أن تتخلي عن صغارها؟».

أجابت المضيفة المحبوبة: «إنها ليست لي».

اقتربتُ من الموقد ثم عدت أعقّب على الطقس وقساوة البرد في المساء.

قالت: «ما كان ينبغي أن تخرج من بيتك». ونَهَضَت عن كرسيها لتتناول صندوق الشاي عن الرف، لم يكن شخصها وملامحها واضحة قبل مواجهتها للنور، أما الآن فقد بدت هذه الملامح واضحة وجليّة. وكانت ذات قدّ نحيل، وتبدو أنها قد تخطّت عهد الطفولة بزمن طويل، كان وجهها جميلاً وأعتقد أنه أبدع وجه صغير أثار فيّ البهجة والسرور إذ نظرت إليه؛ كانت شقراء ذات شعر ذهبي متموّج مسدل على جيدها الجميل الناعم، وكانت في عينيها جاذبية لا يستطيع المرء أن يقاومها. كان الصندوق بعيداً عنها بعض الشيء، فتحرّكت من مقعدي لأساعدها إلّا أنّها صدّتني، كما يصدّ البخيل إنساناً يحاول أن يساعده في عدّ ذهبه. وقالت: «إني لست بحاجة إلى مساعدتك. فأنا أستطيع تناوله وحدي».

أجبتها فوراً: «أرجو المعذرة!».

سألتني: «هل دُعِيتَ إلى شرب الشاي؟».

قلت: «سأكون سعيداً إذا ما شربت قدحاً من الشاي».

سألتني مرة أخرى: «هل دُعيت؟».

أجبتها مبتسماً: «كلّا، إنّك الشخص الذي ينبغي أن يدعوني لذلك».

عادت إلى كرسيها، وقد قطبت جبينها، وزمت شفتيها القرمزيتين كطفل أجهش بالبكاء.

وفي أثناء ذلك كان الشاب ينظر إليّ من طرف خفيّ كأن بيني وبينه ثأراً قديماً. فوجدت من المستحسن أن أمتنع عن ملاحظة نظراته وتصرفاته الغريبة، ولم تمض خمس دقائق حتى دخل مستر هيثكلف فأنقذني دخوله إلى درجةٍ ما من حالتي المتعبة.

خاطبته وأنا أدّعي السرور: «أرأيتَ يا سيدي، لقد حضرت حسب الموعد! وأخشى أن أكون رهين الطقس مدة نصف ساعة أخرى ثم أقفل عائداً إلى بيتي».

قال، وهو ينفض ثيابه ليزيح عنها الثلج: «نصف ساعة؟ هل تعلم أنك تخاطر بنفسك وأخشى أن تضلّ طريقك وسط المستنقعات! إنّ الناس الذين خبروا هذه الأراضي كثيراً ما يضلّون طريقهم في مثل هذه الأمسيات، ويمكنني القول إنّه ليس هناك أمل في أن يتحسّن الطقس».

قلت: «ربما تستطيع أن ترسل معي أحداً من رجالك ليدّلني على الطريق، ويمكنه أن يقضي الليل في (غرانغ) ويعود إليكم في الصباح».

أجاب: «كلا! لا أستطيع أن أرسل أحداً».

قلت: «ألا تستطيغ بالفعل! حسناً، ينبغي أن أعتمد إذاً على فطنتي».

أدار وجهه عني نحو السيدة الشابة وقال لها: «هل ستحضّرين لنا الشاي؟».

سألته: «هل سيشرب معنا؟ (مشيرة إليّ)».

أجابها بفظاظة أذهلتني: «أعدّي الشاي!» ولقد كشفت اللهجة القاسية التي تكلّم بها عن طبع سيِّئ، ولم أعد أعتقد أن هيثكلف شخص ممتاز.. وعندما أعدّ كل شيء على المائدة دعاني وقال: «الآن تقدّم يا سيدي بكرسيك».

واقتربنا جميعاً من المائدة بما في ذلك الشاب. وساد الصمت في الغرفة بينما رحنا نتناول العشاء. وقلت مخاطباً نفسي إذا كنت أنا الذي سببت وجود هذه السحابة من الوجوم فمن واجبي أن أبذل جهدي لإزالتها.

ابتدأتُ الكلام قائلاً: «إنه لمن العجيب أن تستطيع العادة تكوين ميولنا وأفكارنا، فالكثير من الناس لا يستطيعون أن يتصوّروا وجود السعادة في حياة بعيدة كلّ البُعد عن الناس، مثل الحياة التي تحياها يا مستر هيثكلف؛ ومع ذلك فإني أستطيع أن أقول وأنا محاط بأفراد عائلتك، وزوجتك المحبوبة».

قاطعني وقد ارتسمت على وجهه صورة من الحزن: «زوجتي المحبوبة! أين هي زوجتي المحبوبة؟».

قلت: «أقصد السيدة هيثكلف».

أجاب: «حسن، نعم - أوه! إنّك تقصد أن روحها تحرس مرتفعات وذرينغ مع أن جسدها غير موجود. هل هذا ما تعنيه؟».

ولمّا شعرت أني قد وقعتُ في خطيئة حاولت أن أصلح ما تفوّهت به. فقد كان ينبغي أن أرى الفارق الكبير بين عمر مستر

هيثكلف والسيدة، إذ كان هيثكلف يناهز الأربعين من عمره بينما سنها لم تتجاوز كما بدا لي أكثر من سبعة عشر عاماً.

وفجأة لمح في خاطري أنّ الشاب الذي يجلس إلى جانبي ويأكل الطعام بيديه القذرتين هو زوجها، وأنه هيثكلف، الأصغر، طبعاً. وقد أكد هيثكلف ظني بقوله: «إن السيدة هيثكلف، زوج ابني». وأدار وجهه ونظر إليها نظرة ملؤها الكراهية.

قلت للشاب: «لقد اتّضح الأمر الآن، إنّك المحظوظ بهذا الملاك الجميل».

غير أن هذه الكلمات زادت الطين بلّة، فقد زاد امتقاع وجه الشاب، وبدا كأنه يستعد لمهاجمتي. لكنه كبح جماح نفسه على ما يظهر واكتفى بتوجيه بعض الشتائم إليّ بصوت خافت، غير أني لم أعره أي انتباه.

قال مستر هيثكلف: «إنك مخطئ في تخمينك، يا سيدي إنّ رفيق أملاكك الجميل ميت. لقد قلت إنّها زوج ابني».

قلت: «وهذا الشاب هو -».

أجاب: «إنه ليس ابني!».

ابتسم هيثكلف، كأنّه من المضحك أن يكون ذلك الدبّ ابنه.

وقال الشاب بصوت أجش: «إنّ اسمي «هارتون أرنشو» وأنصحك أن تحترمه!».

أجبته وأنا أضحك في قرارة نفسي من الأسلوب الذي أعلن فيه عن اسمه: «إنّني لم أظهر لك أي احتقار».

وثبّت نظره في وجهي، حتى بدأتُ أشعر بأنّ وجودي غير مستحسن وسط هذه العائلة. وانتهى العشاء دون أن يتفوّه أحد

بحديث اجتماعي. واقتربتُ من النافذة لأعرف حالة الطقس، فوجدت منظراً حزيناً: لقد أسدل الليل ستاره قبل الأوان واختلط لون السماء بلون التلال إذ هبَّت الريح عاصفة وتساقط الثلج كثيفاً.

قلت: «إني لا أعتقد أنه من الممكن أن أصل بيتي سالماً بدون مرشد. إن الطرق قد دفنت بالثلوج».

قال هيثكلف: «أَدخِلْ يا هرتون الماشية إلى الحظيرة، وإلّا فستُدفن تحت الثلج إذا تُركت في العراء طوال الليل».

أردفت قائلاً، وقد زاد اضطرابي: «كيف العمل؟».

لم يجب أحد عن سؤالي، وأدرتُ وجهي فرأيتُ يوسف وقد أحضر وعاء فيه حساء للكلاب، والسيدة هيثكلف منحنية فوق الموقد.

قلت: «يا سيدتي، أرجو أن تسامحيني إذا كنت قد سببت لك إزعاجاً. هلا تكرّمت بإرشادي إلى معالم الطريق التي توصلني إلى البيت؟ فليس لدي الآن أية فكرة عن طريقي أكثر ممّا لدي عن الطريق إلى لندن!».

أجابت: «اسلكْ في عودتك الطريق التي قادتك إلى هنا، وهذا كل ما لدي».

عندئذٍ قلت: «إذا ما سمعتِ أنه قد عثر عليّ ميتاً في حفرة من الثلج، فإنّ ضميرك سيؤنّبك على نصيحتك الخاطئة».

أجابت: «كيف ذلك؟ إنّي لا أستطيع أن أرافقك. إنّهم لا يسمحون لي أن أصل إلى جدار الحديقة».

صحتُ قائلاً: «أنت! إنّي لا أسألك أن تجتازي هذه العتبة من أجلي في مثل هذه الليلة. إنّي أريد منك أن تخبريني عن الطريق،

ولا أريد أن تريني إيّاها، أو حاولي على الأقل إقناع مستر هيثكلف أن يرسل معي مرشداً».

قالت: «مَن يرسل معك؟ إن هناك مستر هيثكلف نفسه، أرنشو، زيلا، يوسف، وأنا. أيًّا منّا تريد؟».

سألتها: «أليس هنا بعض الصبية في المزرعة؟».

أجابت: «كلا، لا يوجد أشخاص غير الذين ذكرتهم».

قلت: «إذن أنا مضطر أن أبقى الليلة هنا».

قالت: «يجب أن تدبّر هذا الأمر مع مضيفك، أنا لا علاقة لي بهذا».

صاح مستر هيثكلف بصوت رزين من مدخل المطبخ: «إني آمل في أن يكون ذلك درساً لك في المستقبل، فلا تقُم بجولة جديدة عبر هذه التلال، أما بخصوص بقائك هنا فإنّه ليس في بيتي سرير إضافي للزائرين، وعليك أن تشارك هرتون أو يوسف إذا شئت ذلك».

قلت: «إنّي أستطيع أن أنام على كرسي في هذه الغرفة. عندئذٍ قال أرنشو التعس: «لا، لا إنّ الغريب غريب، أكان غنياً أم فقيراً، إنّي لن أسمح لأي إنسان أن يشترك معي في الغرفة»».

وبهذه الإهانة نفد صبري فتفوّهت بعبارات تنمّ عن امتعاضي، واندفعت نحو الساحة لألحق بأرنشو. كان الظلام شديداً حتى إنّي لم أستطع أن أرى الطريق إلى الخارج، وبينما أنا ألتفت يمنة ويسرة سمعت الشاب يقول: «إنّني سأرافقه حتى آخر الحديقة».

قال سيده: «سترافقه إلى الجحيم، ومن سيعتني بأمر الخيول؟».

قالت السيدة هيثكلف بصوت خافت، مبدية المزيد من اللطف أكثر مما كنت أتوقعه: «إن حياة الإنسان أهم من الاعتناء بالخيول ليلة واحدة. ينبغي أن يرافقه أحد ما».

أجاب هرتون: «إننا لسنا تحت أمرك. والأجدر بك أن تصمتي».

أجابت: «إذن لأهدى الله إلى مستر هيثكلف مستأجراً آخر حتى يسود الخراب (غرانغ)».

قال يوسف: «اسمع، اسمع، إنّها تصبّ عليه جام غضبها!».

كان يوسف يحلب البقرات على نور المصباح، اقتربت منه، وأمسكْتُ بالمصباح وأسرعتُ إلى الخارج وأنا أحمله وقلت له إني سأعيده غداً صباحاً!

صاح الرجل الشيخ وهو يلحق بي: «سيدي، سيدي، لقد سرق المصباح، أمسكوه! أمسكوه!».

وفتح الباب الصغير، فاندفع منه وحشان وقفزا عليّ وطرحاني أرضاً وانطفأ المصباح، ولسوء الحظ أن الوحشين على ما يبدو كانا يقصدان النباح وليس القضاء على حياتي. وقد أرغمتُ على أن أظلّ مستلقياً على الأرض حتى تكرّم سيدهما بإنقاذي. وما أن انتصبت قائماً حتى طلبت أن يتركني أخرج من البيت وأنا أنتفض من ثورة الغضب. وقد كان من شدة غضبي أن نزف الدم من أنفي، غير أن هيثكلف انفجر ضاحكاً فكان ذلك بالنسبة لي إهانة جديدة. ولا أعلم ما الذي كان سيختتم به هذا المنظر لو لم تدخل زيلا، المرأة البدينة لتعرف مبعث الضجيج.

كانت تعتقد أن أحد الكلاب قد آذاني، ولما لم تك تجرؤ على أن تهاجم سيدها، صبَّت جام غضبها على الوغد الأصغر. وقالت: «حسناً، يا مستر أرنشو، إني أستغرب ماذا تنوي أن تفعله الآن، أتود أن تقتل امرءاً على عتبة منزلك؟ إني أرى أن هذا البيت لم يعد يصلح لي – انظرْ إلى المسكين، إنّه يرتجف!».

وطلبت إليّ أن أتبعها إلى المطبخ حيث صبّت فوق عنقي فجأة قليلاً من الماء البارد. ولحق بنا مستر هيثكلف وسأل زيلا أن تعطيني كأساً من البراندي ثم دلف إلى الغرفة الداخلية بينما أخذت هي تبدي أسفها لهذا الحادث الأليم. كنت أشعر بضعف شديد ودوار، فما أن أخذتُ قليلاً من البراندي حتى انتعشتُ بعض الشي، وعند ذلك قادتني زيلا إلى الفراش.

3

بينما كانت تقودني إلى الطابق العلوي، أوصتني ألّا أظهر الشمعة، وألّا أُحدث أيّة ضجة، لأن سيدها لم يكن لديه أيّة فكرة عن الغرفة التي سأنام فيها، وهو إذا عرف ذلك فلن يسمح لي مطلقاً بدخولها. سألتها عن السبب. فأجابت بأنّها لا تعلم وقالت إنه لم يمضِ عليها في هذا البيت أكثر من سنتين، وأن أشياء غريبة كثيرة قد شاهدتها.

أغلقت الباب خلفي وألقيت نظرة على السرير. كان أثاث الغرفة يتألّف من كرسي وخزانَتَي ثياب كبيرتين، وأخرى صغيرة فيها عدّة رفوف، ومكتبة يمكن فتحها فتصلح لتكون طاولة للكتابة. وضعت الشمعة على المكتبة حيث وجدت داخلها بعض الكتب الموضوعة في إحدى الزوايا وقد نُقش على بعض هذه الكتب بأحرف كبيرة وصغيرة تارة (كاثرن أرنشو) وتارة (كاثرن هيثكلف) وأخرى (كاثرن لنتون).

وفي هدوء ألقيت برأسي على حافة النافذة وأخذت أردِّد لفظ اسم كاثرن أرنشو - هيثكلف لنتون - حتى أغمضت عيني. ولكنّه لم تمض أكثر من خمس دقائق حتى أخذت تلوح أمامي في الظلام

أحرف بيضاء تشكّل اسم كاثرن، فنهضت من مكاني لأطرد الاسم المتطفّل، وإذ بي ألاحظ أنّ دهن الشمعة قد سال وأصاب جزء منه أحد الكتب القديمة، فأزلتُ الدهن وفتحت الكتاب على ركبتي، كان غلافه قد نُقش عليه اسم كاثرن وتاريخ يرجع حوالي ربع قرن إلى الوراء. أغلقته وتناولت الكتب واحداً بعد آخر، حتى فحصتها جميعاً. كانت الكتب في حالتها المهترئة تدلّ على أن الأيدي قد تداولتها مراراً وتكراراً، وربّما لم يكن ذلك للقراءة، فنادراً ما وجدت فصلاً لم يعلّق على صفحاته بالحبر أو القلم، وقد شاهدت بعض الجمل المكتوبة هنا وهناك، وفي بعض الصفحات كُتبت الجمل على شكل مذكّرات منظّمة، وقد خُطّت على ما يبدو بِيَد طفل. وفي رأس إحدى الصفحات رسمت صورة كاريكاتوريّة ممتازة لصديقي يوسف. وقد سررت جداً لمشاهدة الصورة وشعرت باهتمام مفاجئ لمعرفة كاثرن المجهولة ممّا حملني على استبانة أحرفها التي كادت تمحى وبدت في بعضها كالرموز الهيروغليفية.

جاء في أحد الفقرات: أنه يوم من أيّام الآحاد المرعبة! كم أتمنى أن يعود والدي. إن هندلي مكروه ولا يعوّض فقدان أبي. إنه فظّ، قاس في معاملته لهيثكلف. سأتمرّد عليه أنا وهيثكلف. ولقد خطونا الخطوة الأولى هذا المساء.

كان النهار ممطراً فلم نستطع أن نذهب إلى الكنيسة ولذلك كان من الضروري أن يُقيم يوسف الصلاة في الغرفة العلويّة - بينما جلس هندلي وزوجته في الطابق السفلي إلى جانب الموقد وأكاد أجزم بأنهما لا يقرآن الإنجيل كما يُبديان - أُمرتُ أنا، هيثكلف، والحرّاث الشقي أن نحمل كتاب الصلاة ونصعد إلى الغرفة العليا حيث وقفنا صفّاً واحداً على كيس من القمح نرتعش من البرد وندعو أن يرتعش

يوسف أيضاً فيجعل الصلاة قصيرة، غير أن الصلاة دامت ثلاث ساعات بالضبط ومع ذلك فقد استغرب أخي عندما شاهدنا نهبط من الغرفة وتساءل: ماذا، هل أنهيتم الصلاة؟ وكان يسمح لنا في أمسيات الآحاد أن نلعب، شريطة ألّا نثير ضجة كبيرة، ولكن كان يكفي أن نعاقب على مجرّد أن تصدر من أحدنا ضحكة واحدة.

كان هندلي الجبّار يقول: «لقد نسيتم أن لكم سيداً. إنّي سأحطّم أول من يثير غضبي. إنّي أصرّ على أن يسود الهدوء، والرزانة التامّين. ما هذا يا صبي! هل هو أنت؟ يا عزيزتي فرنسيس شدّيه من شعره». فكانت تفعل ما يشير عليها به ثم تذهب وتجلس على ركبتي زوجها كطفلين، يقبّلان بعضهما، ويلهوان بالحديث الفارغ الذي قد يتخلّله أحياناً بعض الكلمات المخجلة.

وقد يدخل يوسف علينا مرّة ليأخذ شيئاً من الإصطبل. فيمزّق ما يبدو من أوراق أو ألعاب ويضربني ثم يقول: «إنّه لم يمضِ أكثر من أسبوع على دفن سيّدي وأنتم الآن تضحكون! خزياً لكم، اهدأوا أيها الأولاد! إن في البيت كتباً كثيرة فهذّبوا أرواحكم بقراءتها».

وجاء في فقرة أخرى: إنّ رأسي يؤلمني حتى إنّي لم أستطع أن أضعه على الوسادة. مسكين هيثكلف أن هندلي يدعوه المشرّد ولن يسمح له بالجلوس معنا أو بالأكل معنا، وكان يقول لي بأنّه لا ينبغي أن ألعب وإيّاه معاً، ويهدّد بطرده من البيت إذا ما خالفنا أوامره. وكان كثيراً ما يضع اللوم على والدنا لمعاملته هيثكلف معاملة جيّدة ويمنحه الحرّيّة ويقسم بأنّه سيصلح اعوجاجه.

* * *

وابتدأ النعاس يداعب جفوني وأخذت عيناي تنتقلان بين الكلمات المطبوعة، والكلمات المكتوبة بالقلم، ثم استغرقت في

النوم. واأسفاه! لقد قضيت ليلة مضطربة، لعلها كانت من تأثير الشاي أو من مزاجي السيِّئ.

بدأت أحلم، ورأيت أن الصباح قد طلع وقد أخذت طريقي صوب منزلي ويوسف معي ليدّلني على الطريق، كان الثلج يغمر الطريق، ثم استوقفني فجأة خاطر جديد، وهو أني لم أكن أسير إلى البيت ولكن كنّا نسير لنستمع إلى الوعظ من قسِّيس الكنيسة. وصلنا الكنيسة وكنت قد زرتها في اليقظة فعلاً مرتين أو ثلاثاً. كانت تقع في فجوة بين تلَّين، بالقرب من مستنقع رطب. واستمعنا إلى خطبة القسِّيس فكانت خطبة شاملة تتألَّف من أربعمائة وتسعين جزءاً، وكل جزء يتحدّث عن معصية. لم أعرف كيف بحث عنها جميعاً. وكان له أسلوبه الخاص في تفسير المقاطع والجمل. ولكني مللتُ ذلك، فكم تأوَّهت، وتلوَّيت من السأم، وساد الكنيسة بعد ذلك ضجيج وعويل وأخذ الرجال يصفعون بعضهم بعضاً، ممّا لم يستطع القسِّيس معه أن يظلّ مكتوف اليدين فضرب الطاولة التي أمام المنبر فاستيقظتُ من نومي. وتطلّعتُ حولي فرأيت أغصان شجرة الشوح تلمس النافذة، والريح تعصف بشدة فتنقر ألواحها الزجاجية. وأرهفت سمعي هنيهة حتى تبيّن لي مصدر الصوت ثم أغرقت في نومي من جديد ورأيت حلماً جديداً أيضاً.

رأيت هذه المرّة أنّني مضطجع في غرفة السنديان وسمعت بوضوح الريح القاسية والثلج يتساقط بشدة. كما سمعت أيضاً غصن شجرة الشوح يطرق النافذة ويكرِّر الصوت الذي سمعته وأنا في اليقظة، لكنّه أزعجني إلى حدّ كبير جعلني أقرّر إيقافه، وأعتقد أنّني نهضت من فراشي وحاولت إغلاق النافذة. وتمتمت قائلاً: «يجب إيقاف هذا الصوت» ومددتُ يدي خلال النافذة لأمسك بالفرع العنيد

وبدلاً من أن تُمسك أصابعي به فقد أمسكت بأصابع يد صغيرة باردة كالثلج! فغمرني خوف شديد، وحاولت أن أسحب ذراعي، لكنّ اليد تشبّثت بها وقالت بصوت تشوبه الكآبة والحزن الشديد: «دعني أدخل». سألتها وأنا أناضل لأسحب يدي: «مَن أنت؟ أجابت وهي ترتعش: «كاثرن لنتون». لقد عدت إلى البيت، وكنت قد ضللت طريقي في السهل!» وفي أثناء ذلك أبصرت وجه طفل ينظر خلال النافذة. لقد حملني الرعب على أن أكون قاسي القلب، فعندما اتّضح لي أنّه من العبث أن أحاول طرد تلك المخلوقة سحبتُ رسغها على الزجاج المكسور وأرجعته ثم سحبته مرة أخرى وأرجعته، وكرّرت ذلك عدّة مرّات حتى سال الدم من اليد وبلّل غطاء فراشي، غير أنّها ظلّت تصيح: «دعني أدخل!» فقلتُ لها أخيراً وقد كاد يطير عقلي من الخوف: «كيف أستطيع ذلك؟ اتركيني إذا أردتِ أن تدخلي». تراخت الأصابع، فجذبت يدي عندئذٍ من الفجوة، وبسرعة أغلقتها بالكتب التي وضعتها فوق بعضها على شكل هرمي. وأغلقت أذني حتى لا أسمع شيئاً وظللت على هذه الحال أكثر من ربع ساعة إلّا أنّه في اللحظة التي فتحتهما سمعت من جديد رجع الصوت الحزين الكئيب. قلت بأعلى صوتي: «أغربي! إنّني لن أدعك تدخلين حتى ولو بقيت على هذه الحالة عشرين عاماً». أجاب الصوت: «لقد مضى عشرون عاماً، عشرون عاماً. وأنا مشرّدة لا مأوى لي ولا ملجأ!» وبعد ذلك بدأت أسمع طرقاً خفيفاً في الخارج وتحرّكت كومة الكتب إلى الأمام. حاولت أن أقفز ولكن لم أستطع تحريك عضو واحد من جسمي، فصرخت من شدة الفزع. وسمعت بعد ذلك صوت أقدام تقترب من باب غرفتي، وفُتِح الباب بيد قويّة، وظهر نور من خلال الكوّة التي في أعلى الجدار فجلستُ في فراشي وجبيني يتصبّب عرقاً،

كان الشخص القادم نحوي يبدو متردّداً في دخول الغرفة وأخيراً قال في صوت خافت وكأنه لا يتوقّع جواباً: «هل يوجد أحد هنا؟» فوجدت من الأفضل أن أقرّ بوجودي، وقد عرفت لهجة هيثكلف وخشيتُ أن يجري بحثاً في الغرفة إذا ظللت صامتاً. قمت من سريري وفتحت الباب، ولن أنسى أبداً الأثر الذي تركه عملي هذا.

كان هيثكلف يقف بالقرب من المدخل وهو يلبس قميصاً وسروالاً ويحمل في يده شمعة كانت تسيل على أصابعه وكان وجهه أبيض كلون الجدار الذي خلفه. وقد ذعر من أنين شجرة البلوط كمن أُصيب برعشة كهربائيّة فانتثرت الشمعة التي في يده إلى مسافة بضعة أقدام وبلغ به الاضطراب إلى درجة كبيرة لم يكن من السهل عليه التقاطها.

ناديت قائلاً وبي رغبة في أن أصون كرامته ولا أُظهر جبنه: «إنّني ضيفك. ولقد كان من سوء حظّي أن أصرخ في نومي لأني رأيت حلماً مزعجاً. إنّني آسف لإزعاجك».

أجاب هيثكلف بعد أن وضع الشمعة على الكرسي لأنّه وجد من المستحيل أن يمسكها بثبات: «آه، أدعو الله أن يوقعك في حيرة يا مستر لوك ود! ومَن الذي أرشدك إلى هذه الغرفة؟» وأردف يسألني وهو يقرظ أظافره بأسنانه «من هو؟ لقد قرّرت أن أطرده من البيت في هذه اللحظة!».

أجبته: «خادمتك (زيلا). إنّي لست أبالي إذا فعلت ذلك يا مستر هيثكلف، إنّها تستحق الطرد. أعتقد أنّها كانت تودّ أن تقيم برهاناً جديداً على أنّ المكان تسكنه الأشباح مستغلّة بذلك وجودي. حسناً إنّ الأشباح والعفاريت تحوم في جميع أرجائه! إنّ لديك سبباً لإغلاقه!».

سألني هيثكلف: «ماذا تعني! وماذا تعمل هنا؟ نَمْ واقضِ ليلتك هنا ولكن بحقّ السماء لا تكرّر ذلك الصوت المفزع، إذ ليس هناك ما يستدعي هذا الصراخ سوى قطع عنقك!».

قلت: «لو دخل الشيطان الصغير من النافذة لكان من المحتمل أن يقتلني! إنّي لن أتحمّل العذاب! أجدادك الكرماء مرّة أخرى. إنّ تلك، كاثرن لنتون أو أرنشو أو مهما يكن اسمها - لا بدّ أنّها روح شرِّيرة صغيرة! لقد قالت لي إنّه قد مضى عليها عشرون عاماً وهي تجوب الأرض طوال هذه السنوات - إنِّي لا أشكّ أنّ ذلك جزاء عادل لها على ما ارتكبت من أعمال».

وما كدتُ أنطق بهذه الكلمات حتى تذكّرت علاقة هيثكلف باسم كاثرن في الكتاب الذي كنت قد نسيته تماماً. شعرت بالخزي من سوء تقديري، ولكنِّي تداركت الأمر، وأضفت قائلاً: «الحقيقة يا سيِّدي أنّني قضيت الجزء الأوّل من الليل - وهنا توقّفتُ من جديد - وكنت على وشك أن أقول له وأنا أطالع هذه المجلّدات القديمة، ولكنِّي عدلت عن ذلك وقلت - في تهجئة الاسم المخطوط على حافة النافذة. وقد جعلتني هذه العمليّة الرتيبة أغطّ سريعاً في نومي أو ـ».

غير أنّ هيثكلف صاح في وجهي كالرعد قائلاً: «ماذا تعني بالتحدّث إليّ في هذا الأسلوب؟ كيف تجرؤ على ذلك وأنت في بيتي؟ - يا إلهي! إنّ المجنون لا يتحدّث كذلك!» وصفع جبهته بغضب شديد.

لم أعرف ما إذا كان من المستحسن أن أستمرّ في حديثي لأوضح موقفي، أو أتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه كان يبدو أنّه قد تأثّر إلى درجة كبرى فواصلتُ حديثي عن الأحلام التي شاهدتها

مؤكِّداً أنّي لم أسمع اسم (كاثرن لنتون) قبلاً، ولكن قراءة الاسم مراراً أثّر في تفكيري فتشخّص صاحب الاسم أمامي في الحلم. سقط هيثكلف تدريجياً، وأنا أتكلّم على السرير، ولاحظت أنّه بتنفُّسه المنقطع غير المنتظم كان يجاهد ليتغلّب على عاطفة عنيفة.

ولمّا لم أشأ أن أُظهر بأنّي لاحظت صراعه العنيف واصلت ترتيب هندامي بهدوء، نظرت إلى ساعة يدي، ثم أبديت استغرابي لطول الليل قائلاً: «إنّ الساعة لم تُشر بعد إلى الثالثة! كنت أعتقد أنّها قد بلغت السادسة. إنّ الوقت بطيء هنا لا ريب أنّنا قد أوينا إلى فراشنا في الساعة الثامنة!».

أجاب هيثكلف وهو يخفي أنّة في صدره: «إنّنا دائماً ننام في التاسعة في الشتاء ونستيقظ في الرابعة».

وأضاف يقول: «مستر لوك ود، يمكنك أن تذهب إلى غرفتي. إنّ صراخك الصبياني قد طرد النوم من جفوني».

أجبت: «وكذلك بالنسبة إليّ، إنّني سأسير في ساحة البيت حتى ينبثق نور الصباح ثم أعود إلى داري ولن تخشى بعد اليوم تطفُّلي. لقد شفيت تماماً من علّة البحث عن المسرّات في المجتمع أَسِوَاء كان ذلك في المدينة أو القرية. إنّه ينبغي على الرجل العاقل أن يجد من نفسه خير جليس».

تمتم هيثكلف: «رفيق بديع! خذْ الشمعة واذهب حيثما تشاء. سألحق بك مباشرة، ابتعد عن الساحة، لأنّ الكلاب غير مقيّدة، ويمكنك أن تتجوّل حول السلّم والممرّات فقط. سأحضر خلال دقيقتين».

أطعتُ أمره حتى أبتعدَ عن الغرفة، ولمّا كنت أجهل إلى أين

تؤدّي الممرّات الضيّقة، وقفت في مكاني لا أحرّك ساكناً، ورأيت بدون قصد مشهداً لم أكن أتوقّعه من هيثكلف.

صعد إلى السرير وفتح النافذة وصاح قائلاً والدموع تنحدر من مآقيه: «ادخلي! ادخلي يا كاثي، أرجوك أن تدخلي! آه! يا حبيبة قلبي! اسمعيني هذه المرّة، كاثرن!».

لم يكن هناك من يجيب، سوى الثلج والريح التي اندفعت خلال النافذة وأطفأت الشمعة التي أحملها.

لقد أثار هذا المنظر الحزن في نفسي، فانسحبتُ وأنا ألوم نفسي على رواية حلمي الغريب، إذ لم يبعث إلّا الأسى. هبطت بحذر شديد السلّم إلى الطابق السفلي فوجدت نفسي في المطبخ الخلفي. كانت النار لا تزال تشتعل في الموقد فأضأت شمعتي من جديد. كان كلّ شيء ساكناً ما عدا قطّة رماديّة زحفت من قرب الموقد وحيّتني بصوت حزين.

اضطجعت على أريكة كانت بالقرب من الموقد، وجلست القطّة على مقعد آخر كان في الجهة المقابلة. وكدت أن أُغمض عيني لولا أن دخل يوسف وهو يحمل سلّماً خشبيّاً طويلاً فأسنده إلى فجوة كانت في السقف، وصعد إلى غرفة صغيرة كانت فوق المطبخ وأظنّها غرفته. ثم هبط منها وغادر المكان دون أن يفوه بكلمة ما.

ثم سمعت وقع خطوات تقترب ففتحت فمي لأقول صباح الخير ولكنّي أغلقته فقد كان هرتون أرنشو يصلّي همساً صلاة تتألّف من سلسلة من اللعنات المنصبّة على كلّ شيء يلمسه. ألقى بنظرة إلى الجهة التي اضطجع فيها ولم يفكّر بأن يبادلني التحيّة أو يبادل رفيقتي القطّة. تبيّن لي من حركاته أنّه ينبغي عليّ أن أغادر مكاني، قمتُ فأشار إلى باب داخلي فولجته فإذا بي في «البيت».

كانت زيلا تقف بالقرب من المدخنة بينما كانت السيّدة هيثكلف تجلس على ركبتيها بالقرب من الموقد وهي تقرأ في كتاب على ضوء اللهب المشتعل في الموقد. وكانت رافعة يدها لتكون حاجزاً بين عينيها وحرارة اللهيب، وكانت تبدو أنّها غارقة في القراءة. وقد دهشت لرؤية هيثكلف هناك أيضاً. كان يقف بجانب الموقد وقد أدار ظهره لي، وفي اللحظة التي دخلت فيها القاعة كان قد انتهى من تأنيب زيلا المسكينة التي كانت تتوقّف عن عملها بين آونة وأخرى لتمسك بطرف ردائها وترسل أنّة سخط من صدرها.

وانفجر هيثكلف صائحاً في وجه زوجة ابنه: «وأنت أيّتها الخسيسة - لقد عدت إلى ألاعيبك من جديد، الجميع يكسبون خبزهم بعرق جبينهم أمّا أنت فتعيشين على الصدقة وما أتكرّم به عليك. ارمي هذا الكتاب السخيف وابحثي عن شيء تعملينه سوف تدفعي لي مقابل ما أتحمّله من تعب في بقائك أمام ناظريّ إلى الأبد - هل تسمعين أيّتها الحقيرة؟».

أجابت الفتاة بعد أن أغلقت كتابها وألقت به على الكرسي: «سألقي بكتابي السخيف لأنّه باستطاعتك أن تجعلني ألقيه إذا رفضت ذلك، ولكنّي لن أعمل شيئاً ما سوى ما أبتغيه!».

رفع هيثكلف يده بينما قفزت الفتاة إلى مكان أكثر أمناً، ولمّا كنت غير راغب في التمتّع بمشهد قتال القطّة والفأر ابتعدت عنهما، وسرتُ نحو الموقد مدّعياً أنّي أودّ الدفء بجانبها. غير أنّهما توقّفا عن الخصام، وضع هيثكلف يديه في جيبه وزمّت السيّدة هيثكلف شفتها وسارت نحو مقعد بعيد حيث جلست صامتة كالتمثال طوال المدّة التي مكثت فيها هناك. لم يدم بقائي طويلاً فقد رفضت أن أشاركهم طعام الإفطار، وما أن لاح أول شعاع من الفجر حتى

غادرت البيت إلى الهواء الطلق الذي كان صافياً وهادئاً غير أنّه كان بارداً كالثلج.

وناداني مستر هيثكلف قبل أن أصل إلى نهاية الحديقة وعرض عليّ أن يرافقني عبر المرج، لقد أحسن بذلك لأنّ الأرض كانت كتلة واحدة من الثلج بيضاء كالمحيط. تبادلنا الحديث قليلاً طوال الطريق حتى أوصلني إلى مدخل حديقة (ثرشكروس) وقال إنّني لن أضلّ طريقي هنا. كان وداعنا مجرّد انحناءة سريعة ثم اندفعت إلى الأمام واثقاً بمعرفتي للطريق. وتبلغ المسافة بين مدخل الحديقة والبيت ميلين، وأعتقد أنّي أطلتها إلى أربعة أميال إذ ضللتُ طريقي بين الأشجار، وكثيراً ما كنت أغوص حتى عنقي في الحفر الثلجيّة. وعلى كلّ حال، فقد كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة عندما دخلت عتبة الباب، وذلك يعني أنّني قطعت كلّ ميل بين مرتفعات ويذرنغ وبيتي بساعة كاملة.

أسرعت الخادمة وأفراد عائلتها للترحيب بي وهم يجهشون بالبكاء وقالوا إنّهم كانوا قد قطعوا الأمل في نجاتي، وكان كلّ منهم يعتقد أنّني قد قضيت نحبي الليلة الماضية وكانوا يتساءلون أين يجب عليهم أن يبدأوا بالبحث عنّي. طلبتُ إليهم أن يهدأوا الآن بعد أن رأوني أعود إليهم وجررت نفسي إلى الطابق العلوي. وبعد أن أبدلت ثيابي وارتديت ثياباً جافّة، وعادت الحرارة إلى جسدي، لجأت إلى غرفة الجلوس كقطّ هزيل لأمتّع نفسي بالنار المفرحة البهيجة والقهوة التي أعدّتها الخادمة لتُعيد نشاطي وقوّتي.

4

قرّرت أن أمتنع عن خوض الحياة الاجتماعيّة وأعيش حرّاً، وحمدت الله على سلامتي في النهاية. وظللت طويلاً أصارع الوحدة حتى وجدت نفسي مرغماً في النهاية على التنازل عن قراري. وبحجّة الحصول على معلومات تتعلّق بشؤون بيتي، طلبت من السيّدة دين عنما أحضرت لي العشاء، أن تجلس بالقرب منّي، بينما أتناول طعامي، أملاً في أن تبعث في جسمي النشاط أو تجعلني أتقبّل النوم هادئاً، بفضل حديثها.

قلت لها: «لقد عشتِ أيّتها السيّدة هنا ردهاً طويلاً من الزمن. أظنّ ستّة عشر عاماً؟».

أجابت: «ثمانية عشر عاماً يا سيِّدي، لقد حضرت إلى هنا منذ أن تزوّجت السيِّدة ربّة البيت، وبعد أن ماتت، أبقاني ربّ البيت لتدبير شؤون بيته».

كانت السيِّدة دين قليلة الكلام، ولا تحبّ الخوض في الأحاديث سوى تلك التي تتعلّق بشؤونها الخاصّة، ولم يكن ذلك ذا أهمِّيَّة بالنسبة إليّ. ولذا كان من الصعب الحديث في بادئ الأمر عن الموضوع الذي يلذّ لي سماعه.

ساد الغرفة فترة صمت قصيرة ثم تأوّهت السيّدة وقالت: «لقد تغيّرت الأحوال كثيراً من ذلك الحين».

أجابت بنعم وقلت: «أعتقد أنّكِ شاهدتِ كثيراً من هذا التغيير والتبديل. أليس كذلك؟».

أجبت: «نعم ومشاكل كثيرة أيضاً».

قلت في نفسي: «سأحوّل الكلام إلى الحديث عن عائلة صاحب البيت الذي أسكنه! إنّه موضوع جيّد يستهويني الحديث فيه. وتلك الأرملة الجميلة كم أودّ أن أعرف تاريخ حياتها هل هي من سكّان هذه المنطقة الأصليين أو أنّها غريبة عنها؟ ولذلك فقد سألت السيّدة دين لماذا ترك هيثكلف (ثرشكروس غرانغ)، وفضّل العيش في بيت يتناسب مع حالته المادِّيَّة؟ وسألتها أيضاً: «أليس لديه من المال ما يكفي أملاكه وإدارتها إدارة جيِّدة؟».

أجابت: «إنّه غني! إنّ لديه مالاً لا يعرف أحد مقداره وأنّه كلّ عام في ازدياد، نعم، نعم، إنّه غني إلى درجة تمكّنه أن يعيش في بيت فاخر جدّاً، ولكنّه بخيل! إنّه من الغريب أن يكون الإنسان جشعاً إلى هذه الدرجة في الوقت الذي يعيش في هذه الدنيا وحيداً».

سألتها: «وهل كان أباً؟»

أجابت: «نعم، ولكن نجله مات».

فقلت: «وتلك الشابّة السيّدة هيثكلف، هل هي أرملة ولده؟».

أجابت: «نعم».

سألتها: «في أيِّ بلد وُلدت؟».

أجابت: «لماذا يا سيّدي؟ إنّها ابنة سيِّدي الراحل!».

كان اسمها قبل الزواج كاثرن لنتون. لقد تولّيت رعايتها،

مسكينة! كم أتمنّى أن ينقلها مستر هيثكلف إلى هنا وعندئذٍ يمكننا أن نعيش معاً مرّة أخرى.

قلت متعجّباً: «ماذا؟ كاثرن لنتون!» ولكنّني تذكّرت بعد تفكير قصير أنّها ليست كاثرن التي رأيتها في منامي.

أجابت: «إنّها هي».

سألتها: «ومن هو ذلك أرنشو، هرتون أرنشو، الذي يعيش مع مستر هيثكلف، هل هما أقرباء؟».

أجابت: «كلّا، إنّه ابن شقيق السيّدة لنتون».

قلت: «إذن، هو ابن خال الشابّة السيِّدة هيثكلف!».

أجابت: «نعم، وزوجها كان ابن عمّتها أيضاً، فقد تزوّج هيثكلف أخت السيّد لنتون».

سألتها: «لقد شاهدت أنّه قد حفر على مدخل مرتفعات وذرينغ اسم أرنشو، فهل أرنشو عائلة قديمة؟».

أجابت: «قديمة جدّاً يا سيِّدي، وهرتون هو آخر أفرادها، كما أنّ كاثرن آخر أفراد عائلة لنتون».

وسألتني: «هل زرت مرتفعات وذرينغ؟» وأضافت تقول: «أرجو المعذرة لتوجيه هذا السؤال ولكنّي أودّ أن أعرف كيف حالها؟».

قلت: «مَن؟ السيّدة هيثكلف؟ إنّها بخير وعافية وهي ظريفة حقّاً، ومع ذلك فإنّي أعتقد أنّها ليست سعيدة».

تأوّهت وقالت: «يا عزيزي، إنّي لا أستغرب ذلك! وكيف وجدت السيّد؟».

أجبتها: «إنّه شخص جافّ خشن الطباع، أليست تلك طباعه الأصليّة؟».

قالت: «إنّه خشن كحافّة المنشار وقاسٍ كحجر الرحى! إنّ من الخير ألّا يحاول الإنسان التعامل معه والتقرّب منه».

قلت: «لا ريب أنّه قد لاقى كثيراً من المشاكل ولم يوافِه الحظّ في حياته حتى أصبحَت طباعه خشنة قاسية. هل تعرفين شيئاً عن تاريخ حياته؟».

أجابت: «إنّني أعرف كلّ شيء عنه ما عدا مسقط رأسه، ومَن هما والداه، وكيف استطاع أن يحصل على رأس ماله! وإنّي لا أدري كيف أصبح هرتون منبوذاً، ذليلاً، كالطائر المقصوص الجناح! إنّه الإنسان الوحيد في هذه المقاطعة الذي لا يعرف أنّه مخدوع».

قلت: «حسناً، أرجو أن تتكرّمي وتخبريني شيئاً عن جيراني، إنّي أشعر بأنّه لن أجد الراحة التي أنشدها إذا ما أويت إلى فراشي في هذه الساعة، فأرجوك إذن أن تظلّي إلى جواري لنواصل حديثنا ساعة أخرى».

أجابت: «إنّي رهن أمرك يا سيِّدي! سأحضر قطعة من القماش فقط لأشتغل بها أثناء الحديث وأجلس إلى جوارك قدر ما تريد، ولكن أراك ترتعش من البرد، ينبغي عليك والحالة هذه أن تأخذ قليلاً من الحساء لتزيل ما أصابك من البرد».

أسرعت المرأة الطيِّبة إلى خارج الغرفة بينما اقتربتُ من الموقد، إذ كان جسمي كلّه بارداً كالثلج ما عدا رأسي فقد كان يلتهب من الحمّى. وعادت المرأة بسرعة وهي تحمل وعاء الحساء وسلّة الخياطة، وبعد أن وضعت السلّة على الطاولة وسحبت كرسيّها إلى جواري ممّا دلّ على أنّها قد وجدتني رفيقاً ليِّن العريكة، حسن المعشر.

وابتدأت الحديث دون أن تنتظر أيّة دعوة أخرى منّي لتروي

قصّتها وقالت: «قبل أن أجيء إلى هذا البيت كنت أعيش في مرتفعات وذرينغ، فقد كانت والدتي تربّي مستر هندلي أرنشو، والد هرتون، واعتدتُ أن ألعب مع الأطفال هناك، وكنت أساعد في عمل التبن، وأنفّذ أيّ عمل يطلبه منّي أيّ شخص كان في المرتفعات. وفي صباح يوم من أيّام الصيف الجميلة، وأذكر أنّه كان بدء الحصاد، هبط مستر أرنشو، الوالد، من الطابق العلوي وهو يرتدي ثياب السفر، وبعد أن أخبر يوسف ماذا ينبغي القيام به من عمل أثناء النهار اتّجه نحو هندلي وكاثي ونحوي، وكنت إذ ذاك أتناول طعام الفطور معهما، وقال مخاطباً ابنه: «يا ابني الحبيب إنّي ذاهب اليوم إلى مدينة ليفربول، فماذا تريد أن أحضر لك معي؟ يمكنك أن تختار ما تحبّ، ولكن ليكن ذلك خفيف الحمل لأنّ المسافة بين هنا وهناك ستّون ميلاً في الذهاب والإياب. وهذه مسافة طويلة إذ إنّني سأقطعها مشياً على قدمي». طلب هندلي كماناً. ثم سأل الأب الآنسة كاثي، وقد كانت تقارب السادسة من عمرها، فاختارت سوطاً. ولم ينس الوالد الطيّب القلب أن يعدني بأن يحضر لي كيساً صغيراً مملوءاً بالتفّاح والإجاص ثم قبّل ولديه وودّعنا وسار يقصد ليفربول.

طال غياب مستر أرنشو مدّة ثلاثة أيّام، فبدت تلك الفترة لنا جميعاً طويلة جدّاً، وكثيراً ما كانت تسأل كاثي الصغيرة متى يعود والدها إلى البيت. وتوقّعت السيّدة (أرنشو) أن يعود الوالد في مساء اليوم الثالث فأعدّت العشاء له وانتظرت عودته ساعة تلو ساعة، ولكن لم تلُح في الأفق أيّة إشارة تدلّ على قرب مجيئه، وملّ الطفلان من الوقوف أمام مدخل البيت ينتظرانه، وساد الكون الظلام فدعتهما والدتهما إلى داخل البيت، ولكنّهما رجواها أن تسمح لهما أن يظلا

مستيقظين حتى يعود والدهما. ومرّت ساعة وأخرى حتى اقترب الليل من منتصفه وإذ فجأة بالباب يُفتح بهدوء ويدخل السيّد الدار. ألقى بنفسه فوق كرسي، وهو يئنّ من التعب، وطلب إليهم أن يبتعدوا عنه لأنّه كان منهوك القوى يكاد التعب أن يقتله، وقال إنّه لن يقم بعد اليوم بمثل هذه الرحلة ولو كانت ستوصله إلى ملكوت السموات.

فتح معطفه الكبير الذي كان يحمله بين ذراعه وقال مخاطباً زوجه: «انظري! علينا أن نتقبّل هذا الغلام ونعتبره هديّة من عند الله، بالرّغم من أنّه قاتم اللون وكأنّه قادم من الشيطان».

وتحلّقنا حول مستر (أرنشو) وإذ بي أرى طفلاً، ذا شعر أسود، قذراً، مهلّل الثياب، لا يستطيع الكلام أو السير على قدميه، مع أنّ وجهه كان يدلّ على أنّه أكبر سنّاً من كاثرن. ولمّا وقف على قدميه نظر حوله، ونطق مرّة إثر مرّة ببعض الكلمات التي لم يستطع أحد أن يفهمها. استاءت السيّدة أرنشو من منظر الطفل وقالت إنّها تودّ أن تطرده من البيت وسألت زوجها ماذا دهاه حتى أحضر هذا الصبي الغجري في الوقت الذي يترتَّب عليهما فيه أن يطعما ولديهما ويعتنيا بأمرهما!

حاول السيِّد أن يشرح المسألة ولكنّه كان متعباً جدّاً وكلّ ما استطعنا أن نستنتج منه أنّه وجده بدون مأوى، في أحد شوارع ليفربول وهو يكاد يموت جوعاً. وسأل عن أهله، إلّا أنّه لم يعرف أحد من الناس أهله. ولمّا كانت نقود ربّ البيت ووقته محدودين فقد اعتقد أنّه من الأفضل أن يحضر الطفل إلى بيته فوراً، بدلاً من أن يتكبّد مصاريف تذهب هدراً في ليفربول بحثاً عن والد الطفل، فقد هدأت ثورة السيِّدة في النهاية فأعطته ثياباً نظيفة بعد أن غسلت جسمه بالماء الساخن وأشارت إليه أن ينام مع ولديها.

اكتفى هندلي وكاثي بالنظر والاستماع إلى ما دار بين والديهما من أحاديث عن الطفل الضيف حتى ساد الهدوء، ثم ابتدآ يفتّشان جيوب والدهما بحثاً عن الهدايا التي وعدهما بها. كان الصبي في الرابعة عشرة، ولمّا وجد أنّ أباه لم يحضر له الكمان أخذ يبكي بصوت مرتفع، وأمّا كاثي فقد أخذت تبصق على الطفل الغريب ممّا حدا بوالدها أن يضربها. وقد رفض الطفلان بالمرّة أن يشاركهما الغريب فراشهما، أو حتى أن يُقيم في غرفتهما. ولما لم يكن لي عقل أرجح منهما فقد وضعتُ الغريب على السلّم آملة في أن يغادر البيت في الصباح. وبمحض الصدفة زحف إلى باب غرفة مستر أرنشو الذي استغرب من تمكّن الطفل من دخول غرفته، فوجدت نفسي مرغمة على أن أعترف بأنّي طردته من غرفة الأولاد، وكان جزائي أن طُردتُ من البيت.

وهكذا تمّ تقديم هيثكلف للمرّة الأولى إلى العائلة. وقد عدت بعد بضعة أيّام (إذ لم يكن طردي سوى لمدّة قصيرة) فوجدت أنّهم قد سمّوا الطفل الغريب (هيثكلف)، وكان قد سُمّي بهذا الاسم ولد توفّى لمستر أرنشو وهو في عهد الطفولة. وأخذت الصلات تتوثّق بين كاثي وهيثكلف، لكن هندلي ظلّ يكرهه، وإذا شئت الصدق فإنّي كنت أكرهه أيضاً، كنّا نحرث معه الحقل ونسير معه ونحن نشعر بالخجل.

كان هيثكلف يبدو حزيناً، صبوراً خشناً، وربّما كان ذلك سببه المعاملة التي لاقاها، كان يتحمّل ضربات هندلي بصبر وجَلَدٍ ودون أن يذرف دمعة واحدة. وقد أثار تحمّل هيثكلف لما يلاقيه من سوء معاملة هندلي غضب مستر أرنشو وخاصّة عندما علم أنّ ابنه يؤذي الطفل اليتيم ويناديه باليتيم.

وهكذا، انتشرت روح البغضاء في البيت منذ البداية، وتوفِّيت السيِّدة أرنشو بعد مضيّ سنتين من حضور هيثكلف ومنذ ذلك الحين أصبح السيِّد الصغير يعتبر أباه طاغية بدلاً من صديق، ويعتبر هيثكلف مغتصباً لحنان والده. وقد نمت الكراهية والبغضاء في نفسه للطفل الغريب مع مرور الزمن. كنت أعطف على هندلي في بادئ الأمر، ولكنِّي عدلت عن ذلك عندما أصاب الأطفال الثلاثة مرض الجدري، وتولّيت أمر الاهتمام بهم. كان مرض هيثكلف خطراً وعندما ازدادت حالته خطورة لزمته طوال الوقت، وكنت أجلس إلى جوار فراشه بدون انقطاع. فشعر بأنّني قد صنعت الشيء الكثير من أجله، ولم يكن يعلم أنّني كنت مرغمة على ذلك. لقد كان أهدأ طفل رأيته في حالة المرض. وهكذا أحببته ولم أعد أتحيّز ضدّه. كانت كاثي وأخاها يُتْعِباني إلى حدّ كبير، أمّا هو فكان قليل التشكّي وادعاً كالحمل.

ونجا هيثكلف من المرض، وأكّد الطبيب لي بأنّ شفاءه كان بفضل عنايتي فشكرني على ذلك. وقد بعث هذا المديح الغرور في نفسي فأصبحت أميل إلى هيثكلف الذي نلتُ المديح من أجله، وبهذا خسر هندلي آخر حليف له، غير أنّني لم أستطع أن أتعشّق هيثكلف كما تعشّقه سيّدي. وكنت كثيراً ما أسأل نفسي ماذا كان يرى سيِّدي في هذا الطفل الذي لم يكن سوى ولد حزين، ولا أتذكّر أنّه أبدى يوماً ما أيّة إشارة تدلّ على تقديره وشكره للنعمة التي أُعطيت له، لم يكن عاقّاً لولي نعمته ولكنّه كان غير مدرك للنعمة. وقد أصبح مع الأيّام يعلم تماماً المكانة التي يحتلّها في قلب مستر أرنشو، وأدرك أنّه لم يكن عليه سوى أن يأمر على مَن في البيت جميعاً فيمتثلوا لأوامره ورغباته. ومثلاً لذلك أذكر بأنّ مستر (أرنشو) اشترى

مرّة زوجاً من المهر من السوق وأعطى لكلّ واحد منهما مهراً. أخذ هيثكلف أجملهما إلّا أنّ مهره أُصيب بالعرج وعندما اكتشف ذلك قال لهندلي: «يجب أن تتبادل معي الحصان، إنّي لا أحبّ حصاني فإذا كنت لا ترغب في ذلك فسأخبر والدك عمّا فعلت معي، وأذيتني خلال هذا الأسبوع، وأريه ذراعي الذي اسودّ من كثرة الضرب».

أخرج هندلي لسانه استهزاء وأوجعه لكماً وصفعاً. فرّ هيثكلف من أمامه إلى باحة الدار وقال له: «خير لك أن تعطيني حصانك، إنّي أنصحك، وإلّا فإنّي إذا ما أخبرت والدك عن هذه اللكمات فإنّك ستضرب أمثالها مضاعفة».

صاح هندلي به: «اذهب أيّها الكلب، وهدّده بعيار من الحديد يُستخدم في وزن البطاطا والشعير».

أجاب هيثكلف: «ارمِه، وإلّا فإنّي سأبلِغه بأنّك لن تتردّد في طردي من البيت لحظة وفاته وسترى بعد ذلك فيما إذا كان سيطردك من البيت فوراً أم لا».

غير أنّ هندلي لم يخشَ هذا التهديد وضربه بالعيار الحديد على صدره. سقط هيثكلف من شدّة الضربة لكنّه وقف بعد ذلك وهو يترنّح من الوهن، وقد اصفرّ وجهه وصعب عليه التنفُّس. وكان يعتزم في أن يذهب إلى ربّ البيت في تلك اللحظة ليثأر من هندلي إلّا أنّي منعته من ذلك.

عندئذٍ قال هندلي: «خُذْ مهري أيُّها الغجري، واسأل الله أن يدقّ عنقك، خذه واذهب إلى الشيطان، أيّها الدخيل، يا من تخدع والدي لتسلبه كلّ ما يملك! خذه ليقضي على حياتك!».

ذهب هيثكلف ليحلّ المهر ويأخذه، وبينما هو في طريقه إلى الإصطبل مرّ بالقرب من هندلي الذي ضربه على قدمه وولّى مدبراً

بأسرع ما يمكن. ولقد دُهشت عندما رأيت هيثكلف يواصل طريقه إلى الإصطبل ببرود، ويحلّ المهر ثم يبدّل سرجه، ويجلس بعد ذلك على كومة من القشّ ليتغلّب على الدوار الذي أصابه من الضربة العنيفة قبل أن يدخل إلى البيت. وأقنعته بسهولة بأن يضع اللوم على الجواد إذا ما سُئل عن الجروح والرضوض التي أُصيب بها، وقد أظهر عدم مبالاته بالقصّة التي سيرويها بعد أن نال ما أراد. كان هيثكلف قليل التشكّي بالفعل، لما يصيبه من أمثال هذه الحوادث حتى كنت أعتقد حقّاً بأنّه لا يحبّ الثأر، غير أنّي كنت مخدوعة كما ستسمع قريباً.

5

ومع مرور الزمن ابتدأ مستر (أرنشو) يَهِنُ ويذبل. كان ممتلئ الصحّة دائب النشاط إلّا أنّ قواه الجسديّة انهارت فجأة، ولمّا وجد نفسه مرغماً على أن يظلّ قابعاً بالقرب من الموقد أصبح عصبي المزاج يتضايق من لا شيء، ويثور لأتفه حادث، وخاصّة إذا حاول أيّ إنسان أن يفرض سلطته على ربيبه وحبيبه، كان يعتقد أنّ جميع مَنْ في البيت يكرهون هيثكلف لأنّه كان يحبّه، وينتظرون الوقت الذي تسنح الفرصة فيه لهم لإيقاع الأذى بالفتى، ولقد أضرّ ذلك الصبي، إذ أصبح معظم أهل البيت يبتغي ودّه حتى لا يغضب سيِّد البيت. وقد غذّى هذا الودّ كبرياء الطفل وطباعه القاسية، وازداد سخط هندلي على هيثكلف وأصبح يسخر منه على مرأى من والده الذي صار عاجزاً عن أن يضربه، فكان كلّما أمسك بالعصى ليضربه ارتجف جسده من الغضب وخارت قواه.

وأخيراً، نصحه قسِّيس الأبرشيّة أن يُرسل هندلي إلى الكلِّيَّة فوافق على ذلك بعد تردّده، لأنّه كان يعتقد أنّ ابنه شقي، وأنّه لن ينجح أينما توجّه في دنياه.

وقد عقدنا الآمال على إرسال هندلي إلى الكلّيّة، وبتّ أعتقد

أنّ السلام سيسود البيت بعد الآن، ولقد كان يؤذيني مجرّد التفكير بأنّ مستر أرنشو قد جلب لنفسه التعب، وكثيراً ما كان يجول في خاطري أنّ المرض الذي أصاب ربّ البيت، وضيقه بالحياة كانا نتيجة عدم الوفاق بين أفراد أسرته. وقد كان من الممكن أن تُحتمل الحياة في البيت على هذا النحو لولا شخصان، هما كاثي ويوسف الخادم، الذي رأيته في مرتفعات وذرينغ، لقد كان يوسف وما زال من أكثر الناس تديّناً، وقد استطاع بأحاديثه وعظاته الدينيّة أن يؤثّر على مستر (أرنشو) إلى حدّ كبير، وكلّما ازداد ضعف ربّ البيت كان نفوذ يوسف وتأثيره عليه يزداد كذلك. وكان يوسف كثيراً ما يزيد من قلق أرنشو فيما يتعلّق بمصير ولديه ويشجّعه على أن يعتبر هندلي شخصاً شقيّاً منبوذاً من رحمة الله، وليلة إثر ليلة كان يسرد على مسمعه سلسلة من القصص التي توضح سوء سلوك هيثكلف وكاثي أيضاً.

لقد كانت كاثرن، تختلف فعلاً عن سائر الأطفال في أعمالها وتصرُّفاتها، كات تثير غضبنا جميعاً أكثر من خمسين مرّة في اليوم الواحد، فمنذ اللحظة الأولى التي تستيقظ فيها من النوم إلى الساعة التي تأوي فيها إلى الفراش كنّا نخشى أن يصيبها مكروه بسبب تصرُّفاتها الشاذَّة، كانت دائبة الحركة، لا تهدأ لحظة واحدة، تضحك كثيراً وتغنِّي دائماً وتزعج كلّ من لا يشاركها في الضحك والغناء. لكنها كانت تمتاز بأجمل عين، وأعذب صوت، وأرشق قوام في الأبرشيّة. وكانت شديدة التعلّق بهيثكلف ومغرمة به. وأقصى عقوبة كنّا نهدِّدها بها هو التفريق بينها وبينه. كانت في أوقات لعبها ولهوها تميل إلى درجة كبيرة إلى تمثيل دور السيِّدة الصغيرة.

إلا أنّ مستر (أرنشو) لم يكن من الذين يحبّون مشاركة أولادهم المزاح والضحك ولم تكن كاثرن تدري لماذا أصبح أبوها أقلّ صبراً وأكثر حزناً في مرضه، وقد أيقظ توبيخه المتواصل لها الرغبة في إثارة غضبه، وكانت تجد السعادة في توبيخنا لها، وتتحدّانا جميعاً بنظراتها الجريئة وسرعة جوابها. كانت في بعض الأحيان تأتي إلى والدها في المساء وتطلب منه أن يسامحها على تصرُّفاتها وأعمالها طول النهار. فكان يقول لها: «لا يا كاثي، إنِّي لا أستطيع أن أحبّك لأنّك أصبحت أسوأ من أخيك خلقاً. اذهبي، وصلّي يا طفلتي واستغفري الباري جلّ جلاله. إنِّي نادم على تربيتك والاهتمام بك». كانت هذه الكلمات تبكيها بادئ الأمر، ولمّا أصبحت توجَّه لها دائماً، لم تعُدْ تبالي، وأصبحت تضحك منِّي أخيراً إذا ما قلت لها اطلبي السماح عن أخطاءك.

ودنت أخيراً الساعة التي انتهى فيها شقاء مستر أرنشو في هذه الدنيا، وصعدت روحه إلى بارئها بسلام وهدوء وهو يجلس على كرسيِّه بجانب الموقد في أمسية من أمسيات شهر أكتوبر. كانت الريح تعصف بشدّة في تلك الأمسية، ولذلك كنّا نجلس جميعاً في الغرفة التي تضمّ الموقد، كان يوسف يقرأ الإنجيل بالقرب من الطاولة، بينما كنت أجلس بعيدة بعض الشيء عن الموقد منهمكة بحياكة ثوب جديد. وكانت كاثي مريضة، فجلست هادئة متّكئة على ركبة والدها، وهيثكلف يضطجع على الأرض وقد وضع رأسه في حضنها. وأذكر أنّ ربّ البيت وضع يده على شعرها الجميل، قبل أن يستغرق في غيبوبته، وقال لها:

«لماذا لا تكوني دائماً فتاة طيِّبة يا كاثي؟» فأدارت وجهها إليه وضحكت ثم قال: «لماذا لا تستطيع أن تكون رجلاً طيّباً دائماً يا

والدي؟» ولكنّها حالما رأت أنّها قد آلمته من جديد قبّلت يده وقالت إنّها ستغنّي له كي ينام. وابتدأت تغنّي بصوت خافت جدّاً حتى سقطت أصابعه من يدها وتدلّى رأسه على صدره. عندئذٍ طلبتُ إليها أن تصمت، ولا تحرّك ساكناً خشية أن توقظه من نومه. وساد الصمت الغرفة نصف ساعة كاملة لا ينبس أحدنا فيها ببنت شفة، ولولا أن أنهى يوسف قراءته ونهض من مكانه وقال إنّه ينبغي أن يوقظ سيِّده ليصلِّي قبل أن يأوي إلى فراشه لظللنا أطول من ذلك صامتين. تقدّم يوسف ونادى مستر أرنشو ثم أمسك بذراعه، لكنّه لم يتحرّك، عندئذٍ أخذ الشمعة ونظر إلى وجهه. فلاحظتُ عند ذاك أنّ شيئاً غير عادي قد طرأ على وجه سيّدي، أمسكت الطفلين، كلّ واحد من ذراعه، وهمست في أذن كلّ منهما بأن يصعد إلى غرفة نومه ويصلّي وحده هذه الليلة.

قالت كاثرن: «إنِّي أودّ أن أقول لوالدي ليلتك سعيدة». ووضعت ذراعها حول عنقه قبل أن نستطيع منعها من ذلك، فاكتشفَت المسكينة حالاً موت والدها فصرخت: «أواه، إنّه مات، هيثكلف!» لقد مات! وأخذا يبكيان بكاء قلب مكسور.

وشاركتُهما العويل بصوت عالٍ مرير، ولكن يوسف طلب منّا ألّا نبكي على هذا النحو على قدّيس في السماء، وطلب منّي أن ألبس عباءتي وأن أُسرع إلى (غمرتون) لأحضر الطبيب والقسِّيس. لم أكن أدري ما فائدة دعوتهما في تلك الساعة. وعلى كلٍّ فقد ذهبتُ وسط الريح والمطر، وأحضرتُ الطبيب معي. أمّا القسِّيس فقد قال إنّه سيحضر في الصباح. تركت يوسف يشرح الأمر للطبيب وأسرعت إلى غرفة الأطفال. كان بابها مفتوحاً وما زالت كاثرن وهيثكلف مستيقظين مع أنّ الفجر قد أوشك أن ينبثق. كانا هادئين أكثر من أيّ

وقت مضى ولم يكونا بحاجة إلى مواساتي. كانت روحاهما الصغيرتان تعزِّيان بعضهما بأفكار خير من الأفكار التي أستطيع أن أنقلها إليهما، ولا أعتقد أنّ أيّ قسّيس في العالم باستطاعته أن يصوّر لهما جمال السماء كما كان يبدو لهما. وبينما كنت أنتحب وأستمع إليهما سألت الله أن يحفظنا جميعاً.

6

عاد مستر هندلي إلى البيت لحضور جنازة والده، والشيء الذي أثار دهشتنا وجعل الجيران يتهامسون يمنة ويسرة أنّه أحضر معه رفيقة له. لم يخبرنا أيّ شيء عنها وعن أصلها وعائلتها، وعلى الأرجح أنّها كانت فقيرة تنحدر من أسرة مغمورة، ولو كانت غير ذلك لأخبر والده قبلاً بأمر زواجه.

كانت السيِّدة الجديدة هادئة الطباع بعض الشيء، كان كلّ شيء تراه لأوّل مرَّة يُبهجها وكلّ حادثة تقع تثير اهتمامها ما عدا الاستعداد للجنازة وحضور المعزّين. وأعتقد أنّها كانت نصف معتوهة، وقد تبيّن ذلك من سلوكها أثناء المأتم إذ فرّت إلى غرفتها ودعتني إلى مرافقتها وجلست هناك ترتجف وتصفّق بيديها وتعيد السؤال عليّ المرّة بعد المرّة: «هل ذهبوا؟».

ثم بدأت تصف لي بحركة عصبيّة الأثر الذي يتركه في نفسها لبس ثوب الحداد، وأخذت بعد ذلك ترتعش وتبكي، ولمّا سألتها ماذا دهاها؟ أجابت: «إنّها لا تعلم ولكنّها تخشى الموت كثيراً» كانت شابّة في مقتبل العمر، نحيلة القامة، لها عينان تلمعان كالماس، ووجه منير. ولاحظت شيئاً فيها استرعى انتباهي، وهو

ازدياد سرعة تنفُّسها إذا ما صعدت السلم، وكان أقلّ صوت فجائي يجعلها ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها، كما أنّها كانت تشعر بالتعب إذا اشتدّت القحّة عليها أحياناً. لم أكن أدري ماذا يمكن أن تعني هذه الظواهر، كما أنّي لم أكن أشعر بميل نحوها إذ نحن هنا لا نميل إلى الغرباء بوجه عام إلّا بعد أن يُظهروا مودّة لنا.

ولقد لاحظت تغيُّر (أرنشو) الشابّ وتبدّل شكله تبديلاً كبيراً خلال السنوات الثلاث التي غاب فيها عن البيت، فقد نما جسمه وامتلأ عوده إلّا أنّه فقد نضارة وجهه واختلف الزيّ الذي يرتديه كما اختلفت طريقة حديثه اختلافاً كلّيّاً. وفي اليوم نفسه الذي عاد فيه طلب منّي ومن يوسف أن نُقيم في المطبخ الخلفي ونترك له البيت حالاً. وذلك بناء على رغبة زوجته التي أعربت عن سرورها بحجز القاعة الكبرى في البيت لهما حيث الموقد الكبير والبلاط الأبيض الناصع والاتّساع الفسيح. وقد أعدّت القاعة لتكون مكاناً لجلوسهما وحدهما.

ولقد ابتهجت الزوجة الشابّة بوجود أخت لها بين معارفها الجدد، أحبّت كاثرن بادئ الأمر وكانت كثيراً ما تداعبها وتقدّم لها الهدايا، غير أنّ هذا الحبّ لم يدم طويلاً. إذ أخذ مزاجها يزداد سوءاً يوماً عن يوم بينما أخذ هندلي يزداد قسوة، وكانت بضع كلمات تخرج مِن فيها ضدّ هيثكلف كافية أن تبعث في هندلي كراهيّته القديمة له. وقد أقدم على إبعاده عن البيت إلى حيث يُقيم الخدم، وأصرّ على أن يعمل في الحقل دائماً وألّا يتلقّى الدروس من القسّيس.

تحمّل الصبي هذه الإهانة في بداية الأمر، لأنّ كاثي كانت تلقّنه ما تتلقّى من دروس، وتشتغل أو تلعب معه في الحقول. وأهمل ربّ

البيت الشابّ أمرهما وأمر سلوكهما وتصرّفاتهما طالما ظلا بعيدين عنه، فلم يعُد يبالي أذَهَبا إلى الكنيسة أيّام الآحاد أم لم يذهبا، غير أنّ يوسف والقسّيس ظلّا يهتمّان بهذه الناحية وكانا يؤنّبان هيثكلف ويبلّغان الأمر إلى هندلي الذي كان يأمر بضرب الصبي، ويمنع كاثرن من تناول عشائها أو غدائها.

ولقد كان من أحبّ المسرّات إلى قلب كاثرن وهيثكلف أن يفرّا معاً إلى المروج في الصباح ويظلا هناك طوال النهار، فقد كانا ينسيان كلّ شيء في اللحظة التي يجتمعان فيها معاً، كانا لا يباليان بالعقاب الذي ينتظرهما إذا طال غيابهما، أو قصّرا في واجباتهما. وذات أمسية من أمسيات الآحاد، طردا من غرفة الجلوس لإثارتهما الضجيج، وعندما ذهبت لأدعوهما إلى العشاء لم أجدهما في أيّ مكان. بحثنا عنهما في جميع أنحاء البيت، في الساحة وفي الإصطبلات، إلّا أنّنا لم نعثر لهما على أثر، وأخيراً أمرنا هندلي بأن نغلق الأبواب دونهما وألّا ندعهما يدخلان البيت تلك الليلة. أوى الجميع إلى فراشهم، أمّا أنا فقد فتحت كوّة غرفتي ومددتُ رأسي خارج الكوّة مع أنّ السماء كانت تمطر، علّني أستمع إلى شيء يدلّ على عودتهما، فقد قرّرت أن أُدخلهما رغم أوامر هندلي إذا ما عادا. ولم يمض وقت طويل حتى سمعت وقع خطوات في الطريق وشاهدت ضوء فانوس يقترب من مدخل البيت. ألقيت بشالٍ على رأسي وأسرعت لأمنعهما من قرع الباب حتى لا يستيقظ مستر أرنشو، ولقد ذهلتُ عندما وجدت هيثكلف وحده.

صحتُ في وجهه قائلة: «أين الآنسة كاثرن، آمل ألّا يكون قد حدث لها حادث مؤسف!».

أجاب: «إنّها في ثرشكروس غرانغ، ومن المفروض أن أكون

هناك، إلّا أنّ أصحاب ذلك البيت قوم لا أخلاق لهم، إنّهم لا يسألونني أن أبقى إلى جانبها».

قلت: «حسناً! ستلاقي جزاءك ما الذي قادك إلى هناك؟».

أجاب: «دعيني أخلع ثيابي المبتلّة ثم أخبرك عن كلّ ما حدث معنا».

حذّرته من إيقاظ ربّ البيت، وبينما كان يبدّل ثيابه مضى يحدّثني: «لقد قرّرت مع كاثي أن نتجوّل معاً في الحقول، وقد لاحت لنا أثناء ذلك أضواء (غرانغ)، فخطر لنا خاطر أن نقصد ذلك المكان لنرى ما إذا كان أبناء عائلة لنتون يقضون ليلة الأحد وهم يرتجفون في زوايا ذلك المنزل مثلنا، بينما يجلس والداهما يتمتّعان بالأكل والشرب ويضحكان ويغنّيان بالقرب من الموقد، أو ما إذا كانوا يقرأون في الإنجيل ويعاقَبون، ويُرغَمون على حفظ قائمة كبيرة من أسماء النحّاتين إذا لم يتقنوا حفظ دروسهم. فهل تعتقدين أنّهم كانوا كذلك؟».

أجبت: «في الغالب كلّا، إنّهم أولاد ذوو أخلاق حسنة لا يستحقُّون المعاملة التي تعاملان بها لسلوككما المشين».

قال: «إنّ هذا هراء. لقد ركضنا من أعالي المرتفعات إلى الحديقة بدون توقُّف، وقد فزت على كاثرن في السباق لأنّها كانت حافية القدمين. وينبغي أن تبحثي عن حذائها في الصباح بين أعشاب المستنقع. وعلى كلّ فقد شققنا طريقنا إلى البيت وجلسنا تحت نافذة غرفة الاستقبال التي كان يسطع الضوء فيها. كانت النوافذ مفتّحة على مصراعيها والستائر غير مسدلة جميعها فاستطعنا أن نرى مَن في الغرفة وما أجمل ما رأينا، مكان جميل فُرشَت أرضه بالسجاجيد القرمزيّة البديعة وطُلِيَ سقفه بالدهان الأبيض الناصع، وازدانت أطراف السقف

بماء الذهب الصافي. كانت الكراسي والموائد ذات لون قرمزي كذلك، وتدلّت من وسط السقف ثريّا من الفضّة الخالصة. لم تكن السيِّدة لنتون وزوجها في الغرفة، بل كان إدغار وأخته لوحدهما. لقد تخيّلنا أنفسنا أمام هذا المشهد كأنّنا في السماء. والآن هل تستطيعين أن تقولي لي ماذا كان الطفلان يعملان؟ كانت إيزابيلا - وأعتقد أنّها كانت في الحادية عشرة أي أصغر بسنة واحدة من كاثرن تزعق بأعلى صوتها في إحدى زوايا الغرفة وكأنّ الشياطين يغرزون أبراً حمراء حامية في جسدها. بينما كان إدغار بالقرب من الموقد يبكي بهدوء. وفوق المائدة جلس كلب صغير يعوي وقد اتّضح لنا أنّهما كانا يتخاصمان. ما أسخفهما! لقد كان في ذلك متعة لهما! لقد ضحكنا منهما واحتقرناهما فعلاً! فمتى رأيتنا بانيلي نبحث عن المتعة في الصراخ والبكاء والتدحرج على الأرض؟ ومتى وَجدتِني أطلب ما بيد كاثرن؟ إنّي لا أرضى أبداً أن أبادل إدغار لنتون معيشته في (ثرشكروس غرانغ) حتى ولو قُدِّر لي وكُتب عليّ أن أُلقي بيوسف من أعلى السطح وألطِّخ الجدار الأمامي للبيت بدم هندلي».

قاطعته قائلة: «صه! صه! لم تخبرني بعد يا هيثكلف كيف تركت كاثرن؟».

أجاب: «لقد قلت لك إنّنا ضحكنا، فلمّا سمع إدغار وأخته ضحكنا اندفعا حالاً صوب الباب كالسهم، وساد الصمت في الغرفة ثم علا صوت بكاء فيها. وسمعناهما يناديان: «ماما، ماما! بابا، بابا». وأخذنا نرسل أصواتاً مفزعة لنلقي المزيد من الرعب في قلوبهما ثم انسحبنا من مكاننا على حافّة الجدار المحيط بالمنزل، لأنّنا شعرنا بأنّ أحدهم قد اتّجه صوب الباب الخارجي، وأنّه من الخير لنا أن نبتعد. كنت أمسك بيد كاثي أحثّها على الإسراع، وبينما

نحن كذلك إذ سقطت كاثي فجأة على الأرض وهمست في أذني قائلة: «أسرع، هيثكلف، أسرع! لقد أطلقوا وراءنا الكلب الكبير، إنّه يمسك بي». تصوّري يا نيلي لقد كان الشيطان يقبض بفمه على رسغها، وسمعتُ شخيره الكريه البغيض. إنّها لم تصرخ - كلّا! ولكنّي أنا الذي صرخت وصببت عليه من اللعنات ما يكفي أن يقضي على أيّ شيطان في العالم، والتقطت حجراً ألقيته بين فكّيه وحاولت بكلّ قوّتي أن أخنقه. وأخيراً خرج خادم البيت يحمل مصباحاً وصاح بالكلب ابتعد، ابتعد! لكنّه توقّف عن الصياح عندما رأى ذلك الكلب الضخم قد انبطح على الأرض وقد تدلّى لسانه زهاء نصف قدم خارج فمه، وشفتاه تسيل الدماء منهما. أنهَضَ الرجل كاثي عن الأرض، إذ كانت قواها قد خارت من الألم. وحملها إلى البيت فتبعته وأنا أصبّ جام غضبي عليه وعلى أسياده.

وصاح لنتون الذي كان يقف عند المدخل: «أيّة فريسة هذه!».

أجاب الخادم روبرت: لقد أمسك الكلب فتاة صغيرة يا سيِّدي، وها هنا فتى يمسك بتلابيبي ويبدو كأنّه من قطّاع الطرق تماماً، إنّه كأولئك اللصوص الذين يتسلّلون من النوافذ ليفتحوا الأبواب إلى أفراد العصابة بعد أن ينام أصحاب البيت، وأردف يقول لي: «اخرس أيُّها اللصّ سنلقي بك في غياهب السجون»، وقال مستر لنتون مخاطباً زوجته: «انظري يا عزيزتي! لا تخافي، إنّه ليس إلّا صبيّاً - أليس من الخير أن يُشنق حالاً قبل أن يثبت في الأعمال على خبث أصله كما تدلّ ملامحه؟». وسحبني من يدي وأوقفني تحت الضوء بينما وضعت السيِّدة لنتون نظّارتها على أنفها ورفعت يديها في رعب. وتسلّل الطفلان إلى جانبي وقالت إيزابيلا: «يا إلهي، إنّه شيء فظيع! ألقي به يا أبي في القبو. إنّه يشبه تماماً ابن الغجري،

العرّاف، الذي سرق عصفوري الأليف أليس كذلك يا إدغار؟».

وبينما هم يفحصونني، أقبَلَت كاثي، وسمعت القسم الأخير من الحديث، فضحكت. تذكّرها إدغار بعد أن حملق في وجهها، فقد كان يراها مع أخته في الكنيسة، وعندئذٍ همس في أذن أمّه قائلاً إنّها الآنسة أرنشو! وشاهد الدماء تنزف من قدمها.

صاحت الأمّ: «الآنسة أرنشو! هذا هراء! أيمكن أن تجوب الآنسة أرنشو البلاد برفقة غجري؟!» صاح مستر لنتون دهشاً: «ما هذا الإهمال الأثيم الذي يرتكبه أخاها! لقد علمت من القسّيس أنّه يفسح لها المجال لتترعرع في جوّ وثني». وأدار وجهه نحوي وقال: «ولكن مَن هذا؟ كيف وجدَتْ لها هذا الرفيق؟ أوه! أعتقد أنّه ذلك الغريب الذي التقطه جارنا الراحل عندما سافر إلى ليفربول - ألا يمكن أن يكون هذا الصبي قد قذفت به إحدى السفن الأميركيّة أو الإسبانيّة التي تتحطّم بالقرب من الميناء؟!».

قالت السيِّدة: «إنّه ولد شرِّير، على كلّ حال، وليس من المناسب أن يعيش في بيت محترم. هل لاحظت لهجته يا لنتون؟ إنِّي أخشى على أطفالي من أن يسمعوه».

ولكن لا تغضبي يا نيلي لقد استأنفت صبّ اللعنات عليهم، فعند ذلك أمروا روبرت الخادم أن يأخذني. رفضت أن أذهب بدون كاثي غير أنّه سحبني من يدي إلى الحديقة، ودفع المصباح إلى يدي، وأكدّ لي أنّهم سيُطلِعون مستر أرنشو على سوء سلوكي، ثم أمرني أن أتوجّه رأساً إلى البيت وأغلَقَ الباب خلفه. كانت إحدى الستائر ما زالت غير مسدلة فأخذتُ أتجسّس عليهم لأنِّي كنت قد قرّرت تحطيم ألواحهم الزجاجيّة الكبيرة إلى مليون قطعة، إذا أرادت كاثرن أن تعود معي ولم يسمحوا لها بذلك.

رأيتها تجلس بهدوء على أريكة طويلة، واقتربت السيِّدة لنتون منها فنزعت عنها العباءة الرماديّة التي كانت قد استعارتها لرحلتنا من الفتاة التي ترعى البقر في بيتنا. ثم أمرت السيِّدة الخادم فأحضر وعاء فيه ماء ساخن وغسل قدمها. وبعد ذلك أفرغت إيزابيلا صحناً مملوءاً بالكعك والحلوى في حضنها، بينما وقف إدغار بعيداً ينظر إليها وهو فاتح فاهُ مشدوهاً. بعد ذلك قامت السيِّدة بتنشيف شعرها الجميل، وتسريحه، وأحضر لها الخادم خفّاً ثم حملها على عربة إلى جانب الموقد، وقد تركتها وهي على أسعد ما يمكن أن تكون، تركتها وهي توزِّع طعامها بين الكلب الصغير والكلب الكبير الذي هجم عليها. شاهدتهم جميعاً ينظرون إليها نظرة ملؤها الإعجاب، فهي لا ريب تمتاز بأشياء كثيرة عنهم، إنّها تمتاز عن أيّ إنسان في العالم، أليس كذلك يا نيلي؟

أجبته وأنا أدثّره وأطفئ النور قائلة: «سيكون لهذا الحادث نتائج أكثر ممّا تتصوّر. وسترى أنّ مستر هندلي سيعاقبك عقاباً شديداً».

ولقد تحقّق ما كنت أتوقّعه، إذ أثارت المغامرة السيّئة الطالع غضب أرنشو. وممّا زاد في تأزُّم الحالة أن حضر مستر لنتون في الصباح بنفسه إلى البيت لزيارتنا وألقى على مسامع ربّ البيت الشابّ محاضرة طويلة عن طريقة تربية وإرشاد أفراد عائلته. لم يضرب هندلي هيثكلف، لكن أبلغه أنّه إذا ما تحدّث إلى كاثرن كلمة أخرى فإنّه سيطرده دون تردّد من البيت، وتعهّدت السيِّدة أرنشو أن تحافظ على ابنة عمّها، وألّا تدعها تحدّث هيثكلف بعد عودتها إلى البيت، مستخدمة بذلك الأساليب الفنيَّة ومبتعدة عن أساليب الإكراه والقوّة.

7

ظلّت كاثرن في ثرشكروس خمسة أسابيع، أي حتى حان موعد حلول عيد الميلاد، وأثناء ذلك شفي رسغها شفاءً تامّاً وتحسّنت أخلاقها تحسُّناً كبيراً. كانت السيِّدة كثيراً ما تتحدّث إليها وتتملّق لها بغية إصلاح حالها وعملت على رفع معنوياتها بإلباسها الثياب الفاخرة. وهكذا تبدّلت حال كاثرن، وما أن عادت إلى البيت حتى أصبحت فتاة مهذّبة محترمة، ولم تعد تلك الفتاة البرِّيّة الوحشيّة الطباع، المتمرِّدة. كنّا جميعاً في استقبالها عند عودتها، حملها هندلي من على ظهر الجواد الذي امتطته من ثرشكروس وأنزلها إلى الأرض وقال لها في سرور واستغراب: «ما هذا يا كاثي، إنّك جميلة حقّاً! كدت ألّا أعرفك، إنّك تبدين الآن كأحسن السيِّدات أناقة وجمالاً وخاطب زوجته قائلاً: إنّ إيزبيلا لنتون لا تجاريها جمالاً وظرفاً أليس ذلك حقّاً يا فرنسيس؟».

أجابت زوجته: «إنّ إيزابيلا لا تتحلّى بالمميّزات الطبيعيّة التي تتحلّى بها كاثرن، لكن ينبغي عليها ألّا تعود هنا إلى تمرّدها السابق». وقالت لي «ساعدي الآنسة كاثرن على نقل أغراضها، وأنت يا عزيزتي كاثرن، لا تقومي بأيّ عمل، حتى لا تفسدي ترتيب شعرك وتصفيفه، دعيني أحلّ رباط قبّعتك».

وساعدت كاثرن على خلع عباءتها فظهر تحتها فستان من الحرير الفاخر، وبنطال أبيض اللون، وحذاء لامع. وقد لمعت عيناها من الفرح عندما أقبلت الكلاب نحوها تحييها، إلّا أنّها خشيت أن تلمسها حتى لا تقترب من ثيابها الجميلة. قبّلتي كاثرن بلطف ثم بحثت عن هيثكلف وهي تنظر هنا وهناك، بينما كان أخوها وزوجه يرقبان بلهفة كيف سيلتقيان ظنّاً منهما أنّهما يستطيعان أن يتأكّدا من هذه المقابلة ما إذا كانا سينجحان في التفرقة بين الصديقين.

قالت كاثرن وهي تسحب قفّازها وتظهر أصابعها التي ابيضّت من قلّة العمل واحتجابها داخل البيت: «أليس هيثكلف موجود هنا»؟

قال مستر هندلي وقد بدا عليه السرور لأنّه رأى هيثكلف مغبّراً، أشعث الشعر: «يمكنك أن تتقدّم يا هيثكلف وتحيي الآنسة كسائر الخدم». لقد حاول هيثكلف أن يخفي نفسه عندما رأى الفارق في المظهر بينه وبين كاثرن، فقد أهمل الفتى نظافته وثيابه بعد غياب كاثرن من البيت إهمالاً يفوق إهماله قبل غيابها. لم يكن قد أبدل ثيابه لمدّة ثلاثة أشهر فتراكم عليها الوحل والتراب.

وما إن أبصرته كاثرن وهو يحاول الاختفاء عن نظرها حتى طارت إليه وضمّته إليها، وطبعت على خدّه سبع أو ثماني قبلات في دقيقة واحدة ثم تراجعت إلى الوراء وانفجرت ضاحكة وقالت: «ما هذا إنّك تبدو كثير السواد! وكم تبدو مضحكاً! ولكن ربّما لأنّي اعتدت على رؤية إدغار وإيزابيلا لنتون. حسناً يا هيثكلف هل نسيتني؟».

فقد كانت على حقّ أن تسأله هذا السؤال، فلقد زاد الخجل والكبرياء في عبوسه وتقطّب جبينه، وجعلاه يقف لا يُبدي أيّة حركة.

قال مستر أرنشو: «صافحها يا هيثكلف، لقد سمحنا لك هذه المرّة».

أجاب الفتى أخيراً: «إنّي لا أريد، إنّي لا أودّ أن يهزأ ويضحك منّي، إنّي لن أتحمّل هذه السخرية، وحاول أن يفلت من بينهم غير أنّ كاثي أمسكت به».

وقالت: «إنّي لا أقصد أن أهزأ منك، يا هيثكلف، صافحني على الأقلّ! ما بالك! كلّ ما في الأمر أنّك تبدو غريباً: إنّك لو غسلت وجهك ومشّطت شعرك وصفّفته لسوِّيَ كلّ شيء، ولكنّك قذر جدّاً».

ونظرت مليّاً إلى أصابعه القاتمة اللون التي كانت تمسك بها ثم نظرت إلى ثيابها التي خشيت أن تتوسّخ من ملامستها له.

قال هيثكلف: «كان يجب ألّا تقتربي منّي» وسحب يده من يدها وأضاف قائلاً: «سأكون قذراً كما أشاء وإنّي أحبّ أن أظلّ قذراً وسأكون كذلك».

ثم اندفع خارج الغرفة وعلا السرور والبهجة وجه أرنشو وزوجه، غير أنّ كاثرن اضطربت اضطراباً شديداً لأنّها لم تكن تعتقد أنّ ملاحظاتها ستؤدّي إلى إثارة غضب هثيكلف إلى هذا الحدّ.

وبعد أن قمت بخدمة السيّدة الصغيرة، ووضعت الكعكة التي صنعتها في الفرن، وأشعلتُ النار الكثيرة في الموقد بما يتناسب مع ليلة عيد الميلاد، جلستُ لأروّح عن نفسي بترتيل أناشيد عيد الميلاد وحدي، ولم ألتفت إلى ما كان يقوله يوسف، إذ كان يعتبر الألحان المرحة التي أختارها تأتي في المرتبة الثانية من الأغاني. ولم تكن الأغاني في رأيه من وحي الشيطان. كان مستر أرنشو وزوجه أثناء

ذلك يتحدّثان مع كاثرن عن الهدايا التي أحضراها لتقدّمها إلى إدغار وأخته إيزابيلا لنتون، اعترافاً منها بجميل والديهما. كانت كاثرن قد دعتهما لقضاء صباح العيد في مرتفعات وذرينغ فقبلا الدعوة غير أنّ السيِّدة لنتون اشترطت ألّا يختلط ذلك الشقي هيثكلف بولديها العزيزين.

لقد فضّلت الابتعاد والوحدة في هذه الظروف. وتذكّرت كيف كان المستر أرنشو الراحل يأتي إليّ بعد أن يكون كلّ شيء قد رُتِّب ونظّم في البيت ليلة عيد الميلاد ويلقي في يدي شلناً. هديّة العيد، ثم أخذت أتذكّر غرامه بهيثكلف وخوفه من أن يقاسي الحرمان والإهمال من بعده، وأدّى بي ذلك بالطبع إلى التفكير في ما آل إليه حال الفتى الآن. فتبدّل عندئذٍ غنائي إلى البكاء. إلّا أنّه طرأت على تفكيري فجأة فكرة جعلتني أعتقد أنّه من الخير أن أحاول إصلاح أخطاء الفتى بدلاً من أن أسكب الدموع على حاله، فنهضتُ من مكاني وخرجت إلى ساحة الدار لأبحث عن هيثكلف، فوجدته في الإصطبل يُطعم الخيل حسب عادته.

قلت له: «أسرع يا هيثكلف إنّ الراحة والهدوء تشعّان الآن في المطبخ، ويوسف قد صعد إلى الطابق العلوي، أسرع، ودعني أرتّب هندامك، قبل أن تخرج كاثرن، فعندئذٍ تستطيع أن تجلس إلى جانبها بالقرب من الموقد وتتحدّثان طويلاً حتى تأويان إلى فراشكما».

استمرّ في عمله ولم يلتفت إليّ.

قلت له: «تعال يا هيثكلف، قل، ألا تريد أن تأتي؟ لقد احتفظتُ بقطعة صغيرة من الكعك لكلّ منكما».

انتظرتُ خمس دقائق، ولكنّه لم يردّ عليّ. تناولت كاثرن عشاءها مع أخيها وزوجه، وواصل هو عمله حتى الساعة التاسعة ثم

سار صامتاً إلى غرفته وظلّت كعكته على الطاولة طوال الليل دون أن يمسّها.

لم تنم كاثرن تلك الليلة حتى ساعة متأخِّرة فقد ظلّت ساهرة، تتّخذ الاستعدادات لاستقبال صديقيها الجديدين في الصباح، وقد جاءت إلى المطبخ مرّة للتحدّث إلى صديقها القديم إلّا أنّها لم تجده ثم عادت بعد أن سألتني عن حاله.

واستيقظ هيثكلف في الصباح الباكر، ولمّا كان اليوم يوم عطلة فقد ذهب إلى المروج ولم يعد إلى البيت حتى كان جميع أفراد العائلة قد ذهبوا إلى الكنيسة. وبدا لي أنّ الصوم والوحدة قد هذّبا روحه، إذ اقترب منّي وقال لي: «نيلي، إنِّي أحبّ أن أكون فتى حسن الأخلاق».

أجبته: «ضيّعت في الصيف اللبن، لقد أحزنتَ كاثرن، إنّها آسفة لأنّها عادت إلى البيت، إنّك تبدو كأنّك تغار منها وتحسدها لأنّها أرجح منك عقلاً».

لم يكن يفكّر يوماً أنّه يحسد كاثرن أو يغار منها، فلم يفقه معنى هذا القول، إنّما فهم تماماً معنى إغضابه لكاثرن، فقال جادّاً: «هل قالت إنّها غضبت منّي؟».

قلت: «لقد بكت عندما أخبرتها أنّك غادرت البيت في الصباح الباكر».

أجاب: «حسناً لقد بكيت أنا أيضاً الليلة الماضية وأنا عندي من الأسباب التي تدعوني للبكاء أكثر من الأسباب التي عندها».

قلت: «نعم. إنّ الأشخاص المتكبِّرين يجلبون الأحزان لأنفسهم، ولكن، كان ينبغي عليك أن تسألها العفو، اذهبْ الآن

وقل إنّك تودّ تقبيلها، إنّ عليّ الآن أن أعدّ طعام الغداء، ومع ذلك فسأسرق قليلاً من الوقت لأرتّب هندامك لكي يبدو إدغار لنتون كدمية إلى جانبك، وإنّه كذلك. إنّك أصغر منه ولكنّك أطول قامة ومنكباك أعرض من منكبيه، إنّ باستطاعتك أن تطرحه أرضاً في لحظة واحدة، ألا تشعر بأنّك تتمتّع بمثل هذه القوّة؟».

أضاء وجه هيثكلف لحظة ثم عبس من جديد وقال: «ولكن، يا نيلي، إذا ما طرحته على الأرض عشرين مرّة فإنّ ذلك لن يجعله أقلّ منّي ظرفاً ويجعلني أكثر ظرفاً منه. كم أتمنّى أن يكون لي شعر أشقر وبشرة ناعمة، وأن تُتاح لي الفرصة لأكون غنيّاً كما هو غني!».

قاطعته قائلةً: «وتنادي أمّك في كلّ لحظة وكلّ خطوة، وترتجف إذا ما رفع فتى يده أمام وجهك، وتظلّ طوال النهار في البيت خشية ألّا يصيبك رذاذ المطر، أوه، يا هيثكلف، لقد فقدت روحك السامية. تعال أمام المرآة وسأريك ماذا يجب أن تتمنّاه. هل ترى هذين الخطّين اللذين بين عينيك، وهذين الحاجبين الكثيفين، وتلك العينين السوداوين؟ يجب أن تتمنّى وتتعلّم كيف تزيل هذه التجاعيد، وتتكلّم بكلّ صراحة، وتبدلّ الريبة بالثقة».

أجاب: «إنّك تقصدين أنّه ينبغي عليّ أن أتمنّى عيوناً زرقاء واسعة، وجبهة عريضة لإدغار لنتون».

قلت: «إنّ قلباً طيّباً سيساعد على إعطائك وجهاً جميلاً. والآن قل لي: ألا تعتقد بأنّك أصبحت شابّاً أنيقاً بعد أن غسلت وجهك ومشّطت شعرك؟ إنّك تبدو كأمير متخفٍّ، ومَن يدري، فربّما كان أبوك إمبراطور الصين وكانت أمّك ملكة هنديّة يستطيع أيّ منهما أن يشتري من دخله الأسبوعي مرتفعات وذرينغ وثرشكروس غرانغ معاً!

فلو كنت أنا في مكانك، لأَحَطْتُ أصْلي بهالة من العظمة، ولَعثتُ الأفكار في نفسي الشجاعة والجرأة وقضيت على تكبّر ذلك الفلّاح الصغير».

ومضيت في حديثي على هذا النحو، وأخذت أسارير هيثكلف تنفرج تدريجيّاً، وفجأة قطع حبل حديثنا صوت عربة تتقدّم نحو مدخل البيت. فأسرع هيثكلف نحو النافذة وأسرعتُ أنا إلى الباب، فرأينا إدغار وشقيقته يهبطان من عربة والدهما وهما يتدثّران بالفرو والعباءات الفاخرة، وأمسكت كاثرن بيد كلّ من الطفلين، وقادتهما إلى البيت بحيث أجلستهما بجانب الموقد ممّا أعاد الاحمرار إلى وجنتيهما.

شجّعتُ هيثكلف على أن يسرع الآن ويُظهر لطفه ويُبدي حُسن سلوكه فأطاع بكلّ طيبة خاطر، لكن سوء الطالع أدّى إلى ما لم يكن منتظراً، إذ في الوقت الذي فتح فيه هيثكلف الباب المؤدّي من المطبخ إلى غرفة الاستقبال فتح هندلي الباب المقابل له، فالتقيا، وقد اضطرب السيّد لرؤية هيثكلف نظيفاً مبتهجاً، أو ربّما أراد أن ينفّذ وعده للسيِّدة لنتون، فأمسك به ودفعه إلى الوراء، وقال ليوسف بغضب: «أبعد هذا الشخص عن الغرفة - أرسله إلى الغرفة العلويّة في المنزل حتى ينتهي الغداء، إنّه سيلوّث أصابعه بالطعام وسيسرق الفاكهة إذا ترك وحده معهم دقيقة واحدة».

لم أستطع السكوت على هذا: «كلّا يا سيِّدي إنّه لن يمسّ شيئاً، وأعتقد أنّه يجب أن يحصل على نصيبه من الحلوى والطعام».

قال هندلي بصوت عالٍ: «سينال نصيبه منّي إذا هبط من الغرفة قبل حلول الظلام»، وقال مخاطباً هيثكلف: «اغرب عن وجهي يا شقي! ما هذا! إنّك تحاول أن تزيّن نفسك، أليس كذلك؟ انتظر حتى

أمسك بهذه الخصلات من شعرك، وسترى ما إذا كنت سأسحبها أم لا!».

قال لنتون وقد مدّ رأسه من الدهليز: «إنّها طويلة يا عجباً أنّها تبدو كشعر الفرس المتدلّي على عينيه».

لم يستطع هيثكلف أن يتحمّل الإهانة من شخص يكرهه وينافسه، فأمسك بأوّل سلاح لاح أمام بصره، وكان طبقاً من عصير التفّاح، وقذف به وجه لنتون.

اغتاظ لنتون وأخذ يندب ويصيح فسمعته كاثرن وإيزابيلا وأسرعتا إلى مكان الحادث. وأمسك مستر أرنشو بالجاني حالاً وسحبه إلى غرفته، وهناك ضربه ضرباً مبرّحاً ليشفي غليله. وقد رأيت هندلي وهو يخرج من الغرفة وقد احمرّ وجهه وأصبح غير قادر على أن يلتقط أنفاسه. وأثناء ذلك أمسكت بخرقة من الثياب التي أستعملها في تنظيف الأطباق ومسحت أنف إدغار وفمه، وكأنّي بذلك أقول له إنّه قد لاقى جزاء تدخّله. وأخذت شقيقته تبكي تودّ العودة إلى بيتها، بينما وقفت كاثرن حائرة خجلة من الحادثة.

وقالت لإدغار: «كان عليك ألّا تكلّمه! لقد كان في حالة عصبيّة، ولقد أفسدت عليك زيارتك، وأمّا هو فسيُضرب، إنّي لا أحبّ أن يضربوه! إنّي لا أستطيع أن أتناول غدائي اليوم، لماذا تكلّمت معه يا إدغار؟».

أجاب الشابّ وهو يحاول الإفلات من يدي: «إنّي لم أكلّمه، لقد وعدت أمّي ألّا أحدّثه كلمة واحدة وإنّي لم أفعل ذلك» وأمسك بمنديله ليمسح ما تبقّى من عصير التفّاح الذي كان على عنقه، وأخذ يبكي.

قالت كاثرن باحتقار: «حسناً! لا تبكي، إنّك لم تقتل، لا تزيد الطين بلّة، لقد أقبل أخي، اهدأ، صه! إيزابيلا! هل أُصبت بأذى؟».

صاح هندلي: «إلى مقاعدكم أيّها الأطفال، إلى مقاعدكم! لقد أرسل ذلك الفتى المستوحش الدفء في جسدي تماماً. وإذا ما اعتدى عليك مرّة ثانية، يا إدغار، فعاقبه بنفسك».

واستعاد الجميع هدوءهم حالما ألقوا بنظرهم على الطعام الشهي، فقد كان من السهل استعادة مرضاتهم إذ لم يصبهم أيّ أذى. كان مستر أرنشو يصبّ لهم الطعام بينما كانت زوجه تسلّيهم بالحديث. وكنت أقف خلف كرسيّها وأنظر إلى كاثرن بقلب حزين إذ رأيتها تبدو كأنّها لا تبالي بشيء، وهي تقطع جناح الإوزّة التي أمامها على المائدة.

وقلت في نفسي: «إنّها فتاة لا شعور لها، كيف هان عليها أن يُطرد رفيقها شرّ طردة، وكيف استطاعت أن تبعد شبح هذا الحادث عن بالها بسرعة؟ إنّي لم أكن أتصوّر أنّها أنانيّة إلى هذا الحدّ!».

غير أنّها ما كادت تضع أوّل لقمة بين شفتيها حتى أعادتها إلى الطبق واحمرّت وجنتاها وانحدرت الدموع من عينيها. وألقت بشوكتها إلى الأرض متعمّدة وغاصت تحت المائدة لتخفي شعورها. لقد كانت تعيش، كما بدا لي تلك اللحظة، في جحيم، وتترقّب الفرصة التي تستطيع فيها أن تفرّ من إدغار وشقيقته لتجلس وحيدة أو تزور هيثكلف الذي سجنه مستر أرنشو.

ولمّا أقبل المساء وحان وقت الرقص، سألت كاثي أخاها راجية أن يطلق سراح هيثكلف لعدم وجود فتى يراقص إيزابيلا، ولكن رجاءها ذهب أدراج الرياح، وقمت مقام الفتى في مراقصة إيزابيلا، وقد استطعنا أن نتخلّص من الكآبة التي كانت تسود الجمع

في البداية بفضل الموسيقى والرقص، وازداد سرورنا بوصول فرقة غمرتون الموسيقيّة المؤلّفة من خمسة عشر عازفاً ما عدا المغنين. وتقوم هذه الفرقة بجولات على البيوت المحترمة في عيد الميلاد، وقد غنّى أعضاء الفرقة واشتركنا معهم في الغناء، ولمّا كانت السيّدة أرنشو تحبّ الموسيقى فقد غنّينا ما طاب لنا غناؤه من الألحان المختلفة.

وكذلك أحبّت كاثرن هذه الألحان، لكنّها قالت إنّه يمكن الاستماع إلى الألحان بعذوبة أكثر إذا ما صعد الإنسان إلى الطابق الثاني، وتركَت الجمع وصعدت الدرج فتبعتها. لم يلاحظ أحد غيابنا إذ كان المكان يغصّ بأفراد الفرقة وسكّان البيت. لم تقف كاثرن عند الطابق الثاني، بل ظلّت تصعد حتى الغرفة العلويّة حيث كان هيثكلف. نادته فلم يجب، وأعادت النداء وألحّت عليه أن يردّ عليها فلم ينبس وأخيراً أقنعته أن يتحدّث إليها من خلال الألواح الخشبية، وظلّا يتحدّثان حتى كادت الفرقة الموسيقيّة أن تكفّ عن الغناء ليتناول أفرادها بعض الحلويات. فاقتربتُ من الغرفة لأحذّرها وبدلاً من أن أجدها خارج الغرفة سمعت صوتها يدوّي في داخلها. لقد كانت تلك القردة الصغيرة قد دلفت إلى الغرفة من على السطح. ووجدتُ من الصعب أن أرغمها على الخروج في بادئ الأمر، ولمّا خرجت خرج هيثكلف معها، وأصرّت على أن يرافقني إلى المطبخ فقلت لهما إنّي لا أودّ أبداً تشجيعهما على اتّباع طرق الخداع والحيل، ولكن بما أنّ هيثكلف لم يتناول شيئاً من الزاد منذ غداء أمس فقد تغاضيتُ عن خداعه لمستر هندلي هذه المرّة. وهبط معي الدرج إلى المطبخ وأجلسته على كرسي بالقرب من الموقد، وقدّمت له أنواعاً مختلفة من الطعام. ولكنّه كان مريضاً فلم يستطع أن يأكل

إلّا قليلاً، وذهبت محاولاتي جميعها لتسليته أدراج الرياح، فوضع منكبيه على ركبتيه ووضع ذقنه على راحتيه وراح يفكّر في صمت طويل. ولمّا سألته عن الموضوع الذي يفكِّر فيه أجابني بحزن:

«إني أحاول أن أرسم الطريق التي ستمكّنني من الردّ على هندلي»، وأضاف يقول: «إنِّي لا أبالي كم سأنتظر إذا استطعت في النهاية أن أصل إلى هدفي. إنّي آمل ألا يموت قبل أن أحقّق ما أصبو إليه».

قلت: «يا للخزي، يا هيثكلف، إنّ الله وحده هو الذي يعاقب الأشرار، ينبغي علينا أن نتعلّم كيف نصفح عمّن أساؤوا إلينا».

قال: «كلّا إنّ الله لن يرضى عنِّي إذا سامحته. إنّ ما أتمنّاه هو أن أعرف الطريقة المثلى لمعاقبته! دعيني وحدي وسأضع الخطّة لذلك، لأنِّي عندما أفكِّر في هذا الأمر لا أشعر بالألم».

وهنا قالت السيّدة دين إلى مستر لوك ود لقد نسيت أنّ هذه القصص لا يمكنها أن تبدّل حالتك، إنّي آسفة لأنّي أخذت أتحدّث على هذا المنوال بينما أنت ترتجف من البرد وتودّ الاستسلام إلى النوم. لقد حدّثتك عن تاريخ هيثكلف وكلّ ما كنت تريد أن تسمعه بضع كلمات عنه.

* * *

وهكذا قطعت السيِّدة دين حديثها ونهضت لتجمع ما تبعثر منها من أدوات الخياطة. فقلت لها عندئذٍ: «اجلسي أيّتها السيّدة، أرجوك أن تجلسي نصف ساعة أخرى، لقد أحسنت صنعاً بسردك القصّة في هذا الأسلوب الممتع الذي أحبّه وعليك أن تنهيها في الأسلوب نفسه. لقد سررت بكلّ شخصيّة تحدّثت عنها».

أجابت: لقد أشارت الساعة إلى الحادية عشرة يا سيّدي.

قلت: «لا بأس، إنّي لست معتاداً على النوم في ساعة مبكّرة. إنّ ساعة أو ساعتين في الليل تكفيان لشخص ينام حتى الساعة العاشرة صباحاً».

أجابت: «يجب ألّا تنام حتى العاشرة. إنّ أحسن ساعات النهار هي قبل العاشرة والمرء الذي لا ينهي نصف عمله اليومي قبل العاشرة لا بدّ وأنّه سيترك نصفه الآخر غير منتهٍ».

قلت: «على كلّ حال اجلسي أيّتها السيّدة، فإنّي أعتزم غداً أن أظلّ في الفراش حتى بعد الظهر».

أجابت: «أرجوك أن تسمح لي أن أقفز في قصّتي عن ثلاث سنوات إلى الأمام، وخلال ذلك. . .».

قلت: «لا، لا لن أسمح لك. ولذا أرجوك أن تستمرّي في سرد القصّة بكلّ دقّة وتفصيل. لقد أحرزتِ إعجابي بأسلوبك الشيّق وتفكيرك المتّزن وإنّي متأكّد أنّ تفكيرك يفوق كثيراً جدّاً أفكار عامّة الخدم».

ضحكت السيّدة دين وقالت: «لقد اتّبعت في حياتي نظاماً دقيقاً علّمني الحكمة، وقرأتُ الكثير من الكتب. إنّك لن تجد كتاباً في هذه المكتبة لم أقرأه ولم أستفد منه شيئاً، ما لم يكن مكتوباً باليونانيّة أو اللاتينيّة أو الفرنسيّة. أليس هذا بكثير على ابنة رجل فقير؟ وعلى كلّ إذا أردت أن أستمرّ في سرد قصّتي في الأسلوب الذي أتبعه فيلكن ذلك وبدلاً من أن أقفز عن ثلاث سنوات فسأكتفي بأن أتغاضى عمّا حدث في الصيف المقبل أيّ صيف عام 1778، أي قبل ثلاثة وعشرين عاماً».

8

في صباح اليوم الخامس من شهر يونيو ولد أوّل طفل أتولّى تربيته وهو آخر فرد من عائلة أرنشو. كنّا في ذلك اليوم منهمكين في جمع الشعير في حقل بعيد جدّاً عن البيت، وفجأة أقبلت الفتاة التي تحضر لنا طعام الإفطار كلّ صباح، وهي تلهث من الركض وسط المرج الواسع وأخذت تناديني بأعلى صوتها وقالت: «يا إلهي! إنّه ولد عظيم، إنّه أجمل طفل رأى النور، ولكنّ الطبيب يقول إنّ السيّدة ستموت، لقد مضى عليها عدّة شهور وهي تعاني داء السل».
وأضافت تقول: «لقد سمعته يقول لمستر هندلي إنّه لم يعد هناك أيّ أمل في أن تعيش، إنّها ستموت قبل حلول فصل الشتاء. يجب أن تعودي إلى البيت حالاً. لأنّك ستتولّين تربية الطفل، ستغذّينه بالسكّر والحليب وستهتمّين بشؤونه ليل نهار. كم أتمنّى أن أحلّ مكانك، هل سيبقى لك وحدك بعد أن تموت السيّدة؟».

سألتها وأنا أُلقي بمنجلي وأربط قبّعتي: «أصحيح أنّ السيّدة مريضة جدّاً؟».

أجابت الفتاة: «أعتقد أنّها كذلك، إلا أنّها تبدو قويّة، وهي تتحدّث كأنّها ستعيش لترى طفلها وقد شبّ رجلاً، إنّها تكاد تجنّ

فرحاً به. إنّه جميل جدّاً! فلو كنت مكانها لقاومتِ الموت وتغلّبت عليه». لقد أحبّته الفتاة كثيراً وأخذت تَصِفُه لي من جديد.

أسرعتُ إلى البيت وأنا في غاية الحماس والشوق، ومع ذلك فقد كنت حزينة جدّاً على هندلي الذي لم يكن في قلبه موضع سوى لشخصين، هما زوجه ونفسه، لقد كان يحبّ زوجه إلى درجة العبادة ولم أستطع أن أتصوّر كيف أنّه سيتمكّن من تحمّل فقدانها.

ولمّا وصلت إلى مرتفعات وذرينغ كان يقف عند الباب الخارجي ولمّا مررتُ به سألته: «كيف حال الطفل؟».

أجاب وهو يبتسم: «يكاد أن يركض ويحوم في البيت».

وخاطرت في السؤال عن السيّدة وقلت إنّ الطبيب يقول إنّها... قاطع كلامي وقد احمرّ وجهه وقال: «لعن الله الطبيب! إنّ فرنسيس في حالة حسنة، إنّها ستشفى تماماً في مثل هذا الوقت من الأسبوع المقبل. هل ستصعدين إلى الطابق الثاني؟ إنّني سأحضر إذا وعدت أنّها لن تتكلّم. لقد تركتها لأنّها لم تتوقّف عن الكلام في الوقت الذي ينبغي عليها أن تظلّ هادئة، كما قال لها الطبيب، مستر كينيث».

أبلغت السيّدة أرنشو رسالة زوجها فأجابت بانشراح:

«إنّي قليلاً ما أنطق بكلمة واحدة ولقد خرج من الغرفة مرّتين وهو يبكي، حسناً، أخبريه بأنّي وعدت بألّا أتكلّم ولكن ذلك لا يمنعني من أن أضحك منه!».

مسكينة! لم يفارق المرح والبهجة قلبها إلّا في الأسبوع الأخير الذي سبق وفاتها، كان زوجها يصرّ بحماس على أنّ صحّتها في تحسّن كلّ يوم. ولمّا أخبره الطبيب كينيث أنّ جميع العلاجات أصبحت عديمة الجدوى في هذه المرحلة من المرض، وأنّه ليس من

الضروري أن ينفق المزيد من الأموال عليها ويدفع له أجر زيارته لها وفحصها قال: «إنِّي أعرف أنّها في حالة حسنة، وأنّها ليست في حاجة إلى حضورك، إنّها لم تكن مصابة أبداً بالسلّ. لقد أصابتها حمّى وزالت عنها. إنّ قلبها ينبض ببطء كسرعة نبضات قلبي الآن، وأنّ خدّها بارد كخدّي».

وقد قال لزوجته هذه الكلمات ويبدو أنّها صدّقته، وفي إحدى الليالي، بينما كانت تتّكئ على كتفه، وتقول له إنّها تعتقد أنّ باستطاعتها أن تغادر الفراش صباح اليوم التالي، أصابتها نوبة خفيفة من السعال، فحملها بين ذراعيه بينما وضعت يديها حول عنقه، واختلف لونها، وبسرعة مضت إلى العالم الثاني وفارقت الحياة.

وكما قالت الفتاة من قبل فقد تولّيت جميع أمور الطفل، هرتون، كان مستر أرنشو يشعر بالرضى إذا ما رأى الطفل في صحّة جيّدة ولم يسمعه يبكي، هذا بالنسبة إلى الطفل، وأمّا بالنسبة إلى نفسه، فقد زاد على مرّ الأيّام بؤسه وشقاؤه، لقد كان حزنه من ذلك النوع الذي لا يعرف صاحبه البكاء والنحيب. لم ينتحب هندلي أبداً ولم يطلب رحمة الله، بل تحدّاه وصبّ جامّ غضبه ولعناته على الحياة. كفر بالله وأسلم نفسه للشيطان. ولم يستطع الخدم أن يتحمّلوا طويلاً سلوكه السيّئ الاستبدادي، فلم يبق منهم سواي ويوسف، إذ لم يطاوعني قلبي على ترك الطفل بالإضافة إلى أنّي كما تعلم يا مستر لوك ود أخته بالرضاعة فكنت أتغاضى عن سلوكه الشاذّ، وبقي يوسف ليشبع غريزته في السيطرة على العمّال والمستأجرين ورغبة منه في إظهار رشدته وشروره.

وساءت معاملة هندلي لهيثكلف إلى درجة تجعل القدّيس ينقلب إلى شيطان مريد، وبدا لي في ذلك الوقت أنّ الفتى كان يستحوذ

عليه دافع شيطاني إذ كان يشعر بالسعادة وهو يشاهد هندلي ينزلق إلى الهاوية. وأصبح البيت جحيماً لا يطاق، فقد قلّت زيارة القسِّيس لبيتنا، ولم يعد أيّ شخص فاضل يقترب منّا سوى إدغار لنتون الذي كان نادراً، ما يزور الآنسة كاثي، التي أصبحت في سنّ الخامسة عشرة فبدت بهجة للناظرين.

أصبحت كاثرن عندما بلغت هذه السنّ متكبّرة، عنيدة فلم أعد أحبّها كالسابق، وكثيراً ما حاولت أن أخفّف من عجرفتها فلم تستمع إلى نصحي. إلّا أنّ إخلاصها لرفاقها ومعارفها القدامى كان عجيباً، فقد ظلّ هيثكلف يستحوذ على حبّها، ووجد لنتون الشابّ مع امتيازه على هيثكلف، صعوبة في أن يكون ندّاً له وأن يحتلّ الدرجة نفسها التي يحلّ فيها هيثكلف في قلب كاثرن. لقد أصبح لنتون سيّدي فيما بعد، وها هي صورته معلّقة فوق الموقد، ولقد كانت صورة زوجه معلّقة إلى جانبها لكنّها نقلت.

ورفعت السيّدة دين الشمعة فرأيت وجهه فإذ به ذو ملامح ناعمة تشبه إلى حدّ كبير جدّاً ملامح الشابّة التي رأيتها في مرتفعات وذرينغ، لقد كانت صورة جميلة حقّاً.

قلت: «إنّها صورة حسنة هل تشبهه؟».

أجابت: «نعم، ولكنّه كان يبدو أجمل من ذلك».

لقد ظلّت كاثرن مخلصة لعائلة لنتون منذ إقامتها بين ظهرانيهم في الأسابيع الخمسة الأولى، وحافظت على صداقتهم ولقد كسبت إعجاب إيزابيلا بإظهار ودّها لهم جميعاً كما كسبت قلب وروح أخيها إدغار.

كان إدغار قلّما يزور مرتفعات وذرينغ علناً لأنّه كان يخشى سوء سمعة أرنشو، ويتجنّب ملاقاته. ومع ذلك فقد كان سيّدي يتحاشى

إهانته لأنّه يعلم لماذا كان يحضر إلى البيت. وأعتقد أنّ حضوره كان لا يرضي كاثرن لأنّها لم تكن تودّ أن تقوم بدور المدلّلة، وكانت لا توافق على أن يلتقي صديقاها وجهاً لوجه.

وغاب مستر هندلي مرّة عن البيت بعد الظهر ومنح هيثكلف نفسه بهذه المناسبة عطلة يستريح فيها من العمل. كان في ذلك الوقت قد بلغ السادسة عشرة، وكان قد خسر حتى الآن الفائدة التي حصل عليها في تعليمه الأوّل، وقضى عمله القاسي الشاقّ على حماسته ورغبته في ملاحقة العلم والمعرفة، كما قضى على حبّه للكتب والدرس، وانطفأت تلك الروح المتطلّعة الوثّابة إلى العلا التي كان يوقدها فيه مستر أرنشو الراحل، لقد ناضل هيثكلف طويلاً ليظلّ في مرتبة علميّة مساوية لمرتبة كاثرن لكنّه استسلم في النهاية.

ولقد ظلّ رفيقاً ملازماً لكاثرن ولكنّه الآن لم يعد يعبِّر عن تعلّقه بها بمجرّد كلمات بسيطة. لقد حضر بعد ظهر ذلك اليوم الذي أشرت إليه بينما كنت أساعد كاثي في ترتيب ثيابها، وأَعلنَ أنّه ينوي ألا يقوم بأيّ عمل وسألها: «هل أنت مشغولة بعد ظهر اليوم؟ وهل تنوين الذهاب إلى مكان ما؟».

أجابت: «كلّا، إنّ السماء تمطر».

قال: «لماذا ترتدين إذن هذا الفستان الحرير؟ آمل ألّا يكون هناك أيّ زائر ينوي الحضور إلى هنا اليوم».

قالت متلعثمة: «إنّي لا أعلم، ولكن كلّ ما أعلمه، أنّه ينبغي عليك أن تكون الآن في الحقل، يا هيثكلف، كنت أعتقد أنّك قد غادرت البيت».

قال هيثكلف: «إنّ هندلي قليلاً ما يغادر البيت. وبهذه المناسبة لن أشتغل اليوم أكثر ممّا قمت به من أعمال وسأظلّ إلى جانبك».

قالت كاثرن: «ولكن يوسف سيخبر أخي، إنّي أرى من الأفضل أن تذهب».

أجاب: «إنّ يوسف يعمل في الجهة الأخرى، وسيظلّ هناك حتى الظلام، وإنّه لن يعلم شيئاً».

ثم جلس إلى جانب الموقد، بينما قطّبت كاثرن حاجبيها غير أنّها رأت فيما بعد أنّه من الضروري أن تلطّف الجوّ بينهما فصمتت دقيقة ثم قالت: إنّ إيزابيلا وإدغار لنتون قد أخبراها بأنّهما سيحضران لزيارتها بعد ظهر اليوم، وأضافت تقول: «إنّها تعتقد أنّهما لم يتمكّنا من ذلك لأنّ المطر ينهمر، ولكن إذا ما حضرا فمن الأفضل أن لا يقابلها حتى لا يعرِّض نفسه للقصاص».

قال هيثكلف: «اطلبي من ألن أن تبلغهما أنّك مشغولة، لا تطرديني من أجل خاطر هذين الصديقين!».

صاحت كاثرن وهي تحملق في وجهه غاضبة: «إنّهما ماذا؟» ثم سحبت رأسها من بين يدي وقالت: «أوه، يا نيلي، إنّك لم تسرّحي شعري كما ينبغي، يكفي، دعيني لوحدي»، ثم خاطبت هيثكلف من جديد قائلة له: «ممّاذا تشكو يا هيثكلف؟».

أجاب قائلاً: «لا شيء - انظري فقط إلى المفكّرة المعلّقة على الحائط. إنّ التواريخ المشار إليها بعلامة الصليب هي الأمسيات التي قضيتها مع لنتون والتواريخ المُشار إليها بالنقط هي الأمسيات التي قضيتها معي. ألا ترين أنّني كنت أحصي كلّ يوم؟».

قالت: «نعم، إنّ هذا عمل جنوني، وما فائدة ذلك؟».

أجاب: «لأريك أنّني مهتمّ بذلك وأنّي ألاحظ كلّ شيء».

سألته: «وهل ينبغي أن أظلّ دائماً أتحدّث إليك؟ ما هي الفائدة

التي أحصل عليها من مرافقتك؟ ما الذي تتحدّث عنه؟ إنّك لا تقول شيئاً يسلّيني».

قال هيثكلف وقد بلغ الاضطراب منه مبلغاً كبيراً: «إنّك لم تخبريني من قبل أنّي لا أتكلّم إلّا قليلاً، أو أنّك تكرهين رفقتي يا كاثي».

أجابت: «إذا كان المرء لا يعرف شيئاً ولا يقول شيئاً فما الفائدة من مرافقته؟».

عندئذٍ نهض هيثكلف، ولم يجد الوقت الكافي ليعبّر المزيد عن شعوره، فقد سمع وقع حوافر فرس في الطريق المؤدّي إلى مدخل البيت ثم طرقاً خفيفاً على الباب، ودخل بعد ذلك لنتون الشابّ، كان وجهه يضيء بِشْراً وسروراً لتلك الدعوة التي لم يكن ينتظرها. وقد لاحظت كاثرن دون ريب الفارق بين صديقيها، وهذا الفارق هو ما يعادل الفرق بين تلّ يعلوه الفحم والسواد، ووادٍ خصب جميل. كان للنتون صوت عذب جميل ينبعث في نعومة ورقّة.

نظر إليّ وقد ابتدأتُ أمسح الأطباق وأرتّب بعض الأدراج في الخزانة، وسأل: «هل أسرعتُ في الحضور؟».

أجابت كاثرن: «كلّا»، ثم سألتني «ماذا تفعلين هناك يا نيلي؟».

أجبتها: «أقوم بعملي يا آنستي» (لم أكن أودّ أن أغادر الغرفة لأنّ مستر هندلي أوصاني بأن لا أفارق كاثرن أبداً أثناء الزيارات الخاصّة التي يقوم بها إدغار لنتون إلى البيت).

اقتربت كاثرن منّي وهمست في أذني قائلة: «اخرجي من الغرفة، ألا تعلمين أنّه إذا ما حضر ضيف إلى الغرفة لا يبدأ الخدم بتنظيفها؟».

أجبتُها بصوت عالٍ: «إن الفرصة سانحة الآن لأنّ سيّدي يكره

أن أنظّف هذه الأشياء في حضوره إنّي متأكّدة أنّ مستر إدغار سيسمح لي».

قالت قبل أن يتمكّن الضيف من الكلام: «إنّي أكره أيضاً أن تنظّفي هذه الأشياء على مرأى منّي وفي حضوري».

قلت: «إنّي آسفة يا آنسة كاثرن». وواصلتُ عملي.

وعندئذٍ خطفت الممسحة من يدي وهي تظنّ أنّ إدغار لا يراها، وقرصتني في ذراعي قرصة جعلتني أصرخ من شدّة الألم، فقلت لها: «أوه يا آنسة، إنّ هذا عمل سيّئ، إنّه لا يحقّ لك أن تفعلي بي هكذا ولن أسكت على هذا الضيم».

قالت وقد احمرّت أذناها غضباً: «إنّي لم أمسّك، إنّك مخلوقة كاذبة».

قلت وأنا أظهر مكان القرصة: «وما هذا إذن؟».

ضربت الأرض بقدمها ثم صفعتني على خدّي صفعة قويّة جعلت الدموع تترقرق في عيني.

اضطرب لنتون للخطيئة التي ارتكبتها معبودته، وقال: «كاثرن، حبيبتي، كاثرن!!».

قالت لي وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها: «غادري الغرفة حالاً، يا ألن، غادري الغرفة!».

كان هرتون الصغير الذي صار يتبعني إلى كلّ مكان، يجلس بالقرب منّي، فأخذ يبكي عندما رأى الدموع تنحدر على خدّي ويقول (إنّ عمّتي كاثي شرّيرة). فما كان منها عند سماعها هذه الكلمات إلّا أن أمسكت بذراعيه وهزّته هزّاً عنيفاً حتى اصفرّ لونه، فتقدّم إدغار ليخلّصه من بين يديها، فصفعته عندئذٍ، فانسحب إلى الوراء خجلاً. تقدّمتُ فحملتُ هرتون بين ذراعيّ وأخذته إلى المطبخ تاركة الباب

مفتوحاً لأرى كيف سيسوّيان الخلاف بينهما. تقدّم الضيف المُهان إلى حيث كانت قبّعته فأخذها وهو أصفر الوجه ترتجف شفتاه من الغيظ.

سألته كاثرن: «إلى أين تمضي؟» وتقدّمت نحو الباب لتَحُول بينه وبين مغادرة الغرفة.

تنحّى جانباً عنها.

قالت بحماس: «يجب ألّا تذهب».

أجاب بصوت خافت منكسر: «إنّي ذاهب!»

قالت وهي تمسك أكرة الباب: «لا، لم يحن الوقت بعد يا إدغار اجلِسْ، إنّك لن تتركني في هذه الحالة، وإلّا فسأظلّ تعسة طوال الليل!».

سألها لنتون: «هل يمكنني أن أبقى بعد أن صفعتني؟» لم تنبس كاثرن، فأردف يقول: «لقد جعلتني أخشاكِ وأخجل منك. إنّني لن أحضر إلى هنا مرّة ثانية!».

ابتدأت عيناها تلمعان غضباً ويرتجف جسمها.

وقال لها: «ولقد تفوّهت أيضاً بكذبة مقصودة».

صاحت: «كلّا لم أفه بشيء كذب. حسناً، اذهب، إذا أردت، اغربْ عنّا! إنّني سأبكي، وأبكي كثيراً».

وسقطت على ركبتيها بجانب أحد المقاعد وابتدأت تنتحب بصوت عالٍ. وصل إدغار إلى ساحة الدار وهو مصمّم على مغادرة المنزل إلّا أنّه تردّد هنا فصمّمتُ أن أشجّعه على مغادرة المنزل فوراً، وقلت له: «إنّ الآنسة كاثرن يا سيّدي مدلّلة كثيراً، إنّه من المستحسن أن تعود إلى بيتك، وإلّا فإنّها ستمرض وتسبّب لنا الحزن والأسى».

بدا الشابّ من خلال النافذة متردّداً كقطّة تعتزم ترك فأر قتلته أو

عصفور اصطادته. وأيقنتُ عند ذلك أنّه لا أمل في إنقاذه فقد وقع في الفخّ وأنّه ملاقٍ مصيره المحتوم. وهكذا حدث فقد عاد إلى البيت مسرعاً وأغلق باب الغرفة وراءه ولمّا دخلتها بعد برهة لأبلغهما أنّ مستر أرنشو قد عاد إلى بيته في حالة سكر شديد وجدت أنّ حالهما قد تبدلّت وأنّ الخصام قد قرّب بينهما أكثر من ذي قبل وجعلهما يعترفان لبعضهما بأنّهما حبيبان، لا صديقان فقط.

ولمّا علم لنتون بوصول هندلي انسحب من البيت حالاً وانسحبت كاثرن إلى غرفتها، وذهبتُ لأخفي هرتون الصغير، وأفرغ بندقيّة الصيد التي كان هندلي مغرماً باللعب فيها أثناء ثوراته الجنونيّة.

9

دخل هندلي وهو يسبّ ويلعن بكلمات يأباها السمع، ورآني وأنا أحاول إخفاء ابنه عنه. لقد كان هرتون يمتلئ رعباً من مقابلة أبيه الذي إمّا أن يقيّده بيديه ليقبّله أو يطرحه أرضاً إذا غضب، ولذلك لم يُبْدِ الطفل المسكين أيّة معارضة لي، وظلّ هادئاً تمام الهدوء حيثما اخترتُ أن أضعه.

سحبني هندلي من رقبتي كالكلبة وصاح: «لقد وجدته أخيرًا! إنّي عرفت الآن لماذا يتجنّب مقابلتي. ولكن بمساعدة الشيطان سأجعلك تبلعين هذه المدية».

لا تضحكي يا نيلي! لقد ألقيت قبل برهة بالطبيب كينيث في مستنقع (بلاك هورس) ولا بأس من إلقائك فيه أيضاً. إنّي أودّ أن أقتل أحد منكما، ولن أستريح حتى أحقّق ذلك.

قلت: «ولكنّني لا أحبّ أن أقتل بالمدية يا مستر هندلي إنّي أفضّل أن يطلق الرصاص عليّ».

قال: «الأحرى بك أن تذهبي إلى الشيطان وسوف تذهبين إليه، إنّه لا يوجد أيّ قانون في إنجلترا يستطيع أن يمنع المرء من تهذيب أفراد أسرته، وأنا أسرتي غير مهذّبة! افتحي فمكِ!».

وأمسك بالمدية في يده ووضع طرفها بين أسناني، إلّا أنّني لم أكن أخشى شذوذه. بصقتُ وأكّدتُ له أن طعمها كريه، ولن أقبل بلعها بأيّ حال.

تركني وقال: «إنّ هرتون يستحقّ أن يسلخ لحمه عن عظمه وهو حيّ لأنّه لم يركض نحوي للترحيب بي ولأنّه يملأ الدنيا صراخاً وعويلاً كلّما رآني كأنّي عفريت. تعال إلى هنا أيّها الثعلب الصغير، سأعلّمك كيف تحبّ والدك المخدوع، الطيّب القلب. والآن، ألا تعتقدين يا (نيلي) أنّ الصبي سيبدو أجمل إذا قصّ شعره! أعطني مقصّاً. صه! يا صبي صه! وكن طيّباً، قبّلني. ماذا؟ ألا تريد، أن تقبّلني يا هرتون؟ لعنك الله، قبّلني! يا إلهي ما هذا الوحش! إنّي متأكّد بأنّي سأدقّ عنق هذا الفأر الصغير».

كان (هرتون) المسكين أثناء ذلك يتخبّط بين ذراعي والده، وأخذ يرفع عقيرته في الصراخ عندما حمله وصعد به إلى الطابق الثاني. أسرعتُ لأنقذ الطفل من بين يديه، وما أن وصلت إليهما حتى اتّكأ هندلي على الدرابزين ليستمع إلى صوت انبعث من أسفل البيت ونسي تقريباً ماذا كان يحمل بين يديه، وقال عندما سمع صوت أقدام تقترب من الدرج: «من أنت؟» واتّكأت أنا كذلك على الدرابزين لأشير إلى هيثكلف، الذي عرفته من وقع خطواته، بألّا يتقدّم. وفي تلك اللحظة التي زاغ بصري فيها عن هرتون واتّكأت فيها على الدرابزين قفز الطفل فجأة من بين ذراعي والده الذي لم يكن يمسك به جيّداً وسقط.

لم يكن هناك مجال ليثور فيه هندلي ويغضب فقد رأى طفله يصل سالماً على الأرض، كان هيثكلف قد اقترب في اللحظة الحاسمة إلى أسفل الدرج والتقط الطفل بين يديه، ونظر إلى فوق

ليرى مَن كان يحمل الطفل، فاسودّ وجهه وتقطّب جبينه عندما أبصر مستر أرنشو. وقد دلّت قسمات وجهه على أنّه تألّم أشدّ الألم لأنّه لم يثأر لنفسه. وأستطيع أن أقول إنّه لو أنّ الظلام كان يسود المكان لحاول أن يصلح خطأه بتحطيم جمجمة هرتون على الدرجات الرخاميّة. وهبطتُ إلى أسفل وحملت كنزي الثمين وقرّبته إلى قلبي كما هبط (هندلي) وهو مقطّب الجبين مضطرب النفس. وقال:

إنّها خطيئتكِ يا (ألن)، كان ينبغي عليك أن تأخذيه منّي! هل أصيب بأذى؟

تساءلتُ غاضبة: «أصيب بأذى! إنّي لا أدري ماذا كانت تصنع أمّه لو بُعثت من قبرها ورأت ما تصنع به!؟ إنّك أشدّ كفراً من الشيطان لمعاملتك ابنك الذي هو من لحمك ودمك هذه المعاملة».

حاول أن يلمس الطفل، وما كاد أن يضع طرف إصبعه عليه حتى صاح صيحة ملؤها الذعر والفزع وحاول أن يبتعد عنه قدر جهده.

فأردفت قائلة له: «إنّك لن تتدخّل في شؤونه بعد الآن، إنّه يكرهك، إنّ الجميع يكرهونك، وهذه هي الحقيقة!».

ضحك وقال: «اغرُبي أنت وإيّاه عن وجهي الآن واسمع، يا هيثكلف، انصرف أنت أيضاً وابتعد عن مسمعي ومرآي. إذا لم أقتلك هذه الليلة فربّما أشعلت النار في البيت». وتوجّه بعد ذلك إلى الخزانة فأخرج منها زجاجة من البراندي وصبّها في كأس كبيرة.

قلت له: «أرجوك يا مستر هندلي، أن تهدأ، ارحم هذا الطفل المسكين إذا كنت لا تبالي بمصيرك».

أجاب: «إنّ أيّ إنسان سيكون للطفل عوناً بعدي».

قلت وأنا أحاول أن أخطف الكأس من يده: «ارحم روحك».

أجاب: «بالعكس، إنّي سأكون سعيداً لو أرسلتها إلى العالم الآخر لمعاقبة خالقها. ها إنّي أشرب نخب عذابها في السعير».

شرب ما في الكأس وأمرنا أن نغادر المكان حالاً وأنهى أمره بكلمات يشمئزّ من سماعها الإنسان ويأبى إعادتها مهما كان سيّئ الخُلق.

أخذ هيثكلف يسبّ ويلعن مستر أرنشو بعد أن أغلق الباب وقال إنّه من المحزن ألّا يستطيع قتل نفسه بالشراب، إنّه يعمل كلّ ما في جهده ليقضي على نفسه، ولكن قوّة جسده تتحدّاه. لقد قال مستر كينث له أنّه سيعيش أكثر من أيّ رجل في هذه المنطقة وأنّه سيذهب إلى القبر وهو شيخ مسنّ مثقل بالذنوب، إلّا إذا ما وقع حادث أودى بحياته بمحض الصدفة.

ذهبت إلى المطبخ وجلست لأبعث للطفل النوم الهادئ، بينما ذهب هيثكلف حسبما كنت أعتقد إلى مخزن الحبوب. إلّا أنّه تبيّن لي فيما بعد أنّه جلس على حافّة المقعد الكبير صامتاً.

وضعت هرتون على ركبتي وأخذت أهلّل له أغنية لينام وإذ بالآنسة كاثرن تُدخل رأسها من فجوة الباب وهمست: «هل أنت لوحدك يا نيلي؟».

أجبت: «نعم يا آنستي».

دخلت المطبخ واقتربت من الموقد، كنت أعتقد أنّها ستقول لي شيئاً. كان وجهها يدلّ على أنّها تشعر بكثير من القلق والاضطراب. كانت شفتاها نصف مفتوحتين كأنّها تريد الكلام. واستأنفتُ أغنيتي إذ إنّني لم أكن بعد قد نسيت تصرّفها المشين معي. إلّا أنّها قاطعتني وسألت: «أين هيثكلف؟».

أجبت : «في الإصطبل».

وساد صمت قصير، ولاحظت أثناء ذلك دمعة تنحدر على خدّ كاثرن. فتساءلت: «هل هي آسفة على سلوكها المشين؟».

واستأنفت كاثرن الحديث أخيراً وقالت: «أوه يا عزيزتي! إنّي لست سعيدة أبداً».

أجبتها: «إنّ هذا خبر محزن! إنّه من الصعب أن يرضيك أيّ إنسان».

ركعت إلى جانبي ورفعت بصرها إلى وجهي ونظرت إليّ نظرة استعطاف وقالت: «نيلي، هل ستحفظين لي سرّاً؟».

سألتها بدون اهتمام: «وهل يستحقّ الاحتفاظ به؟».

أجابت: «نعم، إنّه يقلق مضجعي، وينبغي أن أبوح به! أودّ أن يهديني الله إلى حلّ. لقد سألني اليوم إدغار لنتون أن أتزوّجه وقد أجبته عن سؤاله. والآن، قبل أن أقول لك ما إذا كان جوابي بالقبول أو الرفض، أخبريني ماذا يجب أن يكون جوابي؟».

قلت: «كيف يمكنني أن أعرف ذلك؟ إذا أردت أن تنظري بعين الاعتبار إلى الدور الذي قمت به أثناء وجوده بعد ظهر اليوم في بيتكم فإنّه من الحكمة أن ترفضي طلبه، وليس طلبه منك الزواج بعد هذا المشهد إلّا دليل على أنّه إمّا أبله أو مخاطر مجنون».

نهضتْ على قدميها وقالت باضطراب: «إذا واصلتِ التحدّث إليّ بهذا الأسلوب فإنّي لن أحدّثك بعد الآن. لقد وافقتُ على الزواج منه يا نيلي. أسرعي وأجيبي هل كنت على صواب؟».

أجبتها: «أوافقتِ؟ إذاً ما الفائدة من بحث هذا الموضوع؟ لقد قلتِ كلمتك فكيف يمكنك أن تخنثي بعهدك بعد أن عاهدتيه على الزواج؟».

قالت بصوت متهدّج مضطرب وهي تفرك يديها غاضبة: «ولكن أوضحي أكنت مصيبة أم لا؟».

أجبت: «إنّ هناك أشياء كثيرة يجب أن ينظر إليها بعين الاعتبار قبل أن يمكننا الإجابة عن هذا السؤال إجابة صحيحة. أوّلاً، وقبل كلّ شيء، هل تحبّين مستر إدغار؟».

قالت: «طبعاً إنّي أحبّه».

سألتها: «لماذا تحبّينه يا آنسة كاثي؟».

أجابت: «هذا سؤال سخيف، إنّي أحبّه، ويكفي».

قلت: «يجب أن تشرحي لماذا».

قالت عندئذٍ: «حسناً، لأنّه ظريف ويشعر الإنسان بالسعادة معه».

علّقت على كلامها قائلة: «جواب غير مرضٍ».

أضافت: «ولأنّه شابّ، وممتلئ نشاطاً وبهجة».

قلت: «جواب غير مرضٍ أيضاً».

أضافت: «ولأنّه يحبّني».

قلت: «إنّ هذا الجواب لا سيّئ ولا حسن».

أضافت: «وسوف يصبح غنيّاً، وإنّي أحبّ أن أكون أعظم امرأة في هذه الناحية، وسأفتخر بزواجي منه».

قلت: «إنّ هذا أسوأ شيء! والآن أخبريني كيف تحبّينه؟».

أجابت: «كأيّ إنسان آخر. إنّك ثقيلة الظلّ يا (نيلي)».

قلت: «أبداً، أجيبيي عن سؤالي».

قالت: «إنّي أحبّ الأرض التي تحت قدميه، والهواء الذي فوق رأسه، وأحبّ كلّ شيء يلمسه وكلّ كلمة ينطقها. إنّي أحبّ جميع نظراته وجميع أعماله، وأحبّ كلّ شيء فيه».

سألتها: «ولماذا؟» أدارت وجهها إلى الموقد وأجابت: «لا، أنت تهزئين بي. إنّ هذا عمل غير صالح أبداً، لا تسخري منّي!».

قلت لها: «إنّي بعيدة كلّ البعد عن السخرية يا آنسة كاثرن. إنّك تحبّين مستر إدغار لأنّه ظريف ولأنّه شابّ في مقتبل العمر، مرح، وغني، ولأنّه يحبّك. والسبب الأخير، لا قيمة له، لأنّك قد تحبّينه بدون ذلك، ولو لم يتمتّع بالمميّزات الأربع السابقة لما أحببته».

قالت: «كلّا، بالتأكيد لا ولكن قد أشفق عليه فقط، وربّما كرهته وخاصّة إذا كان فلّاحاً، قبيح المنظر».

قلت: «ولكن هناك كثير من الشباب الأغنياء الظرفاء في العالم الذين هم أكثر غنى وظرفاً منه. فماذا يمنعك من أن تحبّيهم؟».

أجابت: «إذا كان هناك كثير من الشباب فإنّي لم ألتقِ بأحد منهم، إنّي لم أر بعد لإدغار مثيلاً».

قلت: «قد ترين بعضهم في المستقبل، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ إدغار لن يظلّ شابّاً ظريفاً إلى الأبد وقد لا يظلّ غنيّاً».

أجابت: «إنّه الآن كذلك، ويجب أن أنظر فقط إلى الحاضر. أتمنّى أن تتحدّثي إليّ بكلام معقول».

قلت: «حسناً، إذا أردت أن تنظري إلى الحاضر وتعملين حَسْبه فتزوّجي مستر لنتون».

أجابت: «إنّي لن أنتظر الحصول على إذن منك - سأتزوّجه ومع ذلك فلم تخبريني بعد ما إذا كنت على صواب أم لا؟!».

قلت: «على صواب تامّ، إذا كان الناس على صواب في أن يتزوّجوا لحاضرهم فقط. والآن أخبريني لماذا أنت غير سعيدة؟ إنّ أخاك سيبتهج بهذا النبأ، كما أنّ والديّ إدغار لن يعارضا أبداً، وأعتقد أنّك ستبتعدين عن الفوضى التي تسود هذا البيت وتعيشين مع

عائلة غنيّة، محترمة. وفوق كلّ ذلك فإنّك تحبّين إدغار وإدغار يحبّك. فكلّ شيء إذن يبدو سهلاً واضحاً وأين هي العقبة؟».

ضربت كاثرن بكفّ على جبهتها وبكفّها الآخر على صدرها وقالت: «هنا! وهنا! إنّها في روحي، وفي قلبي، إنّي مقتنعة بأنّي لست على صواب».

قلت: «إنّ هذا شيء غريب حقّاً! إنّي لا أفهم ماذا تقصدين!».

أجابت: «إنّه سرّي. ولكن إذا لم تسخري منّي، فسأشرح لك كلّ شيء. إنّي لا أستطيع أن أوضح هذا السرّ بكلّ دقّة ولكن سأصوّر لك الإحساسات التي أشعر بها».

جلسَتْ إلى جانبي وقد بدا ازدياد حزنها واضطرابها في قسمات وجهها وفي ارتجاف يديها. وقالت فجأة بعد صمت استمرّ بضع دقائق «(نيلي) ألا تحلمين أحلاماً غريبة؟».

أجبت: «بلى».

قالت: «وأنا كذلك، لقد حلمت في حياتي أحلاماً لم أنسها وكان لها أثر على تفكيري. لقد امتزجت هذه الأحلام في نفسي، كما يمتزج النبيذ بالماء. وغيّرت آرائي وعقلي. وهذا حلم سأرويه على مسمعك ولكن حذار من أن تهزئي بي».

قلت: «لا، لا ترويه يا كاثرن! إنّنا تعساء ولسنا في حاجة إلى دعوة الأشباح لتعكير صفونا. هيّا، هيّا اضحكي ولا تحزني! انظري إلى هرتون الصغير ما أجمل ابتسامته وهو نائم».

قالت: «نعم، وما أجمل اللعنات التي يصبّها عليه أبوه في وحدته! هل تذكرينه عندما كان طفلاً بريئاً كابنه؟ وعلى كلّ حال يا (نيلي) فإنّي لن أرغمك على الاستماع إليّ، إنّ الحلم ليس طويلاً ولن أستطيع الشعور بالسعادة هذه الليلة إذا لم أروِه».

قلت بسرعة: «إنّي لن أسمعه، لن أسمعه».

كنت أتطيّر من الأحلام وما زلت كذلك حتى الآن، وكان يبدو على محيا كاثرن حزن غير عادي جعلني أخشى حدوث كارثة مخيفة. ولم تواصل كاثرن كلامها في هذا الموضوع ولكنّها أخذت بعد فترة صمت قصيرة تتحدّث في موضوع آخر حسبما أعتقد، وقالت: «إنّي سأظلّ تسعة يا (نيلي) ولو ذهبت إلى السماء».

أجبتها: «لأنّك لا تصلحين للذهاب إلى هناك. إنّ جميع المذنبين يجدون عناء ومشقّة في السماء».

قالت: «لقد حلمت مرّة أنّني ذهبت إلى هناك».

قاطعتها قائلة: «لقد قلت لك إنّني لن أستمع إلى أحلامك، إنّني سأذهب إلى فراشي».

ضحكَت وأمسكت بيدي فأجلستني من جديد بعد أن قمتُ من على مقعدي وقالت: «لقد كنت أودّ أن أخبرك أنّ السماء لم تبدُ لي بأنّها مسكني، وأنّي بكيت أشدّ البكاء لأعود إلى الأرض، فغضبت الملائكة منّي أشدّ الغضب حتى إنّها ألقت بي وسط العلّيق والأعشاب فوق قمّة مرتفعات وذرينغ. إنّ هذا يكفي لشرح سرّي وإيضاحه. وإنّه لن يكون لي حظّ في الزواج من إدغار لنتون أكثر من حظّي من العيش في السماء، ولو لم يعمل أخي الشرّير على تربية هيثكلف هذه التربية المنحطّة لما فكّرت في إدغار أبداً. إنّه ممّا يحطّ من قدري أن أتزوّج هيثكلف الآن، ولكن! إنّه لا يعلم كم أحبّه! لا لأنّه ظريف يا نيلي ولكن لأنّه أعزّ من نفسي عندي. ومهما كانت روحانا مختلفتين في تركيبتهما إلّا أنّ روحه وروحي واحدة، أمّا روح لنتون فتختلف عن روحي كاختلاف البرق عن ضوء القمر واختلاف النار عن الثلج».

وقبل أن تنهي كاثرن هذا الحديث، تنبّهتُ إلى وجود هيثكلف في المطبخ، وقد أدرتُ رأسي عندما لاحظت انبعاث حركة بسيطة، فرأيته ينهض عن المقعد ويتسلّل إلى الخارج. لقد ظلّ ينصت إلى حديث كاثرن إلى أن قالت إنّه سيحطّ من قدري إذا تزوّجته، فلم يستطع أن يسمع أكثر من ذلك. كانت كاثرن تفترش الأرض فلم تلاحظ وجوده كما لا تلاحظ مغادرته المطبخ، فأشرت إليها ألّا تمضي في كلامها.

سألتني: «لماذا؟» وأدارت وجهها بصورة عصبيّة لتعرف السبب.

أجبتها وقد اغتنمت تدحرج عجلات عربة يوسف على الطريق: «لقد أقبل يوسف وربّما قدم هيثكلف معه، إنّي أظنّ أنّه كان يقف على الباب في اللحظة الماضية».

قالت: «أوه أتظنّين أنّه استطاع أن يسمعني وهو يقف على الباب يا ترى؟ أعطني هرتون وأعدّي أنت العشاء وعندما تجهّزينه اسأليني أن أتناول العشاء معك. إنّي أودّ أن أخدع ضميري المتشكّك المضطرب وأقنع نفسي أنّ هيثكلف لم يستمع إلى شيء من حديثي. لم يستمع أليس كذلك؟ إنّه لا يعلم بعد ما معنى الحبّ؟».

قلت: «إنّي لا أجد سبباً يمنعه من معرفة الحبّ كما تعرفينه، وإذا كنت أنت التي اختارها لتكون حبيبته فإنّه سيصبح أتعس مخلوق في الوجود. فحالما تصبحين السيِّدة لنتون سيخسر المسكين الحبيب والصديق وكلّ شيء. هل فكّرت قبلاً كيف ستتحمّلين الفراق وكيف سيتحمّل هيثكلف الوحدة؟».

أجابت: «إنّه الآن وحيد، ونحن مفترقان»، وأضافت تسألني: «من سيفرّقان؟».

«إنّنا لن نفترق طالما ظللتُ على قيد الحياة. سيذوب كل شخص من عائلة لنتون ويتلاشى عن وجه البسيطة قبل أن أوافق على هجر هيثكلف. أوه، إنّ ذلك ليس ما أقصد، إنّ ذلك ليس ما أعنيه! إنّي لن أصبح زوجة للنتون إذا طلب منّي مثل هذا الثمن! إنّ هيثكلف سيظلّ بالنسبة لي كما كان طوال حياته. إنّ على إدغار على الأقلّ أن يتساهل معه. إنّه سيفعل ذلك عندما يعلم شعوري الصادق نحوه. إنّك تعتقدين يا نيلي أنّني أنانيّة ولكن لم يطرق على بالك أنّني لو تزوّجت من هيثكلف لأصبحنا فقراء، بينما لو تزوّجت من لنتون لاستطعت أن أساعد هيثكلف على النهوض وحرّرته من سيطرة أخي».

سألتها: «أتحرّرينه بأموال زوجك يا آنسة كاثرن؟ إنّك لن تجدي زوجك ليّناً سمحاً كما تتوقّعين، ومع أنّي لا أستطيع أن أحكم على الأمور حكماً صحيحاً فإنّي أعتقد أنّ هذا أسوأ دافع تذكرينه لزواجك من لنتون الشابّ».

قالت: «كلّا، إنّه خير دافع! أمّا البواعث الأخرى فهي لإرضاء خيلائي وإرضاء خاطر إدغار أيضاً. ولأجل الذي يتحسّس في نفسه شعوري نحو إدغار ونحو نفسي. إنّني لا أستطيع هنا أن أوضح هذا القول وعمّا يجول في نفسي وخاطري، ولكن كلّ منّا يعتقد أنّ هناك أو يجب أن يكون هناك وجود لنا وراء أنفسنا. ما هي الفائدة من خلقي ووجودي في الدنيا إذا أُرغمت على البقاء هنا إلى الأبد؟ إنّ شقائي وتعاستي في هذه الحياة هي شقاء هيثكلف وتعاسته نفسها، ولقد شاهدت ولمست شقاء كلّ منّا منذ البداية، إنّ أهمّ ما يشغل تفكيري في الحياة هو نفسه. إذا اضمحلّ كلّ شيء غيره وظلّ وحده فسأظلّ إلى جانبه. وإذا ما قضى نحبه وحده وظلّ كلّ شيء غيره على

قيد الحياة فإنّ الدنيا ستنقلب موحشة مقفرة ولن أبدو كجزء منها. إنّ حبّي للنتون يشبه أوراق أشجار الغابة، يتغيّر ويتبدّل مع تغيُّر الزمن تماماً كما يبدّل الشتاء هذه الأوراق. أمّا حبّي لهيثكلف فيشبه الصخور الأبديّة، إنّه مصدر سعادة قليلة ملموسة ولكنّها ضروريّة، إنّني أنا هيثكلف! إنّه دائماً، دائماً في مخيِّلتي، إنّه حياتي، فأرجوك ألّا تتحدّثي مرّة أخرى عن فراقنا - إنّ هذا شيء غير عملي - وإنّه -».

وصمتت وأخفت وجهها بين طيّات ثيابي، غير أنّني دفعتها عنّي. فصبري كان قد نفد من حماقتها!

قلت: «لو قُدّر لي أن أفهم شيئاً من لغطك لاقتنعت أنّك تجهلين الواجبات التي ستُلقى على كاهلك إذا تزوّجت من لنتون، أو أنّك فتاة شرِّيرة لا مبدأ لها. أرجوك ألّا تزعجيني بأسرار أخرى. إنّي لن أعدَ بالمحافظة عليها».

سألتني بحماس: «ألا تحتفظين بها إذن؟».

أجبتها: «كلّا، إنّي لا أعد».

كانت على وشك أن تلحّ عليّ بطلبها، وإذ بيوسف يدخل وينهي حديثنا. ونقلت كاثرن مقعدها إلى إحدى زوايا المطبخ وأخذت تداعب هرتون بينما أخذت أعدّ العشاء. وبعد أن انتهيت من ذلك شرعت أتجادل مع زميلي الخادم حول من سيَحمِل الطعام إلى مستر هندلي. ولم نتوصّل إلى اتّفاق حتى أصبح بارداً، وأخيراً اتّفقنا على ألّا نحمل إليه شيئاً حتى يسألنا ذلك، فقد كنّا نخشى مقابلته وخاصّة بعد أن يكون قد مضى عليه بعض الوقت وهو يجلس وحيداً.

أخذ يوسف يدور حول نفسه باحثاً عن هيثكلف وقال: «لماذا لم يعد حتى الآن من الحقل؟ أين هو الآن؟».

أجبته: «سأدعوه، إنّه في مخزن الحبوب دون ريب».

خرجت وناديت عليه فلم يجبني أحد، وعندما عدت همست في أذن كاثرن بأنّي متأكّدة أنّ هيثكلف قد سمع قسماً كبيراً من أقوالها، وأخبرتها كيف أنّي رأيته يغادر المطبخ عندما شَكَت من سلوك أخيها نحوه. قفزت من شدّة الاضطراب، وألقت بهرتون على المقعد، وولّت مسرعة تبحث عن صديقها بنفسها. طال غيابها فترة طويلة فاقترح يوسف ألّا ننتظر أكثر من ذلك، كان يعتقد خبثاً منه أنّهما يفضّلان البقاء في الخارج حتى يتجنّبا الاستماع إلى صلواته المملّة. وقال إنّهما لا يصلحان لغير الأمور السخيفة. وقد صلّى تلك الليلة من أجلهما صلاة إضافيّة مقدار ربع ساعة، وكاد أن يصلّي مرّة ثانية لولا لم تدخل كاثرن وتطلب منه أن يسرع إلى الطريق العام ويبحث عن هيثكلف ويحضره حالاً!

وقالت: «إنّي أودّ أن أتحدّث إليه وينبغي أن أتحدّث إليه قبل أن أصعد إلى غرفة نومي». وأضافت تقول: «إنّ الباب مفتوح، إنّه في مكان بعيد عن هنا ولو كان على قرب منّا لردّ عليّ وأنا أصيح من على المرتفع بأعلى صوتي».

عارض يوسف بادئ الأمر طلبها، إلّا أنّها كانت متحمّسة إلى درجة لم يكن باستطاعته أن يظلّ معارضاً لها فوضع قبّعته أخيراً على رأسه وخرج من المطبخ يمشي وهو يتميّز من الغيظ.

وأخذت كاثرن تقطع أرض المطبخ ذهاباً وإياباً وقالت: «أين هو الآن؟ ماذا قلت يا نيلي؟ لقد نسيت. هل اغتاظ من سلوكي السيّئ بعد ظهر اليوم؟ عزيزتي! أخبريني ماذا قلت حتى أحزنته؟ كم أتمنّى أن يعود!».

قلت: «إنّك تثيرين ضجّة حول لا شيء. إنّها زوبعة في

فنجان». ولكنّي كنت قلقة أيضاً وأضافت قائلة: «لا ريب أنّه قد ذهب للمسير بين المروج في ضوء القمر. إنّي واثقة بأنّه هناك».

وغادرتُ المطبخ لأجدّد بحثي عنه، ولكنّي أخفقت في النهاية كما أخفق يوسف أيضاً!

وقال يوسف وهو يعود: «إنّكم أيّها الأولاد تثيرون القلاقل في البيت». وأخذ يعدّد مساوئ هيثكلف.

قاطعته كاثرن قائلة: «هل وجدت هيثكلف أيّها الحمار؟ هل بحثتَ عنه كما أمرتك؟».

أجاب: «كان ينبغي أن أبحث عن حصان بدلاً منه، ولكنّي لا أستطيع أن أبحث عن حصان أو إنسان في مثل هذه الليلة المظلمة، السوداء، سواد المدخنة».

لقد كانت تلك الليلة ليلة مظلمة جدّاً، كانت السماء ملبّدة بالسحب التي تنذر بهطول المطر. فقلت إنّه من الأفضل ألّا نغادر البيت لأنّ الأمطار المقبلة لا بدّ وأن تُعيده إلى البيت ولا حاجة أن نزعج أنفسنا. ومع ذلك فلم أستطع أن أقنع كاثرن بأن تركن إلى الهدوء، وظلّت تحوم هنا وهناك، في حالة اضطراب شديد، وأخيراً وقفت إلى جانب الجدار الخارجي بالقرب من الطريق العام، ولم تلتفت إلى توسُّلاتي، وإلى البرق، والمطر الذي أخذ يتساقط وظلّت تنادي هيثكلف على فترات متقطّعة، ثم أخذت تبكي بكاءً شديداً كبكاء الأطفال.

وحوالي منتصف الليل وبينما كنّا لا نزال في المطبخ هبّت عاصفة هوجاء فوق المرتفعات، وقصفت الرعود، وسقطت شجرة كبيرة بالقرب من زاوية من زوايا الدار بسبب اشتداد الريح، فهوى

غصن كبير على السقف وتحطّم جزء من المدخنة الشرقيّة فسقط من جرّاء ذلك بعض الأحجار في النار المشتعلة في المطبخ. وظننّا أنّ سهماً قد سقط بيننا، فركع يوسف على ركبتيه يسأل الله أن يحميه ويحفظه، وخامرني شعور بأنّ هذا الحادث قصاص لنا جميعاً، كان يونس الذي بلعه الحوت في نظري هو مستر أرنشو، فهززتُ أكرة باب عرينه لأتحقّق ما إذا كان لا يزال حيّاً. فأجاب معلناً وجوده. وانتهى هياج العاصفة بعد عشرين دقيقة، ولم يصب أحد منّا بأذى سوى أنّ كاثي ابتلّت بالماء من رأسها إلى أخمص قدميها لأنّها لم تختبئ ووقفت بدون قبّعة ولا شال تحت المطر. ودخلت أخيراً إلى المطبخ وألقت بنفسها على المقعد وهي مبتلّة بالماء.

أمسكت بذراعها وقلت لها: «حسناً يا آنسة! إنّك لا تقصدين أن تلاقي حتفك أليس كذلك! هل تعلمين كم تبلغ الساعة الآن؟ إنّها تشير إلى النصف بعد الثانية عشرة. اذهبي! اذهبي إلى فراشك. إنّه لا فائدة ترجى من انتظار ذلك الصبي الأحمق، لا بدّ وأنّه قد ذهب إلى (غمرتون) وأنّه سيظلّ هناك حتى الصباح. إنّه يعتقد أنّنا لن نظلّ متيقّظين ننتظر عودته حتى هذه الساعة المتأخّرة من الليل. كما يعتقد أن الشخص الوحيد الذي يسهر الليل في البيت هو مستر هندلي، ولذلك فإنّه فضّل على الأرجح ألّا يحضر حتى لا يفتح له الباب».

قال يوسف: «لا، لا، إنّه غير موجود في (غمرتون). إنّي لا أستبعد أن يكون الآن في قاع إحدى الحفر الكبيرة». وابتدأ يتلو بعض آيات من الإنجيل.

وبعد أن حاولت عبثاً إقناع الفتاة أن تنهض وتخلع ثيابها المبتلّة، تركتها ترتجف وتركت يوسف يصلّي، وذهبت إلى سريري أحمل هرتون الصغير الذي كان قد استسلم إلى النوم قبل الجميع.

وبقيت أسمع صوت يوسف وهو يقرأ ثم سمعت صوت أقدامه على السلّم واستسلمت بعد ذلك للنوم.

تأخّرت في نومي أكثر من المعتاد، ولمّا هبطت في الصباح إلى الطابق السفلي وجدت أنّ كاثرن ما زالت تجلس إلى جانب الموقد. وكان هندلي قد غادر سريره ووقف إلى جانب الموقد أيضاً فبدا نحيلاً شاحب اللون.

قال لكاثي بينما كنت أدخل المطبخ: «ماذا يؤلمك إنّك تظهرين أمامي كالجرو المبتلّ بالماء، لماذا يبدو لونك شاحباً ولماذا أنت غارقة في الماء إلى هذا الحدّ؟».

أجابت وهي لا تُبدي أيّ اكتراث لسؤاله: «لقد تبلّلت بالماء وأشعر ببرد يسري في مفاصلي، وكفى».

قلت: «إنّها فتاة عنيدة، لقد وقفت في العراء والمطر ينهمر عليها في الليلة الماضية ثم جلست هنا ما تبقّى من الليل حتى الصباح ولم أستطع أن أقنعها بأن تأوي إلى فراشها».

حملق هندلي في وجهينا مدهوشاً وقال: «طوال الليل! ما الذي دهاها حتى سهرت الليل بطوله؟ إنّي متأكّد أنّها لم تخشَ الرعد، ولقد هدأ كلّ شيء منذ زمن بعيد».

لم يكن أحد منّا يرغب في أن يشير إلى غياب هيثكلف طالما كان بإمكاننا أن نخفي ذلك عنه. فأجبته أنّني لا أدري بماذا كانت تفكّر.

كان الصباح بديعاً والجوّ معتدلاً، ففتحت النافذة وامتلأت الغرفة بروائح الزهور الذكيّة. ولكن كاثرن أمرتني بإغلاق النافذة وقالت إنّها تكاد أن تموت من الجوع.

كانت أسنانها تصطكّ من البرد فأخذت تقترب من الجمرات

التي أوشكت أن تنطفئ في الموقد. ثم أمسك هندلي بمعصمها وقال: «إنّها مريضة: أعتقد أنّ هذا ما منعها أن تذهب إلى سريرها. لعنة الله على المرض، إنّني لا أريد أن يزعجني من جديد في هذا البيت، ما الذي جعلك تقفين تحت المطر؟».

اغتنم يوسف الفرصة وقال بلسانه الشرِّير الآثم:

«إنّها لحقت بالصبي كما هي العادة. ولو كنت سيّد البيت مكانك لما تردّدت في إغلاق الأبواب أمام الجميع. إنّه لا يمرّ يوم دون أن ترى لنتون هنا وهناك، ولقد ذهبت نيلي والآنسة لتبحثان في الحقول بعد منتصف الليل عن ذلك الشيطان الغجري هيثكلف. إنّهما يعتقدان أنّني أعمى ولكنّني لست كذلك». وأشار إليّ قائلاً: «ليس فيك نفع أيّتها الساحرة، إنّك تسرعين إلى البيت حالما تسمعين وقع حوافر حصان سيّدك في الطريق».

قالت كاثرن: «صه أيّها اللعين، لا تتكلّم بهذه اللهجة أمامي! لقد أتى إدغار لنتون بالأمس بمحض الصدفة، وقد قلت له أن يغادر البيت يا هندلي لأنّي كنت أعلم أنّك لا تحبّ أن تقابله في ذلك الوقت».

قال أخوها: «إنّك تكذبين بلا ريب يا كاثي وإنّك لفتاة غرِّيرة! ولكن ما بالنا ولنتون في الوقت الحاضر. أخبريني ألم تكوني مع هيثكلف الليلة الماضية؟ قولي الصدق الآن. لا تخشي، إنّي لن أؤذيه، لقد صنع معي جميلاً منذ زمن قصير ولذلك قلبي لن يسمح لي بدقّ عنقه ولو أنّي أكرهه كثيراً. وحتى لا يقع ما لا يحمد عقباه فإنّي سأرسله إلى عمله هذا الصباح دون أن أمسّه بسوء وإنّي أنصحك أن تحافظي على نفسك بعد الآن».

أخذت كاثرن تبكي بمرارة وأجابت: «إنّي لم أر هيثكلف ليلة

أمس وإذا طردته فعلاً من البيت فسأذهب معه. ولكن ربّما لن تتاح لك هذه الفرصة لأنّه من المحتمل أن يكون قد غادر البيت إلى غير رجعة». وهنا انفجرت في ثورة غضب لا توصف، ولم نستطع أن نفهم من كلماتها التي أخذت تهذي بها شيئاً.

فما كان من هندلي إلّا أن صبّ عليها جامّ غضبه ولعناته وأمرها أن تذهب إلى غرفتها حالاً أو لا تبكي لأمر غير ذي بالٍ وأرغمتُها على طاعة أخيها. وإنّي لن أنسى في حياتي تلك الحركات العصبيّة التي قامت بها عندما وصلنا إلى غرفتها. لقد أفزعتني حقّاً حتى بتّ أعتقد بأنّها قد جنّت، ورجوت يوسف أن يسرع ويحضر الطبيب.

لقد دلّت هذه الحالة على بدء عوارض الجنون. وقال مستر كينيث حالما رآها إنّها مريضة إلى حدّ خطر وإنّها مصابة بالحمّى.

وقال يجب ألا تأكل شيئاً أو تشرب سوى ماء الشعير والحليب، وطلب منّي أن أعيرها اهتمامي خشية أن تلقي بنفسها عن السلّم أو من النافذة ثم ترك البيت لكثرة أعماله في الأبرشيّة.

ومع أنّي لا أستطيع القول إنّي بذلت كلّ ما في استطاعتي من جهد واعتنيت بها اعتناءاً جيّداً، فقد استطاعت التغلّب على مرضها وأن تنجو منه أخيراً. وقد زارتنا السيّدة لنتون خلال ذلك عدّة مرّات لتتأكّد من أنّني أعتني بها، ولمّا تماثلت كاثرن للشفاء وصارت في دور النقاهة أصرّت السيّدة لنتون على أن تنقلها إلى (ثرشكروس غرانغ). فأعربنا لها عن شكرنا لهذا العمل. إلّا أنّه حدث ما لم نكن نتوقّعه، إذ انتقلت الحمّى إلى السيّدة لنتون وزوجها، وماتت في خلال بضعة أيّام ثم لحق بها زوجها إلى العالم الآخر.

عادت سيّدتنا الشابّة إلينا وهي أكثر تعجرفاً وأشدّ حساسيّة. أمّا هيثكلف فلم نسمع شيئاً عنه منذ تلك الليلة المشؤومة التي قصفت

فيها الرعود. وذات يوم أثارت غضبي بشكل لا يُطاق فما كان منّي إلا أنّ قلت لها إنّها كانت السبب في اختفاء هيثكلف. ومنذ ذلك الحين ولعدّة أشهر مقبلة لم تحدّثني كاثرن إلّا كما يتحدّث السيد إلى خادمه. لقد أصبحت تعتبر نفسها ربّة البيت، وأنّ على الجميع أن يعاملوها باحترام وبما أنّ الطبيب قد نصحنا ألّا نعارضها في شيء وقال إنّ معارضتنا وعدم تساهلنا في معاملتها سيفضي بها إلى الموت فقد حرصت كما حرص مستر أرنشو أن تنال شقيقته كلّ ما تطلبه وتبتغيه، كما حرص أيضاً على تجنّب إزعاجها. لقد كان يتطلّع بحماس شديد إلى اليوم الذي تتشرّف فيه عائلته بزواجها من إدغار لنتون.

ولقد تمّ أخيراً لإدغار الزواج من كاثرن واعتبر نفسه أسعد مخلوق في الوجود. وسار وإيّاها بعد ثلاث سنوات من وفاة والده إلى كنيسة (غمرتون) لعقد قرانهما.

وقد أُرغمتُ على ترك مرتفعات وذرينغ ومرافقة كاثرن إلى بيتها الجديد، وفارقتُ هرتون الصغير فراقاً أليماً، وكان قد بلغ حينذاك الخامسة من عمره.

وقد رفضتُ بادئ الأمر مرافقة كاثرن فبكت بكاءً شديداً وأليماً. وعندما وجدت أنّ توسّلاتها لم تُجْدِ نفعاً شكت الأمر إلى زوجها وأخيها. وقد عرض عليّ لنتون أجراً كبيراً كما أمرني هندلي بجمع حوائجي وقال إنّه لا يريد أن يرى ولا امرأة واحدة في بيته بعد أن ذهبت زوجته وأخته، أمّا بخصوص هرتون فقال إنّه سيوصي به القسّيس.

وهكذا لم يتبقّ لي سوى اختيار طريق واحدة وهي أن أفعل ما يطلب منّي. قبّلت هرتون مودّعة ومنذ ذلك الوقت أصبح غريباً عنّي،

ولا ريب في أنّه نسي مع الزمن كلّ شيء عن (ألن دين)، مع أنّه كان كلّ شيء في الدنيا بالنسبة لها، وأنّها كانت له كذلك بالنسبة له.

* * *

ولما وصلت السيّدة دين إلى هنا في قصّتها، تطلّعت بالصدفة إلى الساعة التي كانت معلّقة فوق المدخنة فدهشتُ كثيراً لرؤية عقرب الساعة يشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وعندئذٍ رفضَتْ هي البقاء أكثر من دقيقة واحدة أخرى والحقيقة أنّي شعرت برغبة في قطع قصّتها. والآن وقد ذهبت لتأخذ نصيبها من الراحة سأحاول أن أنام أنا أيضاً على الرّغم من الألم الذي يسري في مفاصلي.

10

إنّها فاتحة عهد جديد لحياة الرهبنة! أربعة أسابيع في العذاب والمرض! وآه، تلك الرياح الباردة، والسماء الملبّدة بالغيوم، والطرق الوعرة، والأطبّاء الكسالى! وآه لتعلّق كينيث المخيف بي حتى إنّي لم أعد أتوقّع أن أخرج من البيت قبل حلول الربيع.

لقد شرّفني مستر هيثكلف بزيارة واحدة منذ مدّة قصيرة وأرسل لي قبل حوالي سبعة أيّام زوجاً من الطير. يا للنذل! لقد كان سبباً في مرضي، وكنت أودّ أن أخبره بما كان يجول في خاطري، ولكنّي للأسف لم أستطع أن أؤذي شعوره لأنّه رجل كان كريماً إلى حدّ جعله يجلس إلى جانب سريري ساعة كاملة وأخذ يحدّثني فيها عن مواضيع أخرى غير الدواء والحبوب واللزقات. إنّي ما زلت ضعيفاً إلى حدّ لا أستطيع معه القراءة فلماذا لا أدعو إذن السيّدة دين لتنهي قصّتها!؟ إنّ في مقدوري الآن أن أتذكّر حوادثها الرئيسة إلى حيث وصلت في سردها. نعم وأذكر أنّ بطلها قد فرّ ولم يسمع عنه شيء خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وأمّا بطلتها فقد تزوّجت. سأقرع الجرس، إنّها ستبتهج عندما تراني أستطيع الكلام ببهجة وجاءت السيّدة دين.

وقالت: «إنّه ما زال هناك عشرون دقيقة لتناول الدواء يا سيّدي».

أجبتها: «بعداً، بعداً له، إنّي أرغب في...» قاطعتني قائلة: «إنّ الطبيب يقول ينبغي عليك أن تبلّ المسحوق قبل بلعه».

قلت: «لا تقاطعيني، تعالي واجلسي هنا، واسحبي إبرتك وصوفك من جيبك، ثم استأنفي سرد تاريخ مستر هيثكلف، وذلك من الوقت الذي فرّ فيه من مرتفعات وذرينغ حتى الوقت الحاضر. هل أنهى تعليمه في أوروبا وعاد رجلاً مهذّباً؟ أو درس في الجامعة؟ أو فرّ إلى أميركا وكسب ميداليات الشرف، أو أصبح غنيّاً وذا ثروة كبيرة عن طريق النهب والسرقة؟».

لقد قلت لك يا مستر (لوك ود) قبلاً إنّني لا أعلم كيف كسب أمواله، كما لا أعرف الوسائل التي اتّبعها لرفع مستواه العقلي من الجهل الذي كان يغرق فيه، ولكن، إذا سمحت لي، فإنّي سأستمرّ في سرد القصّة بأسلوبي الخاصّ إذا كنت تعتقد أنّه يلذّ لك سماعه وأنّه لن يضجرك. هل تشعر بتحسّن في صحّتك هذا الصباح؟

أجبتها: «كثيراً».

قالت: «هذا خبر طيّب».

* * *

توجّهت أنا والآنسة كاثرن إلى ثرشكروس غرانغ، ولقد تصرّفت تصرّفاً أحسن بكثير ممّا كنت أتوقّع منها لحسن الحظّ. لقد بدت أنّها مغرمة جدّاً بمستر لنتون. وأظهرت ودّاً كثيراً نحو أخته. لقد كانا كلاهما مهتمّين براحتها اهتماماً كبيراً، ولاحظت أنّ مستر إدغار كان يخشى كثيراً أن يعكّر مزاجها، فلو سمعني مثلاً أردّ عليها بعنف أو رأى أنّ أيّ خادم يتذمّر من أوامرها، أنّبنا على ذلك. وكثيراً ما كان

يتكلّم معي بكلمات قاسية لصراحتي ويقول لي إنّ طعنه بالموس لن يؤذيه أكثر من مشاهدة زوجته غاضبة. فتعلّمت كيف أكون دقيقة في معاملتي لها حتى لا أغضب سيّدي اللطيف. ولمدّة نصف سنة خيّم الهدوء على البيت هدوءاً تامّاً إلّا أنّه كان يبدو على كاثرن الوجوم والحزن في بعض الأحايين، فكان زوجها يحترم حزنها ووجومها ويعزي ذلك إلى تغيير صحّتها الناجم عن مرضها الخطير السابق. وكان يردّ لها الابتسامة بابتسامة مثلها وأعتقد أنّ باستطاعتي أن أؤكّد أنّهما كانا ينعمان فعلاً بالسعادة الحقيقيّة التي كانت تزداد يوماً بعد يوم.

وقد انتهت هذه السعادة، عندما أبانت الظروف لكلّ واحد منهما أنّ ميوله وشعوره ليست لها أهمِّيَّة خاصّة عند الآخر. ففي أمسية من أمسيات شهر سبتمبر، كنت قادمة من الحديقة، وفي يدي سلّة ملأى بالتفاح الذي كنت قد التقطته من أشجار الحديقة. وكان القمر يرسل نوره الفضّي على الكون وما أن وضعتُ حملي على درجات مدخل المطبخ وتوقّفت لحظة لأستريح، وملأت صدري عدّة مرّات بالهواء العليل، إذ بي أسمع صوتاً خلفي يقول:

«أهذا أنت يا نيلي؟».

كان الصوت عميقاً، وكانت اللهجة أجنبيّة، غير أنّ الأسلوب الذي لفظ فيه اسمي كان مألوفاً عندي. أدرتُ وجهي وَجِلَةً خائفة لأعرف مصدر الصوت فأبصرت رجلاً طويل القامة يرتدي ثياباً قاتمة اللون، وله وجه قاتم، وكانت أصابعه تمسك بأكرة الباب كأنّه يعتزم فتح الباب بنفسه.

تساءلت: «مَن يمكن أن يكون هذا؟ مستر أرنشو؟ كلّا، إنّ الصوت لا شبه فيه لصوته».

استأنف الشخص حديثه بينما بقيت أحملق فيه وقال: «لقد مضى على انتظاري أكثر من ساعة، وفي أثناء ذلك كان كلّ شيء حولي ساكن سكون الموت. لم أجرؤ على الدخول. هل تعرفينني؟ انظري إليّ جيِّداً إنّي لست غريباً عنك!».

كانت وجنتاه غائرتين في وجهه وله شارب أسود طويل، وعينان عميقتان فتذكّرتهما.

قلت له بصوت مرتفع، ورفعت يداي في دهشة: «هل عدت؟ إنّه أنت بالذات، أليس كذلك؟».

أجاب: «نعم، أنا هيثكلف، هل هم في البيت؟ أين هي الآن؟ نيلي، ألم تبتهجي لرؤيتي، لا تنزعجي، هل هي هنا؟ تكلّمي! أودّ أن أتحدّث إليها كلمة واحدة - سيّدتك. اذهبي وقولي لها إنّ شخصاً من (غمرتون) يرغب برؤيتها».

قلت متساءلة: «يا إلهي كيف ستتلقّى هذا النبأ؟ يا ترى ماذا ستفعل؟ لقد أربكتني المفاجأة ستفقد كاثرن عقلها! وهل هذا أنت يا هيثكلف! ولكنّك قد تبدّلت! أكنت جنديّاً؟».

قاطعني قائلاً: «اذهبي وبلّغيها رسالتي، إنّي أنتظر على أحرّ من الجمر».

أدار أكرة الباب فدخلت، ولكن عندما وصلت إلى غرفة الجلوس حيث كان مستر لنتون وزوجته يجلسان لم أستطع إقناع نفسي بالمضي إلى داخل الغرفة وأخيراً قرّرت أن أختلق عذراً لدخولي فعندما دلفت إلى الغرفة سألتهما إذا كانت الشموع مضاءة.

كانا يجلسان معاً بالقرب من النافذة المطلّة على الجهة الثانية من الحديقة. ويتطلّعان إلى وادي غمرتون الذي كان يغطّيه الضباب. كان كلّ شيء بالغرفة والمناظر التي أمامها تنعم بالهدوء. فتردّدت في

إبلاغ الرسالة، وكنت على وشك الانسحاب من الغرفة دون أن أقوم بتنفيذ مهمّتي إلا أنّه غمرني شعور خفي وقلت متلعثمة:

«إنّ شخصاً من غمرتون يرغب في مشاهدتك يا سيّدتي».

سألت السيّدة لنتون: «ماذا يريد؟».

أجبتها: «إنّي لم أسأله».

قالت: «حسناً، أسدلي الستائر يا نيلي، وأحضري الشاي، سأعود حالاً».

غادرت كاثرن الغرفة، وسألني مستر إدغار بدون اكتراث، عن الشخص الذي يسأل عن زوجته.

أجبت: «إنّه شخص لا تتوقّعه سيّدتي، إنّه هيثكلف، هل تذكر يا سيّدي؟ إنّه هيثكلف الذي كان يعيش في بيت مستر (أرنشو)».

قال صائحاً: «ماذا الغجري - الحارث؟ لماذا لم تقولي كذلك لكاثرن؟».

قلت: «صه! يجب ألّا تسمّيه بهذه الأسماء يا سيّدي، إنّها ستحزن إذا سمعتك تلقّبه بهذه النعوت، إنّ قلبها كاد ينفطر عندما غادر مرتفعات وذرينغ، وأعتقد أنّ عودته ستكون يوم عيد بالنسبة لها».

توجّه مستر لنتون إلى النافذة التي تطلّ على ساحة البيت، ففتحها وأطلّ منها. وأعتقد أنّهما كانا تحت النافذة لأنّه قال بسرعة:

«لا تقفي هناك يا حبيبتي طويلاً ادخلي إلى البيت إذا كان أمره يهمّك».

ولم يمضِ وقت طويل حتى سمعتُ الباب ينفتح وصعدت كاثرن السلّم مسرعة وهي تلهث، وتبدو مضطربة.

قالت بعد أن طوّقت عنق زوجها بذراعيها: «أوه، يا إدغار، إدغار، أوه يا عزيزي! لقد عاد هيثكلف!» وضمّته بشدّة.

صاح زوجها: «حسناً، حسناً، لا تخنقيني من أجله! إنّه لا داعي لاضطرابك!».

أجابت وهي تحاول أن تخفّف قليلاً من ابتهاجها: «يجب أن تصبحا الآن صديقين من أجلي. هل أدعوه إلى فوق؟».

تساءل: «هنا؟ وإلى غرفة الجلوس؟».

قالت: «إلى أين إذن؟».

بدا الاضطراب عليه وقال إنّ المطبخ هو خير مكان مناسب لمقابلته. نظرت إليه نظرة يشوبها مزيج من الغضب والضحك. وأضافت تقول بعد لحظة: «لا، إنّي لا أستطيع الجلوس في المطبخ. أعدّي يا ألن طاولتين هنا، واحدة لسيّدك وللآنسة إيزابيلا، لكونهما من طبقة الأسياد، والأخرى لهيثكلف ولي، لكوننا أحطّ منهما قدراً. هل سيرضيك ذلك يا عزيزي؟ أو ينبغي أن أشعل النار في مكان آخر؟ إذا رغبت ذلك فأمر. سأنزل إلى الطابق الأسفل وأستقبل ضيفي. إنّ فرحي كبير جدّاً إلى درجة أخشى معها ألّا تكون عودة هيثكلف أمراً حقيقيّاً».

وكادت أن تنفجر مرّة أخرى إلّا أنّ إدغار أمسك بها. وقال يخاطبني: «دعيه يصعد، وأنت يا كاثرن حاولي أن تكوني سعيدة ولكن لا تظهري بمظهر شاذّ، يجب ألّا يلاحظ جميع سكّان البيت أنّ ترحيبك بخادم مشرّد سيكون كترحيبك لأخيك».

هبطت إلى الطابق السفلي فوجدت هيثكلف ينتظر تحت الرواق، في انتظار أن يُدعى إلى الدخول. تبعني دون أن يضيّع الوقت في الكلام، فقُدْته إلى حيث يجلس ربّ البيت وربّته، وما أن أبصرته كاثرن حتى قفزت إلى الأمام وأمسكت بيديه وقادته إلى

لنتون، ثم أمسكت براحة لنتون ووضعتها بين يد هيثكلف. وقد دهشت كثيراً عندما اتّضح لي الآن أكثر من ذي قبل، بفضل النور المتوهّج في الغرفة، أنّ هيثكلف قد تغيّر إلى حدّ كبير. كان جسمه قد نما، وأصبح أطول من ذي قبل، ذا قوام بديع وشكل حسن، وبدا سيّدي إلى جانبه نحيلاً، أشبه بالفتى اليافع. كان انتصاب قامة هيثكلف يدلّ على أنّه كان مجنّداً في الجيش.

وكانت ملامحه تدلّ على أنّه أكبر من سنّه الحقيقي وتنمّ عن ذكاء فطري، وزال عنه كلّ أثر لانحطاط خلقه في السابق. بلغت دهشة سيّدي حدّاً يساوي دهشتي أو تفوّقها، فظلّ أكثر من دقيقة في حيرة لا يدري كيف يخاطب الحارث، كما كان يدعوه، كما ظلّ هيثكلف ينظر إليه ببرود وأخيراً قال مستر لنتون: «اجلس يا سيّدي لقد طلبت السيّدة لنتون منّي أن أستقبلك استقبالاً حارّاً، وإنّي سعيد بأن أقوم بأيّ عمل يرضيها».

أجاب هيثكلف: «وأنا أيضاً، سأُقيم عندكم ساعة أو ساعتين بكلّ طيبة خاطر».

وجلس على مقعد مقابلٍ لكاثرن، التي ظلّت مركّزة نظرها صوبه كأنّها تخشى أن يختفي من أمامها. لم يكن يرفع عينيه إلى عينيها إلّا نادراً، ولكنّه كان ينظر إليها بين حين وآخر نظرة خاطفة. كانا كلاهما غارقين في لجّة من السعادة المشتركة، أمّا إدغار فكان على العكس من ذلك، فقد شحب لونه، وبدا الاضطراب عليه، وزاد هذا الاضطراب وبلغ ذروته عندما نهضت كاثرن، وتقدّمت صوب هيثكلف فأمسكت بيديه مرّة أخرى وضحكت ضحكة هستيريّة ثم قالت: «سأرى غداً هذه الساعة كأنّها ساعة من ساعات الأحلام! لن أستطيع أن أصدّق أنّي رأيتك ولمستك، وتحدّثت إليك مرّة أخرى.

ومع ذلك يا قاسي فأنت لا تستحقّ هذا الترحيب. كيف تغيب ثلاث سنوات ولا تفكّر فيّ أبداً؟».

قال متمتماً: «لقد فكّرت فيك! أكثر ممّا فكّرت في أمري. لقد سمعت منذ مدّة قصيرة نبأ زواجك، وبينما أنا أنتظر في الساحة قرّرت أن ألمح وجهك ثم أصفّي حسابي مع هندلي، لكن ترحيبك قد طرد هذه الأفكار من عقلي، فحذار من مقابلتي على نحو آخر في المرّة الثانية! إنّك لا تطرديني مرّة أخرى، هل أسفت بالفعل عليّ؟ حسناً، لقد ناضلت نضالاً مريراً وعشت حياة قاسية منذ آخر مرّة سمعت فيها صوتك، وينبغي عليك أن تسامحيني لأنّي ناضلت فقط من أجلك!».

قاطعه لنتون وقال محاولاً أن يحتفظ بلهجته العاديّة: «كاثرن، إذا كنت لا تريدين أن نشرب الشاي بارداً فرجائي أن تتقدّمي إلى الطاولة. إنّ أمام مستر هيثكلف طريقاً طويلة حتى يصل إلى المكان الذي سيؤول إليه، إنّني ظمئ».

جلست كاثرن أمام آنيَة الزهر، وحضرت الآنسة إيزابيلا، وبعد أن أجلست كلّاً على كرسيّه تركت الغرفة. لم يحتمل تناولهم للشاي أكثر من عشر دقائق. ولم تستطع كاثرن أن تأكل أو تشرب شيئاً، كما كان إدغار يرغم نفسه على ابتلاع طعامه. ولم يطل الضيف إقامته ذلك المساء أكثر من ساعة واحدة وقد سألته عندما غادر البيت: «هل أنت ذاهب إلى (غمرتون)؟».

أجاب: «كلا، إنّي ذاهب إلى مرتفعات وذرينغ. لقد دعاني مستر أرنشو عندما حضرت هذا الصباح إلى الإقامة في بيته».

«دعاه مستر أرنشو!» ردّدت هذه الجملة في نفسي بعد أن ذهب.

وقلت هل عاد إلى القرية ليعيث فيها فساداً؟ لقد كنت أحبّذ في قرارة نفسي أن يظلّ بعيداً عنّا.

وحوالي منتصف الليل أيقظتني السيّدة لنتون من سباتي ولم يمض على إغفائي أكثر من ساعة، كانت قد دخلت إلى غرفتي بهدوء وشدّت بشعري حتى توقظني وقالت على سبيل الاعتذار، «إنّي لم أستطع أن أهدّئ أعصابي يا (ألن) وإنّي بحاجة إلى مخلوق ليشاركني سعادتي! إنّ إدغار متضايق لأنّني سعيدة من أمر لا يهمّه.. إنّه يأبى أن يفتح فمه إلا لينطق ببضع كلمات سخيفة. ويصفني بأنّني قاسية وأنانيّة لأنّي أحبّ الكلام في الوقت الذي هو في أشدّ الحاجة فيه إلى النوم. تحدّثت بضع جمل عن هيثكلف فأخذ يصيح إمّا لألم في رأسه أو بدافع الحسد، وهكذا نهضت من فراشي وتركته وحيداً».

قلت: «ما الفائدة من مدح هيثكلف أمامه؟ لقد كانا يكرهان بعضهما في أيّام الطفولة، ولا ريب أنّ هيثكلف يكره أن يسمعك وأنت تمدحين لنتون كما مدحت هيثكلف أمام لنتون. هكذا طباع البشر، اتركي مستر لنتون وشأنه ولا تحدّثيه عن هيثكلف إلا إذا كنتِ تبتغين أن يبدأ النزاع بينهما».

قالت: «ولكن أليس ذلك دليلاً على الضعف؟ إنّي لا أحسد إنساناً - إنّي لم أتألّم أبداً من بريق شعر إيزابيلا الذهبي، ونقاء بشرتها البيضاء، وأناقتها، وغرام جميع أفراد الأسرة بها. حتى أنت يا (نيلي) تؤيّدين إيزابيلا وتناصرينها عليّ إذا ما وقع خصام بيننا، ومع ذلك فإنّي أحبّها وأدعوها يا عزيزتي. وهكذا يجب أن يكون هيثكلف وإدغار على وئام دائماً إنّهما متشابهان كثيراً فهما طفلان مدلّلان وأعتقد أنّ معاقبتهما باللطف قد يهذّب من أخلاقهما».

قلت: «إنّك مخطئة».

أجابت وهي تضحك: «كلا إنّي متأكّدة من أنّ لنتون يحبّني حبّاً عنيفاً حتى إنّي أعتقد أنّني لو حاولت قتله لما ثأر منّي».

نصحتها ألا تسيء تقدير شعوره نحوها. وسألتها: «ما رأيك في ذهاب هيثكلف إلى مرتفعات وذرينغ؟» وقلت: «لقد أصلح نفسه من جميع الوجوه على ما يظهر، لقد أصبح رجلاً متمسّكاً بدينه، إنّه يمدّ الآن يده ليصافح جميع مَن عادوه».

أجابت: «أعجب من ذلك كما تعجبين. لقد قال لي إنّه استقى معلوماته عنّي منك. كما قال لي أيضاً إنّه عندما زار مرتفعات وذرينغ التقى بيوسف الذي أخبر هندلي بوصوله، ولمّا خرج هندلي لملاقاته سأله أين كان يعيش وماذا كان يعمل ثم دعاه أخيراً إلى البيت. كان هناك بعض الأشخاص يلعبون الورق حول المائدة، فانضمّ إليهم، وربح أخي منه بعض المال. ولمّا وجد أنّ مع هيثكلف مالاً كثيراً دعاه لزيارته في المساء مرّة ثانية، فوافق على ذلك. إنّ هندلي لا يهمّه أمر اختيار معارفه وخلّانه. وأكّد هيثكلف لي أنّ السبب الرئيس الذي دعاه إلى استئناف علاقته مع عدوّه القديم هو رغبته في إنشاء مركز له يقع على مسافة قريبة من (غرانغ)، ولتعلّقه بالبيت الذي عشنا فيه معاً. كما أنّه يأمل في أن تتاح لي فرص عديدة لأراه هناك. إنّه يعتزم أن يدفع أجراً باهظاً لسكناه في مرتفعات وذرينغ، ولا ريب في أنّ جشع أخي سيحمله على قبول هذا العرض دون تردّد، لقد كان أخي طمّاعاً طوال حياته، مع أنّ الذي يجمعه باليد اليمنى يبعثره باليد اليسرى».

قلت: «إنّه مكان جميل يليق بسكنى رجل شابّ. ألا تخشين العواقب يا سيّدتي؟».

أجابت: «إنّي لا أخشى على صديقي، إنّ قوّة تفكيره ستحفظه

من الأخطار، وأخشى على هندلي قليلاً، ولكن لا يمكن إصلاح أخلاقه، إنّ حادث هذه الليلة قد هداني من جديد إلى الله تعالى وإلى الإنسانيّة! لقد ثرتُ ثورة جامحة على الباري قبلاً، وتحمّلت كثيراً من الشقاء المرّ الأليم! ولو عرف ذلك المخلوق، إدغار، ما قاسيته لَخَجِلَ من محاولته تجاهل حادث الليلة وإسدال ستار عليها. إنّ لطفي وكرمي هما اللذين حملاني على تحمّل العذاب وحدي، فلو شرحتُ له حزني وبؤسي الذي كنت أشعر به دائماً، لعرف كيف يتحرّق شوقاً للقضاء على هذا الحزن كما تحرّقت أنا شوقاً للقضاء عليه. وعلى كلّ، فقد انتهى شقائي، ولن أثأر لنفسي من حماقته الآن. إنّي أستطيع أن أتحمّل عذاب أيّ شيء بعد الآن! فلو صفعني أحقر إنسان في الوجود على خدّي، فلن أدير له خدّي الآخر فحسب، بل أطلب منه العفو والسماح على ذلك، وبرهاناً على هذا سأذهب الآن وأصالح إدغار حالاً. طبتِ مساء! إنّي لملاك طهور!

وهكذا تركتني وهي راضية النفس مقتنعة بفوزها ونجاحها. وقد اتّضح ذلك في صباح اليوم التالي، إذ لم يتغلّب مستر لنتون على اضطرابه فحسب، بل إنّه لم يعارض كاثرن في أخذ شقيقته إلى مرتفعات وذرينغ بعد الظهر. وقد أجازته كاثرن على ذلك بأن جعلت البيت فردوساً يفيض بالسعادة والهناء لعدّة أيّام.

وقد أباح هيثكلف لنفسه - ويحبّ أن أدعوه بعد الآن مستر هيثكلف - حرمة زيارة (ثرشكروس غرانغ) ولكن بحذر في بادئ الأمر، ليدرك مقدار تحمّل ربّ البيت لهذا التطفّل، كما رأت كاثرن أنّه من الحكمة ألّا تسترسل كثيراً في التعبير عن سرورها عند مقابلتها لهيثكلف، الذي أوجد لنفسه تدريجيًّا مع مرور الوقت حقّاً في دخول البيت. ظلّ سيّدي هادئاً ولم يظهر أيّ قلق أو اضطراب من زيارات

هيثكلف حتى حدثت أمور أخرى أثارت اهتمامه وحوّلت قلقه إلى ناحية أخرى.

وقد برز مصدر قلقه الجديد من تعلّق إيزابيلا بالضيف الجديد وميلها له ميلاً قويّاً لا يقاوم. كانت إيزابيلا في ذلك الوقت فتاة جميلة جذّابة تبلغ الثامنة عشرة، تتمتّع بذكاء حادّ، وشعور رقيق، وطبع صلب أيضاً إذا ما أثير غضبها. وقد صُعِقَ أخوها الذي كان يحبّها كثيراً عندما علم بنبأ تعلّقها العجيب بهيثكلف. لقد كان إدغار يعتقد بأنّ هيثكلف لم يبدّل تفكيره وطباعه وأنّه لن يبدّلها، فكيف يسمح له الزواج من أخته! إذا تركنا جانباً انحطاط سمعة العائلة بزواج إليزابيت من رجل مجهول الحسب والنسب. لقد أفزعه هذا النبأ حقّاً وأثار مشاعر الحقد الدفين في أعماق قلبه على هيثكلف، ووضع جميع اللوم عليه لوضعه خطّة افتراس شقيقته عن سابق عزم وتصميم.

ولاحظنا فيما بعد أنّ الآنسة لنتون أخذت تزداد كلّ يوم اضطراباً وقلقاً. وقد عفونا إلى حدّ ما عن تصرّفاتها الشاذّة لاعتقادنا أنّها معتلّة الصحّة. ولكن حدث ذات يوم أن رفضت تناول فطورها واشتكت من عدم انصياع الخدم إلى أوامرها. وقالت إنّ السيدة لنتون لا تسمح لها القيام بأيّ عمل في البيت وأضافت إلى ذلك أنّ إدغار قد أهملها، وادّعت آلافاً من التهم الأخرى، فما كان من ربّة البيت إلا أن أمرتها أن تذهب إلى فراشها وقالت لها إنّها إذا لم تصغ إلى كلامها فستدعو الطبيب لمعاينتها. غير أنّ إليزابيت أجابت أنّ صحّتها على خير ما يرام. وأنّ قساوة كاثرن هي التي تجلب لها الشقاء والتعاسة.

صاحت ربّة البيت متعجّبة من هذا الاتهام الباطل وقالت:

«كيف تتّهمينني أيّتها الفتاة المدلّلة بأنّني قاسية، ولا ريب أنّك قد فقدت صوابك، متى كنت قاسية في معاملتك، تكلّمي؟».

بكت إيزابيلا وقالت: «بالأمس، وفي هذه اللحظة!».

تساءلت ابنة عمّها: «بالأمس! في أيّة مناسبة؟».

أجابت: «لقد طلبت إليّ أثناء سيرنا معاً فوق المرج أن أتجوّل وحدي حيثما أشاء لأفسح لك المجال لتتحدّثي إلى مستر هيثكلف وتسيري إلى جواره وحدك».

ضحكت كاثرن وقالت: «وهل هذا تعتبريه قساوة منّي، إنّي لم أكن أقصد أن أقول لك إنّ رفقتك لنا كانت غير مستحبّة، ولم أكن أبالي فيما لو بقيت إلى جانبنا أو لم تبقي. ولكن كنت أعتقد فقط أنّ حديث هيثكلف لن يتضمّن أيّ شيء يستلذّ سماعه بالنسبة إليك».

استمرّت في البكاء وقالت: «أوه، كلا، لقد كنت ترغبين في أن أبتعد عنكما لأنّك كنت تعلمين أنّني أفضّل البقاء إلى جانبكما».

وجّهت السيّدة لنتون سؤالها إليّ قائلة: «هل فقدت عقلها، إنّي سأعيد على مسمعها ما دار بيني وبين هيثكلف من حديث كلمة كلمة، فلتشر إيزابيلا إلى أيّة نقطة أو موضوع يلذّ لها سماعه».

أجابت إيزابيلا: «إنّي لا أبالي بالحديث، إنّي أريد أن أظلّ مع...».

قالت كاثرن: «حسناً! ولاحظت تردّد إيزابيلا في إتمام الجملة».

تحمّست الفتاة بعد ذلك. وأتمّت جملتها قائلة: «معه، ولا أريد أن أكون بعيدة عنه، إنّك يا كاثي كالكلبة، لا ترغب في أن يعشق الناس غيرها!» صُعِقَت السيّدة لنتون من هذه الكلمات وصاحت:

«إنّك قردة صغيرة وقحة، إنّي لا أصدّق أنّك فاقدة العقل بلهاء إلى هذا الحدّ! إنّه من المستحيل عليك أن تكسبي إعجاب هيثكلف وحبّه، آمل في أن أكون قد أسأتُ فهمك يا إيزابيلا!».

قالت الفتاة بلهجة تتلهّب حماسة: «كلا أنت قد فهمت قصدي، إنّي أحبّه أكثر ممّا تحبين إدغار، وإنّه يحبّني إذا تركته وشأنه!».

قالت كاثرن وقد بدا عليها أنّها تتكلّم الصدق: «إنّي لا أرغب في أن أكون مكانك ولو أعطيت الدنيا بأسرها يا نيلي، ساعديني على إقناعها بأنّها غبيّة مفتونة، أخبريها مَن يكون هيثكلف، إنّه مخلوق شرّير لا أخلاق له، إنّه أرض قفراء بلقع. إنّ جهلك لشخصيّته، أيّتها الطفلة، هو الذي أوحى إليك هذه الأفكار ولا شيء غير ذلك. تأكّدي أنّه لا يُخفي وراء قسوته التي تبدو للناس، قلباً رحيماً وعاطفة نبيلة. لا تعتقدي أنّه لؤلؤة مكنونة وجوهرة مصونة، بل إنّه رجل قاسٍ، لا يشفق ولا يرحم، إنّي متيقّنة أنّه لن يحبّ أحداً من عائلة لنتون، ولكن ربّما قَبِل الزواج منك لثروتك وجاهك».

نظرت الفتاة إلى ابنة عمّها باحتقار وقالت بغضب: «يا للعار! يا للعار! إنّك صديقة خدّاعة، إنّك أشدّ أذى من عشرين عدوّاً!».

قالت كاثرن: «إنك لم تصدّقي أقوالي إذن، أتعتقدين أنّي أتكلّم بدافع أنانيّتي؟» أجابت إيزابيلا: «إنّي متأكّدة من ذلك».

صاحت كاثرن: «حسناً! جرّبي بنفسك، إذا كانت روحك توّاقة إلى هذه المغامرة». وغادرت السيّدة لنتون الغرفة بينما كانت الدموع تترقرق في مقلتي إيزابيلا التي قالت لي: «وهل ينبغي عليّ أن أقاسي من أجل أنانيّتها، إنّ الجميع يعملون ضدّي، لقد قضت على سلوتي الوحيدة، لقد كان كلامها باطلاً، أليس كذلك؟ إنّ مستر هيثكلف

ليس شيطاناً، إنّ له روحاً شريفة، روحاً طيّبة، وإلا فكيف نراه ما زال يحفظ لها الإخلاص والودّ؟».

قلت: «اطرديه يا آنسة من مخيّلتك وأبعديه عن أفكارك. إنّه طائر ينذر بالشرّ، وإنّه لا يصلح لك. لقد كانت السيّدة لنتون قاسية في كلامها، ومع ذلك لم أستطع أن أعارضها. إنّها ملمّة بطوايا فؤاده أكثر منّي أو أيّ شخص آخر، إنّ الشرفاء لا يخفون أعمالهم، إنّه لم يقل لنا كيف كان يعيش، وكيف أثرى؟ كيف يستطيع العيش في مرتفعات وذرينغ، في بيت الرجل الذي يضمر له الكراهية والبغضاء؟ إنّهم يقولون إنّ مستر أرنشو يزداد سوءاً كلّ يوم منذ أن عاد هيثكلف إلى هنا. إنّهما يقضيان الليل بطوله دائماً مع بعضهما. وقد أخذ هندلي يستقرض أموالاً على حساب أملاكه، ولا يعمل شيئاً سوى اللعب بالورق وشرب الخمر، فإذا ما صحّ ما يُقال عن هيثكلف فيجدر بك ألا تفكّري بعد الآن بالزواج منه كما أعتقد!».

أجابت: «إنّك متحالفة مع الباقين يا (ألن) إنّي لن أستمع إلى أقوالك الضارّة، أيّ أذى تبتغينه لي؟».

ولا يمكنني القول ما إذا كانت قد استطاعت إيزابيلا أن تتغلّب على أوهامها أم لا، إلا أنّه لم يكن هناك مجال كافٍ لديها لذلك. فلقد أرغم سيّدي في اليوم التالي على حضور إحدى الجلسات القضائيّة في المدينة المجاورة، ولمّا كان هيثكلف على علم بنبأ غيابه فقد حضر إلى (ثرشكروس غرانغ) مبكّراً أكثر من المعتاد. كانت كاثرن وإيزابيلا تجلسان في غرفة المكتبة، يخيّم عليهما الصمت إلا أنّهما كانتا تصوّبان إلى بعضهما نظرات ملؤها الحقد والكراهية. وقد ابتسمت إيزابيلا فجأة عندما شاهدت هيثكلف يمرّ بالقرب من النافذة، وقد لاحظت الابتسامة على شفتيها بينما كنت أنظّف

الموقد. وظلّت إيزابيلا غارقة في أحلامها وتفكيرها حتى انفتح الباب، فلم يعُد باستطاعتها بعد ذلك الفرار من الغرفة، ولو أرادت ذلك من قبل لاستطاعت.

ابتهجت السيّدة بمرأى هيثكلف وسحبت كرسيّاً إلى جانب الموقد وقالت له: ادخل، إنّ ها هنا شخصين حزينين في حاجة إلى شخص ثالث يزيل ما بينهما من جفاء، وإنّك الشخص الوحيد الذي يمكن أن نختاره لهذه المهمّة. إنّي مزهوّة يا هيثكلف لأرشدك أخيراً إلى شخص مغرم بك أكثر منّي. كلا، إنّها ليست (نيلي)، لا تنظر إليها! لقد انفطر قلب بنت عمّي الصغيرة المسكينة لمجرّد تفكيرها بجمالك الجسدي والروحي. فباستطاعتك بعد الآن أن تصبح أخاً لإدغار! وقالت مخاطبة إيزابيلا: «لا، لا تهربي، يا إيزابيلا»، ثم واصلت كلامها محدّثة هيثكلف: «لقد كنّا نتخاصم كما تتخاصم القطط من أجلك، وقد كدت أن أهزم في إظهار إخلاصي وإعجابي بك».

عندئذٍ قالت إيزابيلا: «كاثرن! سأكون شاكرة لك إذا تمسّكت بالصدق والتزمتِ جانب الحقّ، ولم تؤذيني ولو على سبيل المزاح! وأنت يا مستر هيثكلف، أرجوك أن تأمر صديقتك هذه أن تطلق سبيلي، لقد نسيت أنّي وإيّاك لا نعرف بعضنا تمام المعرفة بعد وأنّ ما قد يسرّها يؤلمني».

ولمّا لم يجب الضيف ونظر إليها نظرة لامبالاة فقد أدارت وجهها نحو كاثرن وهمست في أذنها طالبة السماح لها بمغادرة المكان.

قالت السيّدة لنتون: «لا مانع أبداً! وأرجو ألا تصفيني بالكلبة مرّة ثانية. والآن يا هيثكلف، لماذا لا تعلن سرورك بأخباري الطيّبة؟ إنّ إيزابيلا أقسمت بأعظم الإيمان أنّ الحبّ الذي يكنّه إدغار لي ليس

بشيء إذا قيس إلى الحبّ الذي تكنّه لها، أليس كذلك يا ألن؟ ولقد زهدت بالطعام والشراب منذ ذلك اليوم الذي أقصيتها فيه عن مرافقتك».

قال هيثكلف: «إنّك تقولين الصدق يا كاثرن، وحملق في وجه إليزابيت متفرّساً، فلم تستطع المسكينة أن تصمد لهذه النظرة فابيضّ وجهها واحمرّ من شدّة الخجل، وانحدرت الدموع من مآقيها. وأمسكت بأصابعها الصغيرة يد كاثرن وأخذت تشدّ عليها بأظافرها حتى سال الدم منها».

ولمّا شعرت السيّدة لنتون بالدم يسيل على يدها صاحت: «يا لك من نمرة متوحّشة! اغربي عن وجهي بحقّ السماء، يا لك من مجنونة! انظر يا هيثكلف! يجب أن تحذر منها».

قال بقساوة بعد أن خرجت إيزابيلا وأغلقت الباب خلفها: «إنّني سأقتلع أظافرها من أصابعها إذا ما حاولت استخدامها ضدّي. ولكن ماذا تقصدين من تعذيب المخلوقة بهذا الأسلوب يا كاثي؟ إنّك لم تقولي الصدق».

أجابت: «أؤكّد لك إنّي قلت الصدق. لقد فتنت إيزابيلا بك في الأسابيع الأخيرة وقد شعرت باليأس والخيبة هذا الصباح عندما أَبَنْتُ لها عيوبك ونقائصك حتى أقلّل من إعجابها بك. ولكن لا تبال بهذا الأمر، لقد أردت فقط معاقبتها على وقاحتها. إنّي أحبّها كثيراً يا عزيزي هيثكلف إلى درجة ألّا أسمح لك أن تبتلعها».

قال: «وأنا أحبّها إلى درجة تجعلني أحاول ذلك! ولو أُتيح لي أن أعيش وحيداً مع هذا الوجه الشمعي المزيّف لسمعت شيئاً عجباً، وأقلّ ما في الأمر أنّني سأطلي وجهها بألوان عجيبة، وأحوّل عينيها الزرقاوين إلى سوداوين لأنّهما يشبهان عينَيْ أخيها».

قالت كاثرن: «إنّهما يشبهان عيني الحمامة أو الملاك!».

وسأل هيثكلف بعد صمت قصير: «هل هي وريثة أخيها؟».

أجابت: «إنّه يحزنني أن أفكّر في ذلك. إنّي أسألك يا إلهي أن ينجب أخاها ما لا يقل عن ستّة أولاد حتى لا تستولي على ممتلكاته! والآن دعنا من الحديث في هذا الموضوع، وتذكّر أنّ أموال وممتلكات أخيها هي أموالي وممتلكاتي».

قال هيثكلف: «ولو كانت لي لكانت لكِ. إنّ بإيزابيلا مسّ من الجنون. والآن لنترك هذا الموضوع بناء على طلبك».

لقد أبعدت كاثرن الموضوع عن لسانها ومن المحتمل عن أفكارها، غير أنّ هيثكلف أبعده عن لسانه فقط، إذ لاحظت أنّه أخذ يعيده على لسانه خلال الحديث في المساء، ورأيته يبتسم إلى نفسه ثم يقطّب جبينه كلّما غادرت السيّدة لنتون الغرفة لقضاء حاجة لها وتركته وحيداً.

وقرّرت أن أراقب كلّ سكناته وحركاته. فلقد كان قلبي يناصر سيّدي إدغار الذي كنت أفضّله على كاثرن، لأنّه كان لطيفاً محترماً وموضع ثقة الجميع. ولا يمكن أن يقال إنّها كانت على العكس من ذلك، ولكنّها لم تكن تتحلّى بالصفات نفسها التي يتحلّى زوجها بها، لقد كنت أتمنّى من صميم قلبي أن يقع حادث ما يؤدّي إلى أن تتحرّر مرتفعات وذرينغ وغرانغ من مستر هيثكلف بهدوء، لقد كانت زياراته كحلم مخيف متواصل لي، ولسيّدي أيضاً، كما أظنّ. لقد كنت أعتقد بأنّ الله قد ترك الوحوش الضالّة تعيث في الأرض فساداً دونما رادع.

11

وبينما كنت ذات مرّة أفكّر بهذه الأمور وحيدة انتابني خوف مفاجئ فارتديت قبّعتي وقرّرت أن أتوجّه إلى مرتفعات وذرينغ. لقد اقتنعت بأنّه من واجبي أن أنبّه هيثكلف إلى اشمئزاز الناس من أعماله وأساليبه، لكنّي تذكّرت بعد ذلك أنّه لا فائدة تُرجى من إصلاحه فعدلت عن زيارة ذلك البيت الموحش.

وبينما كنت في طريقي إلى غمرتون ذات مرّة مررتُ بالباب القديم، وكان الوقت بعد الظهيرة والطقس بارد، والأرض جرداء ناشفة، والشمس ترسل أشعّتها الصفراء على الكون، فشعرت بميل شديد لا يقاوم لزيارة (مرتفعات وذرينغ) ورؤية هرتون الصغير. وسرعان ما وجدت نفسي ألبّي نداء قلبي إذ خشيت أن يكون قد أصاب الصغير مكروه، وكنت كلّما اقتربت من البيت ازدادت هواجسي، ولمّا لاح لي من بعيد أخذت أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي. واقتربتُ من البيت فأبصرت أوّل ما أبصرت هرتون وهو يجلس وراء القضبان الحديد، كان كما هو لم يتغيّر كثيراً عن الحالة التي تركته عليها قبل عشرة أشهر.

ونسيت حالاً مخاوفي الجنونيّة وقلت: «ليحفظك الله يا عزيزي هرتون، إنّني نيلي، نيلي مربّيتك».

تراجع إلى الوراء والتقط حجراً من الأرض. أدركت عند ذلك أنّه لم يعد يتذكّرني فأضفتُ قائلة: «لقد أتيت لرؤية والدك يا هرتون».

فرفع يده وقذفني بالحجر فأصاب قبّعتي، وأرسل من بين شفتيه الصغيرتين سيلاً من المسبّات واللعنات، ولقد حزنت لذلك أكثر ممّا غضبت. وأخذت حبّة من البرتقال كانت في جيبي وقدَّمتها له. تردّد بادئ الأمر ثم خطفها من يدي اعتقاداً منه أنّني كنت أعتزم خداعه.

سألته: «من علّمك هذه الكلمات البديعة؟ هل هو القسّيس؟».

أجاب: «لعنة الله على القسّيس وعليك، أعطني تلك البرتقالة». وأشار إلى البرتقالة الثانية التي كانت معي.

قلت له: «إذا أخبرتني ما اسم معلّمك فسأعطيك إيّاها».

أجاب: «إنّه أبي الشيطان».

قلت: «وماذا تتعلّم من أبيك؟».

قفز ليمسك بالبرتقالة، فرفعت يدي وسألته: «ماذا يعلّمك؟».

أجاب: «لا شيء. إنّ أبي لا يستطيع أن يأمرني أن أفعل شيئاً لأنّي أشتمه».

قلت: «آه! وهل الشيطان يعلّمك كيف تشتم أباك؟».

قال: «لا».

قلت: «من يعلّمك ذلك إذن؟».

أجاب: «هيثكلف».

سألته: «أتحبّ هيثكلف؟».

قال: «نعم».

ولمّا سألته عن الأسباب التي تجعله يحبّ هيثكلف قال: «إني

أعلم أنّه يسبّ أبي ويشتمه لأنّ أبي يشتمني وقد طلب هيثكلف منه أن يدعني أفعل ما أشاء».

وسألته: «أيعلّمك القسّيس القراءة والكتابة إذن؟».

أجاب: «كلا، وقال إنّه قد سمع بأنّ هيثكلف قد أبلغ القسِّيس أنّه إذا حضر إلى البيت فسيخنقه».

وضعت البرتقالة في يده وطلبت منه أن يقول لوالده إنّ امرأة تسمّى (نيلي دين) تنتظر رؤيته في مدخل الحديقة. دخل الصبي البيت ولكن بدلاً من أن يخرج هندلي خرج هيثكلف فأدرتُ وجهي حالاً، وأطلقت ساقي للريح ودون أن أتوقّف برهة واحدة وصلت إلى نقطة بعيدة تقع على الطريق العام، وشعرت هنا بأنّه قد كتب لي النجاة من ذلك الجنّي.

وزار هيثكلف (ثرشكروس غرانغ) مرّة أخرى وصادف أن كانت السيّدة الصغيرة في هذه المرّة تطعم بعض طيور الحمام في ساحة الدار. والمعروف أنّه لم يكن من عادته أن يوجّه للآنسة لنتون أيّ تحيّة أو سلام خاصّ، غير أنّ أوّل عمل قام به عندما رآها هذه المرّة أن ألقى نظرة سريعة على ساحة البيت ليرى ما إذا كان هنالك مَن يرقب مجيئه، ولمّا كنت أقف في نافذة المطبخ لم يراني، ثم تقدّم نحوها وقال لها شيئاً. ويظهر أنّها ارتبكت واضطربت من كلامه وحاولت أن تبتعد عنه فمنعها من ذلك وأمسكها من ذراعها. أدارت وجهها ويبدو أنّه قد وجّه إليها سؤالاً لم تشأ أن تردّ عليه. ونظر بعد ذلك نظرة أخرى خاطفة إلى البيت، ولمّا لم ير أحداً اعتقد أنّه لا أحد يراقبه فتجرّأ وضمّها إليه فصحتُ عندئذٍ: «يا يهوذا، الخائن! أيّها الخدّاع!».

قالت كاثرن وكانت تقف ورائي: «مَن هذا يا نيلي؟».

أجبت: «إنّه صديقك الخاسر! إنّه الوغد النذل. لقد أبصر بنا أنه آت إلينا». لم أستطع أن أمسك لساني عن صبّ جام غضبي عليه، ولكن كاثرن طلبت منّي أن أمسك لساني وهدّدت بطردي من المطبخ إذا ما تجرّأت على مواصلة تهجّمي عليه.

وقالت: «إذا سمعك الناس ظنّوك سيّدة البيت، يجب أن تعرفي مكانك! وأنت يا هيثكلف، ماذا دهاك حتى أثرت هذه الضجّة؟ لقد قلت لك إنّه ينبغي عليك أن تدع إيزابيلا وشأنها! أرجوك أن تستمع إلى قولي إلا إذا كنت قد مللت من الحضور إلى هنا وترغب في أن يوصد لنتون الباب في وجهك».

أجاب هيثكلف: «لا قدّر الله ذلك. أدعو الله أن يصبّره! إنّي كلّ يوم أزداد تعطّشاً وتلهّفاً للساعة التي أرسله فيها إلى السماء!».

أغلقت كاثرن الباب الداخلي وقالت: «صه! لا تثر غضبي، لماذا تجاهلت طلبي؟ هل اعترَضَتْك لغرض ما؟».

صاح غاضباً: «وماذا يهمّك من أمرها؟ إنّ لي الحق في أن أقبّلها، إذا هي شاءت ذلك، وأنّه لا يحقّ لك أن تعارضيني، إنّي لست زوجك، ويجب عليك ألا تغاري عليّ!».

قالت السيّدة: «إنّي لا أغار عليك، اغرب عن وجهي! إذا كنت تحبّ إيزابيلا فاقترن بها ولكن هل تحبّها حقّاً؟ قل الصدق يا هيثكلف! لماذا لا تُجِبْ. إنّي متأكّدة بأنّك لا تحبّها!».

عندئذٍ خاطبت كاثرن قائلة: «أتعتقدين أنّ مستر لنتون سيوافق على زواج أخته بمثل هذا الرجل؟!».

أجابت: «إنّه لا يستطيع أن يتزوّجها قبل موافقة مستر لنتون».

قال هيثكلف: «إنّي أستطيع الزواج بدون موافقته، وأمّا أنت يا

كاثرن فأريد أن أقول لك إنّك تعلمين أنّ معاملتك لي كانت معاملة قاسية وشديدة فإذا كنت تعتقدين أنّه يمكن أن ترضيني بالكلمات المعسولة فأنت غبيّة، وإذا كنت تظنّين أنّني لن أثأر لنفسي منك فتيقّني أنّك مخطئة، وأشكرك على ما قمت به من إفشاء سرّ ابنة عمّك وأقسم بالله سأستغل هذا السرّ إلى أبعد حدود الاستغلال، ولن أعيرك أيّ اهتمام».

قالت السيّد لنتون في استغراب ودهشة: «ما هذا التغيّر في أخلاقك؟ أتريد أن تأخذ بثأرك منّي أيّها الناكر للجميل؟!».

قال هيثكلف بلهجة أشدّ شدّة من لهجته السابقة: «إنّي لا أحاول أن أثأر منك، إنّ ذلك ليس هدفي. إنّ الإنسان المستبدّ الظالم يفعل بعبيده ما يشاء، فلا يستطيعون أن يردّوا الظلم عن أنفسهم. إنّي أرحّب بتعذيبك لي حتى الموت، إذا كان في ذلك متعة لك، ولكن دعيني أمتّع نفسي قليلاً على هذا النحو، واحفظي لي كرامتي. ولو جال في خاطري يوماً ما أنّك ستطلبين منّي فعلاً أن أتزوّج إيزابيلا لدققتُ عنقي».

قالت كاثرن: «لقد بدأت بعد عودتك أتمتّع بالهدوء والأمان، ولكن لم يهدأ لك بال عندما رأيتني على هذه الحال، وقرّرت إثارة الاضطراب. فتنازع مع إدغار إذا شئت يا هيثكلف واخدع أخته، فإنّك بذلك تصيب الهدف وتثأر لنفسك منّي».

وانتهى الحديث بينهما. وجلست السيّدة لنتون إلى جانب الموقد حزينة كئيبة بينما وقف هو في الجهة المقابلة مكتوف الذراعين يسرح في أفكاره الشرّيرة. تركتهما على هذه الحال لأبحث عن سيّدي الذي كان يتساءل عن سبب بقاء كاثرن في الطابق السفلي طوال هذه المدّة.

وما أن دخلت غرفته حتى بادرني بالسؤال قائلاً: «ألن، هل رأيت سيّدتك؟».

أجبت: «نعم إنّها في المطبخ يا سيّدي! لقد استاءت كثيراً من سلوك مستر هيثكلف، وأعتقد أنّ الوقت قد حان لتحديد زياراته وتنظيمها على أسس أخرى. إنّ كثرة اللين تجلب الضرر وقد حدث اليوم ما حدث». ورويت له كلّ ما جرى بين هيثكلف وإليزابيت وما جرى من خلاف بين سيّدتي وبينه في هذا الشأن. ولقد وجد مستر لنتون مشقّة وعناء في الاستماع إلى النهاية وقد تبيّن لي من كلماته الأولى أنّه لم يُعفِ زوجته من مسؤوليّة هذا الحادث.

فقال: «إنّ هذا شيء غير محتمل! إنّه من المخزي أن نعتبره صديقاً لها وترغمني على استقباله في بيتي! ادعي اثنين من الرجال من القاعة يا ألن! إنّه ينبغي على كاثرن ألا تستمرّ في مجادلة هذا الوغد الدنيء، لقد أطلقت لها العنان كثيراً».

وهبط إلى الطابق الأسفل وأمر الخادمين أن ينتظراه في الممرّ. وتوجّه خلفي إلى المطبخ. كانت كاثرن وهيثكلف قد استأنفا حديثهما وكانت السيّدة توجّه إليه أعنف اللوم من جديد، بينما كان هيثكلف قد اتّجه نحو النافذة ولمّا رأى سيّدي أشار إليها عندئذٍ أن تصمت، وسرعان ما فعلت ذلك عندما تبيّن لها لماذا طلب منها ذلك.

وقال لنتون مخاطباً كاثرن: «ما هذا؟ ما الذي يحملك على البقاء هنا بعد الكلمات القاسية التي خاطبك بها؟ أعتقد بأنّك اعتدت على سماع هذه الكلمات، وعلى سماع شتائمه وإهاناته، وربّما تعتقدين أنّني سأعتاد على تحمّل ذلك أيضاً!».

قالت السيّدة لنتون في لهجة تنمّ عن عدم مبالاتها به وعن

استهزائها بقلقه: «هل كنت تستمع إليها من وراء الباب يا إدغار؟» وضحك هيثكلف لكي يلفت على ما يبدو انتباه مستر لنتون إليه وقد نجح في ذلك. فقد قال له مستر لنتون بهدوء: «لقد تحمّلتك كثيراً يا سيّدي، لا لأنّي كنت أجهل أخلاقك السيّئة المنحطّة ولكن لأنّ كاثرن تحبّ المحافظة على صداقتك، إنّ وجودك بين ظهرانينا يفسد كلّ نفس طيّبة طاهرة، ولهذا السبب وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه، فإنّي سأمنع دخولك إلى هذا البيت، وأطلب منك أن تغادرنا حالاً، وإذا ما تأخّرت أكثر من ثلاث دقائق اعتباراً من هذه اللحظة فإنّي سأعتبر تأخيرك إهانة ومسبّة لنا».

نظر هيثكلف إلى مستر لنتون في عين ملؤها الهزء والسخرية وقال مخاطباً كاثرن: «إن حَمَلك يهدّدني كالأبطال! إنّي أخشى أن أحطّم جمجمته تحت قدمي، إنّي أشهد الله يا مستر لنتون على أنّي حزين جدّاً لأنّك أضعف من أن تتلقّى ضرباتي».

تطلّع سيّدي إلى الممرّ وأشار إليّ أن أدعو الرجال فأطعت أوامره، ولكنّ السيّدة لنتون خشيت مغبّة مناداتهم فلحقت بي، وما كدت أن أرفع صوتي لندائهم حتى سحبتني إلى الوراء وأغلقت الباب خلفنا. وقالت مخاطبة زوجها: «إذا لا توجد لديك الشجاعة الكافية اعتذر له، لقد كنت أدافع عنك وكم أتمنّى الآن أن يضربك هيثكلف ويؤلمك لأنّك ظننت بي السوء».

حاول إدغار أن يستولي على مفتاح الباب من يد كاثرن فلم يتمكّن إذ ألقت به إلى النار، وأخذت إدغار رعشة قويّة، وامتقع لونه، وشحب وجهه شحوب الأموات واتّكأ على ظهر أحد المقاعد وغطّى وجهه براحتيه.

وقال هيثكلف: «إنّي أتمنّى لك السعادة على هذا الدم البارد

وهذا الجبن يا كاثي. وأهنئك على حسن اختيارك. إنّي لا أتنازل أن أصفعه بيدي، وسأضربه بقدمي. هل هو ينتحب أو سيغمى عليه من الخوف؟».

واقترب هيثكلف من لنتون ودفع بيده الكرسي التي كان يجلس عليها، فما كان من سيّدي إلا أن انتصب واقفاً بسرعة ولكم هيثكلف ضربة قويّة على حنجرته، أوقفت تنفّسه برهة، وخرج مستر لنتون بعد ذلك من الباب الخلفي إلى ساحة البيت ومن ثم توجّه إلى المدخل الرئيس.

قالت كاثرن مخاطبة هيثكلف: «هيّا غادر البيت حالاً - إنّه سيعود مسلّحاً بمسدّسين يرافقه ستّة من أعوانه. أسرع يا هيثكلف، وغادر هذا المكان».

صاح مهدّداً: «هل تعتقدين أنّني سأذهب والنار ما زالت تشتعل في حنجرتي من أثر الضربة. كلا إنّي لن أذهب وحقّ الحجيم! إنّي سأحطّم أضلاعه كما يحطّم الإنسان الجوز العفنة قبل أن أغادر البيت. وإذا لم أستطع أن أطرحه أرضاً الآن فسأقتله يوماً ما».

تدخّلت في الأمر وقلت كذباً: «إنّ إدغار لا يعتزم العودة إلى هنا. إنّ سائق العربة والرجلين يعملان في الحديقة يستعدون لملاقاتك فأسرع قبل أن يعترضوا طريقك، إنّ كلّ واحد منهم يحمل هراوة غليظة في انتظار أوامر سيّدهم».

فكّر هيثكلف قليلاً، وقرّر أن يتجنّب الاصطدام بثلاثة أشخاص معاً، أمسك بقضيب الحديد الذي نحرّك فيه نار الموقد وكسر به قفل الباب الداخلي وفرّ من المطبخ.

كانت السيّدة لنتون في حالة اضطرب شديد وقد أمرتني أن

أرافقها إلى الطابق العلوي. لم تكن تعلم الدور الذي قمت به في إثارة هذا الحادث، وقد عمدتُ إلى كتمان ذلك عنها.

ولمّا وصلنا إلى الطابق العلوي ألقت بنفسها على الأريكة وقالت: «إنّي مضطربة، مرتبكة، إنّي أشعر بأنّ آلافاً من المطارق الحديد تنهال على رأسي! أخبري إيزابيلا ألا تقترب منّي، إنّ كلّ ما حدث كان بسببها، وإذا ما حاولت هي أو أيّ شخص آخر أن يزيد من غضبي في الوقت الحاضر، فسأفقد صوابي. وأخبري إدغار يا نيلي إذا رأيته مرّة أخرى هذه الليلة بأنّي في خطر وأنّي سأقع فريسة مرض قاتل - وكم أتمنّى أن يتحقّق ذلك - لقد أغضبني جدّاً وأساء إليّ كثيراً! إنّي أريد أن أخيفه بهذه الكلمات حتى لا يأتي إلى غرفتي ويوجّه إليّ سلسلة من الإهانات أو يرفع عقيرته بالشكوى. إنّي متأكّدة بأنّي لن أتحمّل ذلك وسأردّ له الصاع صاعين ولا أحد يعلم سوى الله ماذا ستكون النهاية! إنّك تعلمين يا نيلي أنّ اللوم لا يقع عليّ في هذا الموضوع، ما الذي حمله على أن يستمع إلى كلامنا؟ إنّه لو لم ينصت إلى حديثنا لما حدث كلّ ذلك».

لم أشأ أن أقلق بال زوجها، كما قالت، وأضاعف من اضطرابه لإرضاء أنانيّتها. لذلك لم أبلغه شيئاً، وقد رأيته يتّجه نحو غرفة الجلوس فتواريت عن نظره لأعرف ما إذا كان سيستأنف الخصام مع كاثرن أم لا.

ولقد حدث ما كنت أتوقّعه. بدأ سيّدي الحديث وقال بصوت مشوب بالحزن الشديد: «ابقي حيث أنت يا كاثرن. إنّي لن أمكث طويلاً، إنّي لم أحضر لأتجادل معك أو أطلب عفوك ولكن جئت فقط لأعلم ما إذا كنت تعتزمين بعد الذي حدث هذا المساء أن تستمرّي في مودّتك له -».

قاطعته كاثرن وضربت بقدمها الأرض وقالت: «أوه، أرجوك ألّا ندخل في الموضوع من جديد الآن رحمة بي، وشفقة عليّ. إنّ عروقك لا يسري فيها سوى الماء البارد ولكن عروقي تغلي كالمرجل ومنظر برودك يثيرني إلى حدّ كبير جدّاً».

قال مستر لنتون: «إذا أردت أن تتخلّصي منّي أجيبي عن سؤالي. يجب أن تجيبي عنه واعلمي أنّ العنف لا يخيفني. لقد تبيّن لي أنّ باستطاعتك أن تمسكي نفسك وتسيطري عليها إذا شئت. هل تودّين أن تتخلّي عن هيثكلف بعد الآن أو ترغبين في أن تتخلّي عنّي؟! إنّه يستحيل عليك أن تكوني صديقتي وصديقته في الوقت نفسه وإنّي أودّ أن أعلم بالتأكيد أيّاً منّا تختارين».

صاحت كاثرن في هياج وغضب شديدين: «إنّي أطلب منك أن تدعني وحدي! ألا ترى أنّي لا أستطيع أن أقف على قدمَيّ؟ إدغار، اتركني، اتركني لوحدي!».

وقرعت الجرس قرعاً شديداً فذهبت إليها فوجدتها ملقاة على الأرض وقد اتّكأت برأسها على ذراع الأريكة وهي تقرض أسنانها حتى يخيّل إليك أنّها تكاد أن تطحنها. ورأيت مستر لنتون ينظر إليها في خوف ورعب شديدين وأمرني أن أحضر قليلاً من الماء. لم تكن سيّدتي قادرة على الكلام. أحضرت كوباً مليئاً بالماء، ولمّا لم تكن قادرة على شربه فقد صببته على وجهها. وبعد بضعة دقائق تصلّبت أعضاؤها وشحب لون وجهها حتى بدا كوجوه الموتى فامتلأ قلب لنتون فزعاً.

لم أكن أريد له أن يستسلم، فقلت، مع أنّي كنت أشعر بخوف يسيطر على قلبي: «إنّ المسألة بسيطة وليس هناك ما يدعو إلى الخوف».

أجاب وهو يرتجف: «إنّ الدم يسيل على شفتيها».

قلت: «لا بأس من ذلك»! وأخبرته أنّها كانت قد قرّرت قبل مجيئه إلى غرفتها أن تثير أمامه نوبة غضب شديدة. وتحدّثت بصوت عالٍ دون أن أنتبه إلى وجودها فسمعتني دون ريب لأنّها نهضت وتطلّعت حولها ثم اندفعت خارج الغرفة. أمرني سيّدي أن أتبعها ففعلت حتى وصلت إلى غرفة نومها وهنا منعتني من الدخول وأغلقت الباب خلفها.

ولمّا لم تنزل إلى غرفة الطعام في صباح اليوم التالي لتناول فطورها سألتها من خلف الباب ما إذا كانت تريد أن يرسل إليها بعض الطعام فقالت لا، وقد كرّرت عليها السؤال نفسه في الظهيرة وعند العشاء فتلقّيت الجواب نفسه. أمّا مستر لنتون فأخذ يقضي معظم وقته في المكتبة ولم يسأل عن حالة زوجه. وقد اجتمع بإيزابيلا مدّة ساعة حاول خلالها أن يحصل منها على بعض المعلومات عن حادث هيثكلف ولكنّه لم يستطع الحصول على شيء، من أجوبتها المقتضبة المبهمة ووجد نفسه مرغماً على ترك الموضوع جانباً مرّة أخرى.

12

بينما كانت الآنسة لنتون تحوم في الحديقة حائرة واجمة، تبلّل وجنتيها بالدموع وبينما كان أخوها قابعاً بين الكتب التي لم تمسّها أيد إنسان من قبل، كنت أتوقّع أن تخرج كاثرن من عزلتها لتطلب السماح وتطلب الصلح بعد الخصام. كانت كاثرن قد امتنعت طوال الأيّام الثلاثة الأخيرة عن تناول الطعام اعتقاداً منها على ما يظهر أن إدغار سيستاء جدّاً من عدم وجودها على المائدة وأنّ الكبرياء وحده الذي يمنعه من أن يلقي بنفسه تحت قدميها، بينما واظبت أنا على القيام بواجباتي البيتيّة، دون أن ألتفت إلى أحزان الآنسة الصغيرة أو إلى احتجاجات سيّدتي، أو إلى تأوّهات سيّدي الذي كان يتعطّش لسماع اسم زوجته بعد أن لم يستطع سماع صوتها. وتوقّعت أن تسوّى الأمور كما أبتغي وأرضى ويتّفق الزوجان في النهاية، وهكذا مضت ثلاثة أيّام كاملة.

فتحت السيّدة لنتون في اليوم الثالث باب غرفتها، ولمّا كانت قد استنفدت كمّيّة المياه الموجودة في غرفتها فقد طلبت كمّيّة جديدة، ووعاء فيه قليل من الحساء وأعربت لي عن اعتقادها بأنّها تقترب الآن من نهايتها. وقد صرّحت لي بهذه الكلمات، حتى تصل إلى

مسمع إدغار، غير أنّي لم أكن أعتقد بصحّة قولها فاحتفظت بهذه الكلمات لنفسي وأحضرت لها كأساً من الشاي وصحناً من الحساء. أتت على الحساء بنهم، وشربت الشاي بقابليّة كذلك ثم عادت وألقت برأسها على وسادتها وأخذت تئنّ وتتألّم. وقالت: «أوه، إنّني سأموت، لأنّه لا أحد يهتمّ بأمري. يا ليتني لم آكل شيئاً».

وصمتت برهة ثم قالت: «كلا، إنّني لن أموت، إنّه سيبتهج لموتي، إنّه لا يحبّني أبداً ولن يشعر بفقداني».

سألتها وأنا ما زلت أحتفظ بهدوئي على الرّغم من أنّي لاحظت بوضوح اختلاف وجهها وشحوب لونها وتبدّل هيئتها التي أصبحت كهيئة الأشباح: «هل تريدين شيئاً آخر يا سيّدتي؟».

أجابت: «ماذا يفعل ذلك البليد، فاقد الشعور، هل أغمي عليه أو مات؟».

قلت: «إذا كنت تقصدين مستر لنتون فإنّه بخير وإنّه دائماً بين كتبه بعد أن لم يعد له أنيس غيرها».

كان ينبغي عليّ ألا أتفوّه بمثل هذه الكلمات لسوء حالتها النفسيّة، إذ صاحت مرتبكة مضطربة: «بين كتبه! وأنا أموت، إنّني على حافّة القبر! يا إلهي، ألا يعلم كم تبدّلت عن ذي قبل؟» وأردفت تقول وهي تنظر إلى نفسها في المرآة المعلّقة على الحائط المقابل «هل هذه كاثرن لنتون؟ إنّه يعتقد بأنّي أقوم بدور في إحدى التمثيليّات. هلّا أخبرته يا نيلي عن حالتي؟ وعندما أتيقّن من حقيقة شعوره نحوي سأختار أحد هذين الأمرين، وهما إمّا أن أموت جوعاً أو أستردّ قواي وأغادر هذه البلاد. هل توخّيتِ الصدق في كلامك عنه الآن؟ أحقّاً أنّه غير مبالٍ بالمرّة في أمري ومصيري؟».

قلت: «لا يا سيّدتي، إنّ سيّدي ليس لديه أيّة فكرة عن سوء حالتك الصحّيّة وهو لم يكن يتوقّع أن تقتلي نفسك جوعاً».

قالت: «ألا تعتقدين أنّي أستطيع ذلك؟ هلّا أخبرته أنّي سأفعل ذلك؟ أقنعيه وقولي له إنّك متأكّدة بأنّي سأقتل نفسي».

قلت: «لقد نسيت يا سيّدتي بأنّك قد أكلت هذا المساء بشهيّة، وستشعرين في الصباح بتأثير الطعام وتحسّن صحّتك».

قاطعتني قائلة: «لو كنت أعلم أنّ قتلي لنفسي سيقتله لقتلتُ نفسي في الحال، ويل لهذه الليالي الثلاث الماضيات، إنّه لم يغمض لي جفن فيها ولم تنم لي عين، لقد تعذّبت كثيراً، وعشت كأنّي في عالم مسحور، يا نيلي! لقد بدأت أتخيّل أنّك لا تحبّينني. ما أغرب هذه الخيالات! تصوّرت أنّ الجميع أصبحوا لي أعداء خلال بضع ساعات. ما أقسى أن يواجه الإنسان الموت وهو محاط بهذه الوجوه الباردة! لقد رأيت إيزابيلا تخشى دخول الغرفة حتى لا تشاهد حمل نعشي من هنا إلى الدار الآخرة لأنّ ذلك يملأ قلبها فزعاً ورعباً، ورأيت إدغار يقف بخشوع في انتظار نهايتي ثم يصلّي لله لأنّه أعاد الأمن إلى بيته ويعود إلى كتبه! ماذا يفعل بحقّ السماء بين كتبه وفي الوقت الذي أموت فيه؟».

لم تستطع أن تتحمّل الهواجس التي أثارتها فكرة اهتمام المستر لنتون بالكتب والفلسفة، فازداد هياجها واضطرابها فمزّقت الوسادة بأسنانها ثم نهضت عن السرير وهي تتميّز من الغيظ ورجتني أن أفتح النافذة. لقد كنّا في منتصف الشتاء. وكانت الرياح تهبّ بشدّة من الجهة الشماليّة الشرقيّة فعارضتُ فتح النافذة. وأخذت التعابير التي ترتسم على محياها والتغييرات في طباعها تعيد إلى ذاكرتي مرضها السابق ونُصْح الطبيب لنا بألّا نعارضها ونشاكسها. وفي لحظة واحدة

تحوّلت أحوالها وخارت قواها فاتّكأت على ذراعي وأخذت تتسلّى في سحب الريش الموجود في الوسادة وتتلهّى في ترتيبها بأشكال مختلفة على ملاءة السرير. ثم أخذت تحدّث نفسها قائلة: «هذه ريشة إوزّة، هذه ريشة بطّة وتلك ريشة حمامة. آه لقد وضعوا ريش الحمام في الوسادات - لا عجب إذا متّ إذن!».

قاطعتها قائلة: «أعطني الوسادة» وسحبتها من يدها لأنّها كانت تفرغ محتوياتها وتلقي بها على الأرض.

وأردفت قائلة: «استلقي على ظهرك واغلقي عينيك، إنّك تهذين!» وأخذتُ أجمع الريش الملقى هنا وهناك.

وقالت وكأنّها تتحدّث في حلم: «إنّي أراك يا نيلي في عيني امرأة عجوز، لك شعر شايب، وظهر منحني. إنّي أعلم أنّك لست عجوز الآن ولكنّك ستصبحين كذلك بعد خمسين عاماً، إنّني لا أهذي، إنّك مخطئة. إنّي مدركة أنّ الوقت الآن ليل وأنّ هناك شمعتين على الطاولة تلقيان نورهما على الشمعدان».

سألتها: «أين الشمعدان إنّك تهذين في نومك».

أجابت: «إنّه على الطاولة كالعادة».

قلت: «لا يوجد شمعدان في الغرفة ولم يوجد من قبل». وعدت إلى الجلوس وأنا أراقبها.

وسألتني وهي تحملق في المرآة: «هل ترين هذا الوجه؟» لم أستطع أن أقنعها أنّ الذي ينعكس على المرآة هو وجهها، ونهضتُ وغطّيت المرآة بالشال. غير أنّها قالت: «إنّه ما زال خلف الشال، ها إنّه تحرّك، آمل ألا يخرج عندما تغادرين الغرفة! أوه! يا نيلي إنّ الغرفة مسحورة! إنّي أخاف أن أظلّ وحدي!».

أمسكت يدها ورجوتها أن تهدأ وقلت لها إنّه لا يوجد أحد

سوانا في الغرفة وإنّ الذي تراه في المرآة ليس إلا السيّدة لنتون نفسها.

أجابت: «إنّه نفسي! هل هذا حقّاً، إنّه شيء مخيف!».

رفعت ثيابها فوضعتها فوق عينيها، وحاولت أثناء ذلك أن أتسلّل إلى الباب لمناداة زوجها ولكنّها أمرتني بالرجوع بصوت عالٍ. وسقط الشال عن المرآة.

قلت: «لماذا دعوتني، ماذا دهاك؟ إنّها المرآة، إنّك تشاهدين نفسك فيها، وها أنا أيضاً فيها أقف إلى جانبك».

أمسكت بي وهي ترتجف من الخوف، ثم أخذ خوفها يزول تدريجيّاً وبدا ذلك على ملامحها. وقالت: «أوه يا عزيزتي! لقد تخيّلت نفسي في البيت، لقد ظننت نفسي في غرفتي في مرتفعات وذرينغ. أعتقد بأنّ ضعف جسمي سبّب بلبلة أفكاري، وارتباك عقلي، وجعلني أصرخ بدون وعي. لا تقولي شيئاً ولكن ابقي إلى جانبي. إنّي أخشى النوم لأنّ الأحلام تخيفني».

قلت: «إذا نمت نوماً عميقاً فستشعرين براحة يا سيّدتي وآمل في أن يلقّنك هذا العذاب درساً لا تنسيه عن الصوم والامتناع عن تناول الطعام مرّة أخرى».

ومضت تقول بحسرة ومرارة وهي تفرك راحتيها: «كم أتمنّى أن أكون الآن نائمة في سريري في بيتنا القديم والريح تعصف بأشجار الصنوبر القريبة من النافذة، دعيني أتنفّس نسمة واحدة من تلك الريح!».

فتحت النافذة بضع ثوانٍ لأهدّئ من روعها فاندفعت الريح بسرعة داخل الغرفة، ثم أغلقتُها وعدتُ إلى مكاني. كانت لم تزل مضطجعة في سريرها وقد بلّلت الدموع وجهها.

وسألتني فجأة: «كم مضى عليّ من الوقت وأنا وحيدة في الغرفة منذ أن أغلقت عليّ بابها آخر مرّة؟».

أجبتُ: «كان ذلك مساء الاثنين الماضي والليلة هي ليلة الخميس أو بالأحرى إنّ الوقت الآن هو صباح الجمعة».

قالت في استغراب: «ماذا؟ إنّه يوم الجمعة من الأسبوع نفسه، إنّه لم يمضِ سوى وقت قصير!».

قلت: «إنّه وقت طويل إذا لم يأكل المرء فيه شيئاً سوى الماء البارد».

قالت متمتمة: «حسناً لقد بدا لي الوقت طويلاً مملّاً، إنّي أذكر أنّك كنت في غرفة الاستقبال عندما تخاصم إدغار وهيثكلف، وأذكر أنّ إدغار كان قاسياً، وأنّي فررت إلى غرفتي يائسة. وحالما أغلقت الباب ورائي اسودّت الدنيا في عيني وأظلمت وسقطت على الأرض فاقدة الوعي. إنّي لم أستطع أن أُفهِم إدغار بأنّه ستنتابني نوبة من الغضب أو سأصاب بالجنون إذا أصرّ على تعذيبي. لم أكن أستطيع أن أسيطر على لساني أو عقلي وقبل أن أستيقظ من إغمائي وأتمكّن من استرداد قواي كان الفجر قد طلع. وظننت نفسي أنّي في البيت، وأنّ قلبي يخزّه حزن شديد لا أتذكّر مصدره. ورأيت نفسي طفلة، وأنّ والدي قد دُفن في تلك اللحظة وفرّق هندلي بيني وبين هيثكلف، فرأيت نفسي وحيدة لأوّل مرّة. هزّي برأسك كما شئت يا نيلي، كان ينبغي عليك أن تخبري إدغار عن حالتي، وترغميه على ألّا يثيرني! أوه، إنّي أشعر بأنّ النار تشتعل في جسدي! كم أتمنّى أن أخرج إلى الهواء الطلق، وكم أتمنّى أن أعود مرّة أخرى طفلة، حرّة طليقة. لماذا تغيّرت كثيراً؟ لماذا يتدفّق الدم في عروقي ويغلي لمجرّد

سماعي بضع كلمات؟ افتحي النافذة مرّة أخرى على مصراعيها! أسرعي، لماذا لا تتحرّكي!».

أجبت: «لأنّي لا أريد أن تجمدي من البرد».

قالت بصوت حزين: «إنّك لا تودّين أن أظلّ على قيد الحياة، وعلى كلّ فإنّي أستطيع أن أفتح النافذة بنفسي».

وغادرت سريرها قبل أن أتمكّن من منعها من مغادرته وتوجّهت إلى النافذة ففتحتها وظلّت تقف أمامها غير مبالية بالهواء القارس الذي هبّ على جسدها كأنّه السيوف الحادّة. رجوتها أن تغلق النافذة وأخيراً حاولتُ إرغامها على العودة إلى سريرها. فتبيّن لي حالاً أنّ قواها تفوق قواي صلابة، كانت الليلة غير مقمرة والظلام يخيّم على كلّ شيء، ولم يكن هناك أيّ نور ينبعث من أيّ منزل قريباً كان أو بعيداً، حتى أنوار مرتفعات وذربنغ لم تكن تُرى بالمرّة، إلا أنّ كاثرن كانت تؤكّد رؤية بريقها.

وصاحت بحماس: «انظري! ها هي غرفتي مضاءة بالشموع، والأشجار تميل وتترنّح أمامها، وشموع أخرى تضيء غرفة يوسف. إنّ يوسف يظلّ متيقّظاً حتى ساعة متأخّرة من الليل، أليس كذلك يا نيلي؟ إنّه ينتظر حتى أعود إلى البيت وعندئذٍ يوصد الباب خلفي. حسناً إنّه سينتظر فترة أخرى. إنّها رحلة قاسية، يجب علينا أن نمرّ (بغمرتون كيرك) في طريقنا إلى هناك! لقد كنت وهيثكلف نُخيف بعضنا من الوقوف بين القبور وندعو الأرواح إلى أن تخرج إلينا. ولكن إذا ما تجرّأت أنا الآن يا هيثكلف فهل تخاطر معي؟ إنّي لا أودّ أن أستلقي هناك وحدي، إنّهم قد يدفنوني على عمق اثني عشر قدماً ولكنّي لن أستريح حتى تكون معي».

وصمتت برهة ثم استأنفت حديثها وقد ارتسمت على ثغرها

ابتسامة غريبة: «إنّه يفكّر في الأمر - إنّه يودّ منّي أن أذهب إليه، كن مطمئناً، إنّك دائماً تتبعني!».

وبينما كنت أفكّر في الحصول على شيء لأدثّرها فيه، سمعت قرقعة أكرة الباب، ودخل مستر لنتون. كان يمرّ في الدهليز في طريقه عائداً من المكتبة فسمِعَنا نتحدّث، وقد جذبه حبّ الاستطلاع أو الخوف لمعرفة سبب هذا الحديث في مثل هذه الساعة المتأخّرة من الليل.

صحت قائلة: «سيّدي! إنّ سيّدتي المسكينة مريضة وإنّي لا أستطيع أن أهدّئ من روعها أبداً. أرجوك أن تأتي وتحاول إقناعها لتذهب إلى سريرها. انسَ غضبك، إنها لا تودّ أن تستمع إلى نصح أيّ مخلوق».

أسرع نحونا وقال متسائلاً: «هل كاثرن مريضة؟ أغلقي النافذة يا ألن! كاثرن! ماذا؟».

وعُقِد لسانه، عندما شاهد ذبولها ونحولها، وضعفها ووقف جامداً ينقل نظره بيني وبينها في دهشة واستغراب مَشُوب بالفزع.

وأردفتُ أقول: «إنّها لم تأكل شيئاً، ولم تسمح لأحد منّا بالدخول إلى غرفتها حتى هذا المساء وهكذا لم نستطع إبلاغك شيئاً عن حالتها، لأنّنا لم نكن نعلم عنها شيئاً. ولكن لا تخف إنّ المسألة بسيطة، لا شيء ذي بال».

وشعرت بأنّي قد شرحت الموقف شرحاً غير صحيح. قطّب ربّ البيت جبينه وقال: «لا شيء ذي بال، أليس كذلك يا ألن دين؟ ينبغي أن توضحي لي لماذا أخفيت عنّي هذا الأمر، أليس كذلك يا ألن دين؟ ينبغي أن توضحي لي لماذا أخفيت عنّي هذا الأمر» وأخذ زوجه بين ذراعيه ونظر إليها حزيناً.

لم تعرفه باديْ الأمر، لكن بعد أن ركّزت انتباهها تدريجيّاً واتّضح لها من يحملها قالت في غضب: «آه! هل أتيت يا إدغار لنتون؟ إنّك من الأشياء التي يجدها المرء عندما لا يحتاج إليها، وإذا ما احتاج إليها لا يجدها! أظنّ أنّه ينبغي علينا أن نستعدّ لمواجهة كثيرٍ من الأحزان - إنّي أرى - كذلك - ولكن لن يَحُول شيء بيني وبين بيتي الضيّق هناك حيث الراحة وسأذهب إليه قبل أن يأتي الربيع! إنّه لن يكون ذلك المكان بين عائلة لنتون ولكن في الهواء الطلق وستكون في حلّ من أمرك فإمّا أن تذهب إلى عائلتك أو تأتي إلي!».

قال سيّدي: «كاثرن، ماذا صنعتِ بنفسك؟ ألم أعد شيئاً بالنسبة لك؟ هل تحبّين ذلك الشقي هيثكلف؟».

صاحت: «صه! صه! إنّك إن ذكرت هذا الاسم مرّة أخرى ألقيت بنفسي من النافذة فينتهي كلّ شيء. إنّي لا أريدك يا إدغار، عُدْ إلى كتبك، إنّي سعيدة لأنّك وجدت السلوى بين جدران المكتبة».

تدخّلت في الموضوع وقلت: «إنّها تهذي، لقد كانت تذهب شططاً في كلامها طوال هذا المساء، وينبغي علينا أن نظلّ إلى جوارها لنعتني بها، ويجب علينا كذلك أن نحاول تجنّب إغضابها».

أجاب مستر لنتون: «إنّي لن أطلب منك نصيحة أخرى، لقد كنت تعلمين طباع سيّدتك ونفسيّتها وقد شجّعتني على معاكستها ولم تخبريني شيئاً عنها خلال الأيّام الثلاثة الأخيرة! إنّها لو مرضت عدّة أشهر لما تغيّرت حالها مثل هذا التغيير!».

وابتدأتُ أدافع عن نفسي وقلت: «لقد كنت أعلم فعلاً أنّ طبع السيّدة لنتون عنيف، وجارف، ولكنّي لم أكن أعلم أنّك تودّ أن

تشجّعها على الاحتفاظ بهذا الطبع الحادّ أو لم أكن أعلم أنّه يجب عليّ أن أجاريها وأغمض عيني عن أعمال مستر هيثكلف. لقد قمت بواجب الخادمة المخلص عندما أخبرتك قصّة هيثكلف، وإنّي أتقاضى منك أجراً على عملي كخادمة مخلصة! لا بأس، لقد علّمني هذا الحادث أن أصبح حذرة في المرّة القادمة. ويجدر بك في المرّة التالية أن تستقي بنفسك الأخبار عمّا يدور في البيت!».

أجاب: «إذا أخبرتني أيّة قصّة جديدة في المستقبل فستعتبرين نفسك منفصلة عن خدمتي».

قلت: «هل كنت تفضّل ألا تسمع شيئاً يا مستر لنتون؟ وهل تسمح لهيثكلف أن يدخل بيتك في أيّة فرصة تسنح له أثناء غيابك ليسمّم أفكار شقيقتك ويؤلّبها عليك؟».

وعلى الرّغم من شدّة اضطراب كاثرن، فإنّها وعت ما يدور بيننا من حديث فقالت: «آه، لقد قامت نيلي بدور الخائن، إنّ نيلي عدوّتي المتخفّية في ثوب صديق، إنّك لماكرة! إنّك تعملين لإيذائنا! سأجعلك تندمين على عملك هذا!».

اهتاجت سيّدتي وغضبت كثيراً وحاولت أن تفلت من ذراعي زوجها. فما كان منّي إلا أن غادرت الغرفة، وقد عزمت على أن أدعو الطبيب.

هبطت إلى الحديقة وبينما كنت أعبرها إلى الطريق العامّ لمحت شيئاً أبيض يتحرّك بلا انتظام فتوقّفت برهة لأعرف ماهية ذلك الشيء وإذا بي أرى كلب الآنسة إيزابيلا الصغير معلّقاً من رقبته بمنديل أبيض ويكاد أن يختنق وفي الحال أطلقتُ سراح الحيوان المسكين. لقد رأيت الكلب في المساء يلحق بسيّدته إلى غرفة نومها فما الذي يا ترى أخرجه من الغرفة خلال الليل وربطه بالمنديل!؟ وبينما أنا أفكّر

في الأمر إذ بي أسمع وقع حوافر خيل مسرعة على مقربة منّي فنسيت حادث الكلب لكثرة ما كان يتزاحم في رأسي من الأفكار وأسرعتُ نحو مصدر الصوت لأعرف الشخص الذي يعبر الطريق في مثل هذه الساعة المبكّرة.

ومن حسن الظنّ كان القادم مستر كينيث، وقد كان في طريقه لزيارة مريض في القرية، وعندما أخبرته بمرض كاثرن توجّه فوراً إلى البيت معي لزيارتها. لقد كان رجلاً بسيطاً ساذجاً، فلم يتردّد أن يعرب عن مخاوفه وعن شكّه في أن تتمكّن من النجاة من هذه الصدمة الثانية، إلا إذا رضخت إلى تعليماته وإرشاداته أكثر ممّا رضخت في المرّة السابقة.

وقال: «نيلي دين، ماذا يجري الآن في غرانغ؟ إنّ فتاة قويّة القلب مثل كاثرن لا تمرض لحادث بسيط، ماذا جرى لها؟».

أجبت: «إنّ سيّدي سيخبرك كلّ شيء، لقد ابتدأ الحادث بخصام بسيط، ففرّت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها ورفضت بعد ذلك أن تأكل شيئاً».

سألني مستر كينيث: «هل سيحزن مستر لنتون إذا أصابها أيّ مكروه؟».

أجبت: «سيحزن! إنّ قلبه سينفطر حزناً، لا تخيفه أكثر من اللازم».

قال: «حسناً، إنّي سأحذّره فقط، وستقع عليه التبعة إذا تجاهل تعليماتي! هل هو على وفاق مع هيثكلف في الوقت الحاضر؟».

أجبت: «إنّ هيثكلف يزور (غرانغ) كثيراً لا لأنّ سيّدي يحبّ رفقته، بل لأنّ سيّدتي تعرفه وهو صبي. وقد انقطع الآن عن

الحضور بسبب إظهاره بعض الميل المصطنع إلى الآنسة لنتون. إنّي أعتقد أنّه لن يحضر إلى هنا مرّة أخرى».

سألني الطبيب: «ألم تلتفت إليه الآنسة؟».

أجبت: «إنّها لم تبح لي بسرّها لأنّي لم أكن أرغب مواصلة الحديث حول هذا الموضوع».

قال وهو يهزّ رأسه: «لا، إنّها خبيثة، إنّها لا تبح بسرّها لأحد ولكنّها حمقاء أيضاً. لقد سمعت من شخص موثوق به أنّها في الليلة الماضية - ولقد كانت ليلة جميلة بالفعل - كانت تسير مع هيثكلف في الحقل الذي خلف بيتكم لمدّة ساعتين، وأنّه ألحّ عليها ألا تعود إلى البيت، وأن تمتطي حصانه، وتفرّ معه! وقال هذا الشخص إنّها لم تستطع أن تفلت من بين يديه إلا بعد أن وعدته بشرفها بأنّها ستتأهّب للفرار معه في أوّل مقابلة تجري بينهما ولكنّ الشخص لم يستطع سماع الوقت الذي حدّد لهذه المقابلة فأخبري مستر لنتون بذلك ليكن على حذر».

لقد ملأ النبأ قلبي فزعاً ورعباً جديدين. وأسرعت أحثّ الخطى أمام كينيث. وتوجّهت رأساً إلى غرفة إيزابيلا وما أن دخلتها حتى اتّضحت لي صحّة شكوكي، كانت الغرفة خاوية. ولو حضرت إلى الغرفة قبل بضع ساعات وأخبرت إيزابيلا حالة السيّدة لنتون الخطيرة لما خطت خطوتها الهوجاء. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل الآن؟ لو لحقنا بها فوراً لكان هناك احتمال بسيط بعودتها. أمّا الآن، فلا أستطيع أن ألحق بها، ولم أجرؤ على إيقاظ العائلة حتى لا أبعث الفوضى والاضطراب في البيت. وقد رأيت من الخير أن أمسك لساني وأدع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. وفي تلك اللحظة كان

كينيث قد وصل إلى الطابق العلوي فذهبتُ إلى غرفة سيّدتي لأعلن وصوله.

كانت كاثرن غارقة في نوم مضطرب، فقد نجح زوجها في تهدئة هياجها الشديد بعض الشيء، واقترب من وسادتها يراقب كلّ تبدُّل وتغيير في ملامحها المعبّرة عن آلامها.

وبعد أن فحص الطبيب حالة المريضة أعرب لزوجها عن أمله في أن تكون النهاية طيّبة، إذا استطعنا أن نؤمّن لها الهدوء التامّ الدائم. وقال الطبيب لي إنّ الخطر الكبير الذي يهدّدها ليس الموت، وإنّما الجنون.

لم أغمض عيوني تلك الليلة، ولم يعرف مستر لنتون النوم، فكلانا لم نذهب إلى فراشنا، واستيقظ الخدم جميعهم قبل الموعد العادي، وأخذوا يتنقّلون بين غرف البيت وردهاته على أطراف أقدامهم ويتهامسون كلّما التقى أحدهم بالآخر. كان كلّ من في البيت يتنقّل هنا وهناك، ما عدا الآنسة إيزابيلا، وبدأ الجميع يلاحظون عدم مغادرتها الفراش حتى تلك الساعة المتأخّرة، وسأل أخاها عنها وعمّا إذا كانت قد استيقظت من نومها. وخشيتُ أن يرسلني لإيقاظها ولكنّ الله أنجاني من هذه الورطة، إذ أقبلت إحدى الخادمات التي كانت قد أرسلت في مهمّة إلى غمرتون، وهي تلهث من التعب واندفعت إلى غرفة السيّدة لنتون وأخذت تصيح: «أوه، سيّدي، سيّدي، إنّ سيّدتي الشابّة ـ».

قلت لها: «أخفضي صوتك!».

وقال مستر لنتون: «ماذا جرى يا ماري، أخفضي صوتك ماذا أصاب سيّدتك الشابّة؟».

قالت الفتاة وهي تلهث من التعب والخوف: «إنّها ذهبت، ذهبت مع هيثكلف».

قال لنتون في اضطراب: «إنّ هذا غير صحيح! لا يمكن أن يحدث ذلك، كيف طرقت هذه الفكرة إلى رأسك؟ اذهبي يا ألن دين وابحثي عنها، إنّ هذا شيء لا يصدّق، لا يمكن أن يحدث».

ثم أمسك بالخادمة وخرج بها من الغرفة وسألها من جديد كيف توصّلت إلى هذا النبأ؟

قالت متلعثمة: «لقد قابلتُ في طريقي الفتى الذي يحضر الحليب إلى البيت فسألني عمّا إذا كان قد أصابنا مكروه، فظننت أنّه يعني مرض السيّدة فقلت له نعم. فعندئذٍ قال لي، أعتقد أنّ أحداً منكم قد لحق بهما، أليس كذلك؟ فدهشت من هذا السؤال، ولمّا لاحظ أنّني لا أعلم شيئاً عن الحادث قال لي إنّ رجلاً وسيّدة توقّفا ليلة أمس عند دكّان الحدّاد الواقعة على مسافة ميلين من غمرتون لإصلاح حدوة حصانهما، وكان ذلك بعد منتصف الليل بقليل. وأخبرني الفتى أنّ ابنة الحدّاد حاولت أن تعرف مَن هما فعلمت حالاً أمرهما، ورأت الرجل، وهي متأكّدة من أنّه هيثكلف، إذ لا يمكن أن يخطئه أحد، يعطي والدها جنيهاً أجراً لأتعابه. كانت السيّدة تغطّي وجهها بعباءة رفعتها عندما أرادت أن تشرب كأساً من الماء فبان وجهها بوضوح. وقد غادر هيثكلف والسيّدة القرية واتّجها مسرعين قدر ما تسمح لها الطريق الوعرة. لم تخبر الفتاة والدها ما رأت ولكنّها أشاعت الخبر في غمرتون هذا الصباح».

أسرعت فألقيت نظرة على غرفة إيزابيلا وعندما عدت أكّدت صحّة كلام الخادم ولمّا دخلت الغرفة رفع لنتون عينيه فعرف الجواب من نظراتي، ثم أخفضهما بدون أن ينطق بأيّة كلمة.

سألته: «هل سنحاول اتّخاذ أيّة إجراءات لإعادتها؟ وماذا يجب أن نفعل؟».

أجاب: «لقد ذهبت بمحض اختيارها، إنّ لها الحقّ في أن تذهب إن شاءت. لا تحاولي إزعاجي بعد الآن. إنّها لم تعد شقيقتي إلا بالاسم، لا لأنّي تخلّيت عنها ولكنّها لأنّها تخلّت عنّي».

وكان ذلك كلّ ما قاله في هذا الموضوع. إنّه لم يستفسر عنها بعد ذلك ولا مرّة واحدة أو يذكرها في أيّة مناسبة سوى أنّه أشار إليّ بأن أرسل لها ما تملكه من حوائج في البيت إلى مكان إقامتها الجديد، أينما كان، حالما أعرفه.

13

لقد ظلّ الشريدان غائبين مدّة شهرين. وخلال هذه المدّة تغلّبت السيّدة لنتون على أسوأ صدمة عصبيّة كانت معروفة بالحمّى الدماغيّة. ولقد اعتنى إدغار بزوجه عناية خالصة لم يعرف من قبل أن أمّاً اعتنت بطفلها مثل هذه العناية. كان يراقبها ليل نهار، وكان يتحمّل بصبر وجَلَدٍ جميع الأعمال المقلقة والمزعجة التي يمكن أن يقوم بها إنسان مضطرب الأعصاب مشتّت الفكر كزوجه. ولقد طار فرحاً عندما علم أنّ الخطر الذي كان يهدّد حياتها قد زال، وظلّ يجلس إلى جانبها ساعة بعد ساعة يراقب باهتمام تحسّن صحّتها تدريجيّاً ويعلّل نفسه بأمل عودة عقلها وتفكيرها إلى الحالة الطبيعيّة.

وقد غادرت كاثرن أوّل مرّة غرفتها في مطلع شهر مارس التالي. وقد وضع مستر لنتون فوق وسادتها في صبيحة ذلك اليوم قبل أن تستيقظ من نومها ضميمة من الزهر الجميل، فكان سرورها بها كبيراً وقالت عندما لمحتها: «إنّ هذه بواكير الأزهار التي تنبت في مرتفعات وذرينغ! إنّها تذكّرني بالرياح الناعمة العليلة، وأشعّة الشمس الدافئة، وذوبان الثلج. وسألت: ألم تهبّ الرياح الجنوبيّة يا إدغار، وهل ذابت الثلوج؟».

أجابها: «لقد ذابت الثلوج يا عزيزتي ولا أرى سوى بقعتين بيضاوين تكلّلان سلسلة التلال. إنّ السماء الآن زرقاء، صافية الأديم، والطيور تغرّد على الأغصان، والجداول العذبة تفيض بالمياه. لقد كنت في الربيع الماضي، يا حبيبتي، في مثل هذا الوقت، أتطلّع إلى اليوم الذي تعيشين فيه تحت هذا السقف، والآن، كم أتمنّى أن يكون بمقدورك الذهاب إلى قمّة تلك التلال، إنّ الهواء يهبّ عليلاً عذباً وأعتقد أنّه سيعجّل في شفائك».

قالت: «إنّي لن أذهب إلى هناك إلا مرّة واحدة أخرى، حيث أظلّ راقدة إلى الأبد وحدي. وفي الربيع التالي ستشتاق إليّ وتتمنّى مرّة أخرى أن أكون تحت هذا السقف، وستعود بذاكرتك إلى الوراء وتقول كم كنت سعيداً!».

حاول لنتون أن ينعش آمالها ويبهج نفسها بأعذب الكلمات وأجمل القول ولكنّها لم تستطع أن تمنع نفسها عن البكاء وانحدرت الدموع تنساب من مآقيها على خدّيها الأسيلين. لقد كنّا نعلم أنّها تحسّنت فعلاً عن ذي قبل، ولمّا وجدنا أنّ حصرها في مكان واحد لا يساعد على تحسّن حالها قرّرنا أن نخرجها من الغرفة، وقد أمرني سيّدي أن أشعل النار في غرفة الجلوس المهجورة، وأعدّ لها مقعداً مريحاً في أشعّة الشمس بجانب النافذة ثم حملها إلى الطابق السفلي فجلست على المقعد تنعم بالدفء مدّة طويلة حتى المساء. ولمّا أقبل الليل لم يستطع أحد إقناعها بالعودة إلى غرفتها فاضطررت أن أعدّ أريكة غرفة الجلوس لتكون سريراً لها ريثما نعدّ لها غرفة أخرى. وقد اخترنا الغرفة التي تضطجع أنت فيها حاليّاً حتى لا تتعب من الصعود إلى الطابق الثاني والهبوط منه، وأخذت صحّتها تتحسّن بسرعة بعد ذلك وأصبحت قادرة على أن تنتقل من غرفة إلى أخرى

في الطابق السفلي وهي تتّكئ إلى ذراع إدغار. وبتّ أعتقد أنّها ستشفى من مرضها تماماً. وقد قوّى هذا الاعتقاد في نفسي رغبتي في بقائها على قيد الحياة من أجلها ومن أجل الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها. ولقد سعدت أملاً في أن ينشرح قلب مستر لنتون بعد فترة قصيرة بمولد ابن له يرث أمواله وأراضيه ويصونها من قبضة الغريب.

ويجدر بي هنا أن أذكر أنّ إيزابيلا أرسلت إلى أخيها بعد زهاء ستّة أسابيع من رحيلها مذكّرة صغيرة أعلنت فيها زواجها من هيثكلف. كانت كلمات المذكّرة جافّة باردة وقد كتبت بأسفلها بقلم الرصاص كلمة اعتذار واستعطاف، وفيها أكّدت إيزابيلا بأنّ ما حدث كان فوق إرادتها وليس باستطاعتها الآن أن تستردّ ما فات، لقد سبق السيف العزل. وأعتقد أنّ لنتون لم يردّ على مذكّرتها، وقد تسلّمت بعد أسبوعين من تاريخ وصول هذه المذكّرة رسالة طويلة سأقرأها عليك لأنّي ما زلت أحتفظ بها. إنّ أيّ أثر من الأحداث له قيمته إذا كان من الناس الذين لهم قيمتهم في الحياة.

وتبدأ الرسالة هكذا - «عزيزتي ألن، لقد وصلت الليلة الماضية إلى مرتفعات وذرينغ، وسمعت لأوّل مرّة أنّ كاثرن كانت مريضة جدّاً وما زالت، يجب ألا أكتب إليها حسب ما أعتقد، وأنّ أخي إمّا غاضب عليّ كثيراً أو مستاء منّي جدّاً حتى إنّه لم يردّ على مذكّرتي. ولقد رأيت أنّه ينبغي عليّ أن أكتب إلى شخص ما وأنت هو الشخص الوحيد الذي تُرك لي اختياره.

أبلغي إدغار أنّني أضحّي بكلّ شيء في حياتي في سبيل رؤية وجهه مرّة أخرى - ولقد عاد قلبي إلى ثرشكروس غرانغ بعد مغادرتي إيّاها بأربع وعشرين ساعة فقط، وأنّه ما زال هناك حتى هذه اللحظة

مع أنّي لا أستطيع اللحاق به، إنّ قلبي مليء بالمشاعر الحارّة لإدغار وكاثرن، إنّ بقيّة الرسالة لك وحدك. وأريد قبل كل شيء أن أوجّه إليك سؤالين الأوّل هو كيف كان بإمكانك العيش في هذا المكان؟ إنّني لا أستطيع أن أجد إنساناً هنا آأنس إليه.

والسؤال الثاني هو ما يهمّني كثيراً وهو ما يلي:

هل مستر هيثكلف إنسان عادي؟ إذا كان كذلك هل هو مجنون؟ وإذا لم يكن كذلك فهل هو شيطان مريد؟ إنّي لا أودّ أن أخبرك عن الأسباب التي جعلتني أوجّه هذا السؤال! ولكن أرجوك أن توضحي لي، رأيك في هذا المخلوق الذي قدّر لي أن أتزوّجه وذلك عندما تحضرين لمقابلتي، ويجب أن تحضري في وقت قريب جدّاً. لا تكتبي إليّ ولكن تعالي إلى مرتفعات وذرينغ وأحضري لي شيئاً من إدغار.

والآن، سأخبرك كيف استقبلتُ في بيتي الجديد، كان الظلام يخيّم على الكون عندما وصلنا إلى الساحة المرصوفة التي تقع أمام البيت، وقد خرج خادمكم الشيخ، يوسف، لاستقبالنا وهو يحمل شمعة ذابلة. وكان أوّل عمل قام به أن رفع الشمعة إلى مستوى وجهي، ونظر إليّ نظرة ملؤها الغضب وزمّ شفته السفلى ثم أدار وجهه. أخذ الحصانين اللذين كنّا نمتطيهما إلى الإصطبل، ثم عاد وأقفل الباب الخارجي كأنّنا نعيش في قلعة من القلاع القديمة.

وتأخّر هيثكلف ليتحدّث إلى يوسف، ودخلتُ لوحدي المطبخ - إنّه يبدو الآن مكاناً قذراً جدّاً غير مرتّب. ويمكنني القول إنّك لا تستطيعن ترتيبه وتنظيفه. وقد رأيت إلى جانب الموقد طفلاً قويّاً، عيناه وفمه يشبهان عينَيْ كاثرن وفمها، غير أنّه قذر الوجه واليدين، رثّ الثياب.

وقلت في نفسي إنّ هذا ابن عمّ إدغار الشرعي، ينبغي أن أصافحه كما ينبغي عليّ أيضاً أن أقبّله، إنّه من الخير أن أنشئ علاقات طيّبة معه منذ البداية، اقتربتُ منه وحاولت أن أمسك يده وقلت:

«كيف حالك يا عزيزي؟».

أجاب بكلمات لم أستطع فهمها.

فقلت له: «هل سنكون أصدقاء يا هرتون؟».

هدّدني بإثارة الكلب (ثروتار) إذا لم أبتعد عنه وهمس الشقي الصغير في أذن الكلب قائلاً: «ها ثروتار!» نهض الكلب عندئذٍ من مرقده وتأهّب فتراجعت عند ذلك إلى الوراء حرصاً على حياتي وخرجت من المطبخ وانتظرت حتى يصل الآخرون. ثم أَجَلْتُ نظري فلم أعثر على هيثكلف في أيّ مكان، فلحقت بيوسف ورجوته أن يدخل معي البيت إلا أنّه تمتم ببضع كلمات ورفض طلبي.

قلت له بصوت مرتفع اعتقاداً منّي أنّه أصمّ: «قل يا هذا، إنّي أريد منك أن ترافقني إلى داخل البيت».

أجاب: «لا، إنّ لديّ أعمالاً أخرى»، وتابع عمله بعد أن حدّق النظر في ثيابي وملامحي.

درتُ حول البيت فوجدت باباً آخر، طرقته أملاً في أن ألاقي خادماً مهذّباً. فتح الباب بعد فترة قصيرة وإذ بي أجد نفسي أمام رجل طويل القامة، أشعث الشعر، له عينان شبيهتان بعيني كاثرن.

سألني وهو مقطّب الجبين: «ماذا تصنعين هنا؟ ومن أنت؟».

أجبت: «أنا اسمي السابق إيزابيلا لنتون. لقد رأيتني من قبل يا سيّدي، ولقد تزوّجت مؤخّراً من مستر هيثكلف وقد أحضرني إلى هنا بعد الحصول على إذنك على ما أعتقد».

سألني وهو يحدّق النظر فيّ كثعلب جائع: «هل عاد إذن؟».

أجبت: «نعم، لقد حضرنا هذه الساعة، ولكنّه تركني عند باب المطبخ، وما كدت أدخل الباب حتى حاول ولدك الصغير إثارة الفزع في نفسي بإثارة الكلب عليّ».

قال مضيفي بصوت أجشّ: «لقد حفظ الشقي الصغير عهده وصان كلمته جيّداً». وأخذ يحدّق النظر في الظلام متوقّعاً اكتشاف هيثكلف، ثم أغرق في التهديد والوعيد إذا خدعه «الشيطان» ولم يبرَّ بوعد.

ندمت لأنّي طرقت الباب الثاني، وكنت على وشك أن أنسحب قبل أن ينهي شتائمه ولكنّه أمرني بالدخول وأغلق الباب ورائي وأحكم إغلاقه. كانت النار الكثيرة التي تشتعل في القاعة الكبيرة ترسل الضوء في جميع أنحاء ذلك المكان. وأوّل شيء لفت انتباهي الفوضى التي تسود القاعة، ولاحظتُ أنّ الصحون الجميلة التي كانت تجذب نظري عندما كنت طفلة، والتي ما زالت تزيّن بها الخزانة حتى الآن، قد علاها الغبار والصدأ فاختفى رونقها وانمحت معالم زخرفتها وبهائها. وسألت مستر أرنشو عمّا إذا كان باستطاعتي دعوة الفتاة لترشدني إلى غرفة نومي إلا أنّه لم يجب. وأخذ يقطع القاعة ذهاباً وإياباً واضعاً يديه في جيبه، وقد نسي على ما يظهر وجودي. كان يبدو غارقاً في تفكيره حتى إنّني لم أحاول إزعاجه مرّة أخرى.

لا تستغربي يا ألن، من شعوري، وأنا جالسة في ذلك المكان، كئيبة حزينة، وعلى مسافة أربعة أميال فقط يقع بيتي السعيد الذي يضمّ بين جنباته الأشخاص الذين أحبّهم على وجه الأرض، ولا أستطيع أن أصل إليهم، وكأنّه بيني وبينهم المحيط الهادئ وليست

هذه الأميال الأربعة. وتساءلت إلى أين يجب أن أمضي لأجد الراحة والطمأنينة؟ لقد يئست من اكتشاف إنسان يكون عوناً لي على هيثكلف! لقد سررت بادئ الأمر باللجوء إلى مرتفعات وذرينغ حتى لا أعيش وحيدة مع هيثكلف، ولكنّه كان يعلم طبيعة الناس الذين سأحيا بينهم فلم يخش تدخّلهم في شؤوننا.

وبقيت جالسة في القاعة أفكّر في حالي، وأشارت الساعة إلى الثامنة فالتاسعة، ورفيقي ما زال يقطع القاعة ذهاباً وإياباً صامتاً، وقد أحنى رأسه فوق صدره، وأصغيت لأكتشف صوت امرأة في البيت، فلم يطرق أذني أيّ صوت نسائي. وطال انتظاري، وفجأة وقف أمامي أرنشو وحدّق في وجهي. فاغتنمتُ هذه الفرصة وقلت له:

«إني تعبة من السفر وأودّ أن آوي إلى فراشي! أين الخادمة؟ أرشدني إليها إذا هي لا ترغب في الحضور لمقابلتي!».

أجاب: «ليس في البيت ولا فتاة واحدة. يتحتّم عليك أن تقومي بخدمة نفسك».

سألته: «أين ينبغي أن أنام؟».

أجاب: «سيرشدك يوسف إلى غرفة هيثكلف. افتحي هذا الباب تجدينه هناك».

وهممتُ أن أفعل ما أمرني به ولكنّه أمسك بي فجأة وأردف يقول في لهجة غريبة جداً:

«إنّي أنصحك أن تغلقي باب غرفتك إغلاقاً محكماً!».

قلت: «حسناً! ولكن ما الداعي إلى ذلك يا مستر أرنشو؟» إذ إنّي لم أفهم ما يقصد من نصيحته.

أجاب: «انظري!» وسحب من جيب سترته مسدّساً غريب

التركيب في طرفه مدية ذات حدّين. وأضاف يقول: «إنّي رجل بائس ولا أستطيع أن أكبح جماح نفسي من الصعود هذه الليلة بالذات وأحاول اقتحام باب غرفته. فإذا ما وجدته مفتوحاً فقد حانت منيّته! إنّ الشيطان يدفعني إلى قتله. فإذا ما حان الوقت المناسب لذلك، فإنّ جميع الملائكة التي في السماء لن تنجّيه من قبضة يدي».

نظرت مليّاً إلى المدية والمسدّس باستغراب، وطرأ على بالي خاطر غريب، وقلت مخاطبة نفسي كم أصبح قويّة إذا استوليت على هذا السلاح! أخذته من يده ولمست حدّ المدية، وقد ذُهل من التبدّل الذي طرأ على ملامحي في هذه اللحظة القصيرة، فسحب المسدّس من يدي وأعاده إلى مخبئه في سترته وقال: «إنّي لا أبالي إذا أبلغته ما سمعتِ أم لا. دعيه يأخذ حذره. إنّك تعلمين الحالة بيني وبينه، وأعتقد أنّ الخطر الذي يهدّده لا يخفيك».

سألته: «ماذا فعل بك هيثكلف؟ وهل أساء إليك وما هي تلك الإساءة؟ أليس من الأفضل أن تأمره بمغادرة المنزل؟».

صاح أرنشو محتدّاً: «لا! إذا ما تركني فإنّه سيموت، وإذا ما استطعت إقناعه بمحاولة تركي فإنّك ستكونين السبب في قتله! أتودّين أن أخسر كلّ شيء؟ وأن يصبح هرتون فقيراً معدماً؟ أوه بحقّ الشيطان، سأستعيد كلّ شيء وسأستعيد ذهبه أيضاً ثم دمه وبعد ذلك لتذهب روحه إلى الجحيم».

لقد حدّثتني يا ألن في السابق عن عادات سيّدك وقد بدا لي بوضوح في الليلة الماضية أنّه على وشك أن يصيبه مسّ من الجنون. شعرت بالذعر والاضطراب من البقاء معه في القاعة. فأسرعت إلى فتح الباب وفررت إلى المطبخ. كان يوسف يقف إلى جانب الموقد وهو يحملق في مقلاة كبيرة كانت فوقها، أخذ ما في المقلاة من ماء

يغلي ثم أدار وجهه نحو وعاء خشبي يحتوي على الشوفان فغمس يده فيه. تبيّن لي من ذلك أنّه يعدّ العشاء، ولمّا كنت جائعة فقد صحت في وجهه قائلة: «إنّي سأعدّ الحساء». وأخذت الوعاء من يده وخلعت قبّعتي. ثم أردفت قائلة: «لقد أبلغني مستر أرنشو أن أتولّى تدبير شؤون نفسي، وإنّي سأفعل كذلك، إنّي لن أقوم بدور السيّدة بينكم لأنّي أخشى أن أموت جوعاً».

قال متمتماً بعد أن جلس على مقعد بجواره: «يا الله يا عزيز! إنّي لم أكن أتوقّع أن أرى ذلك اليوم الذي تعود فيه سيّدة البيت!».

لم ألتفت إلى كلامه وابتدأت عملي بنشاط بينما يوسف يتطلّع إلى طريقة طهو الحساء بغضب متزايد. وبعد أن انتهيت من الطهو أحضرت إلى المطبخ وعاء فيه حليب طازج من المزرعة. وقد أمسك هرتون بالوعاء وأخذ يعبّ منه.

عارضت في ذلك ورجوت أن يصبّ هرتون الحليب في كوب ويجرع منه وهدّدت بأنّي لن أذوق الحليب أبداً، لكنّ الطفل ظلّ يتحدّاني واستمرّ يعبّ من الوعاء عبّاً.

عندئذٍ قلت: «إنّي سأتناول عشائي في غرفة أخرى، ألا يوجد عندكم مكان يسمّى غرفة الجلوس؟».

أجاب يوسف بهزء: «غرفة جلوس! غرفة جلوس! لا، إنّه لا يوجد عندنا غرف للجلوس. إذا كنت لا ترغبين الجلوس معنا فها هو ربّ البيت، فإذا كنت لا تودّين رفقته فها نحن».

قلت: «إذن سأصعد إلى الطابق الثاني، أرني غرفة من الغرف».

وضعت قدحاً كبيراً فوق طبق من المعدن وذهبت بنفسي لأحضر قليلاً من الحليب. نهض يوسف متذمّراً وتقدّمني إلى الطابق الثاني حتى وصلنا إلى الغرف العليا في البيت، وأخذ يفتح باباً إثر باب

وينظر إلى داخل الغرف التي نمرّ بها. وأخيراً توقّف وقال: «هاك هذه الغرفة، إنّها تصلح لكي يتناول المرء فيها عشاءه».

كانت الغرفة أشبه بجحر تنبعث منه رائحة الحنطة، كانت أكياس القمح مبعثرة هنا وهناك حتى لم يبق مكان يستطيع المرء أن يقف فيه.

صحت في وجهه غاضبة: «ما هذا، يا رجل! إنّ هذا مكان لا يصلح للنوم. إنّي أريد أن ترشدني إلى غرفة نومي».

قال في لهجة ساخرة: «غرفة نومك! سأريك جميع غرف النوم. وهذه غرفة نومي..».

وأشار إلى غرفة ثانية لا تختلف عن الغرفة الأولى إلا أنّها تحتوي على سرير وطئ.

قلت: «إنّي لا أريد غرفة نومك؟ إنّي لا أعتقد بأنّ مستر هيثكلف يسكن في أعلى المنزل!».

صاح قائلاً في استغراب كأنّه قد اكتشف شيئاً جديداً: «أوه أتودّين غرفة مستر هيثكلف؟ لماذا لم تقولي ذلك في بادئ الأمر، إنّها الغرفة الوحيدة التي لا أستطيع أن أريك إيّاها، إنّه يبقيها مغلقة دائماً».

لم أستطع أن أمسك لساني فقلت: «إنّ لكم بيتاً جميلاً يا يوسف، وما أظرف سكّانه! أعتقد أنّ الجنون كلّه الموجود في العالم قد تركّز في عقلي في اليوم الذي دخلت فيه هذا البيت! وعلى كلّ حال، أسرع بحقّ السماء ودعني أستقرّ في غرفة ما».

لم يجب بأية كلمة، وإنّما هبط الدرجات الخشبيّة ووقف أمام غرفة يدلّ أثاثها على أنّها أحسن غرفة في البيت. كانت مفروشة

بسجّادة فاخرة فيها موقد، وسرير بديع الصنع، وستائر قرمزيّة مصنوعة من قماش غال الثمن. كانت فيها بعض الكراسي غير أنّ معظمها كان محطّماً. وبينما كنت أفكّر في دخول الغرفة واحتلالها إذ بمرشدي المجنون يعلن أنّها غرفة سيّده. كان عشائي عند ذلك قد برد، ولم يعد لي شهيّة على الأكل، وصبري قد نفد، وأصررتُ على أن يرشدني إلى مكان ألجأ إليه وأستريح.

قال الشيخ المتديّن: «لقد رأيت جميع الغرف ولم يبق أيّة غرفة لم أُرك إيّاها في البيت».

اغتظتُ كثيراً وألقيت بالطبق وما عليه من طعام على الأرض، ثم جلست على رأس السلّم وأخفيت وجهي بين راحتي وأسلمت نفسي للبكاء.

قال يوسف: «حسناً ما صنعت يا آنسة!» وأخذ يتمتم بكلمات يلومني فيها على عملي.

ثم هبط السلّم متوجّهاً إلى غرفته وقد أخذ بيده الشمعة، وتركني في الظلام. وبينما أنا أفكّر في أمري برز أمامي الكلب (ثروتلر) وكان أبي قد أهداه إلى هندلي، حكّ أنفه في أنفي كأنّه يحيّيني ثم أسرع إلى ابتلاع الحساء الذي سال على الأرض، بينما أخذت أجمع شتات الأقداح الخزفية وأمسح ما علق من الحليب على السلّم بمنديلي.

وما كدت أن أنهي عملي وينهي الكلب ابتلاع الحساء حتى سمعت وقع أقدام أرنشو في الممرّ. فتسلّلت إلى أقرب باب إليّ، إلا أنّ الكلب لم ينجح في محاولته الفرار من أمامه. ومرّ أرنشو ودخل غرفته وأغلق الباب خلفه. ووجدت ملجأ لي في غرفة هرتون ولم يمض بضع ثوان على وجودي حتى دخل يوسف الغرفة يرافقه

هرتون. وما أن رآني العجوز حتى قال: «إنّ في هذه الغرفة متّسعاً لك».

تقبّلت منه ذلك بسرور، وما أن ألقيت بنفسي على الكرسي بجانب الموقد حتى غرقت في الأحلام.

كان نومي عميقاً هادئاً، مع أنّ مدّته لم تطل. فقد أيقظني مستر هيثكلف وسألني بأسلوبه المحبوب ماذا أفعل هناك؟ فأبلغته أنّ السبب الذي دعاني إلى أن أسهر إلى ساعة متأخّرة من الليل حمله مفتاح غرفتنا في جيبه. وقد أثارت كلمة غرفتنا غضبه واعتبرها جريمة نكراء، وقال إنّ هذه الغرفة ليست لي ولن تكون لي، وإنّه - ولكنّي لن أعيد كلماته ولن أصف سلوكه وعاداته. إنّه يبحث عن طريقة ليبعث الكراهية في نفسي له. وإنّي أؤكّد أنّه ليس في استطاعة النمر المفترس ولا الحيّة الرقطاء أن تبعثا في نفسي فزعاً يساوي الفزع الذي يبعثه هيثكلف. لقد أخبرني عن مرض كاثرن واتّهم أخي بأنّه كان السبب في ذلك وهدّدني بأنّني سأكون كبش الفداء حتى يتمكّن من توجيه الضربة لإدغار.

إنّي أكرهه فعلاً - إنّي تعسة - إنّني فاقدة الصواب. إيّاك أن تفوهي بكلمة واحدة لأحد ممّا قلته لك وسأكون في انتظارك في كلّ يوم فلا تخيّبي رجائي».

«إيزابيلا».

14

حالما قرأت هذه الرسالة، ذهبت إلى سيّدي وأخبرته أنّ شقيقته قد وصلت إلى مرتفعات وذرينغ، وأرسلت لي رسالة تُعرب فيها عن حزنها لما أصاب السيّدة لنتون، وعن رغبتها الشديدة في رؤيته، وتودّ منه أن يرسل لها في أقرب وقت ممكن إشارة تدلّ على أنّه قد صفح عنها.

قال لنتون عندما سمع ذلك: «اذهبي يا ألن بعد ظهر اليوم إلى مرتفعات وذرينغ، إذا أردت، وقولي لها إنّني لست غاضباً منها ولكنّي آسف لأنّني فقدتها، وخاصّة لأنّي أعتقد أنّها لن تكون سعيدة أبداً. إنّ ذهابي لرؤيتها أمر مستحيل، وعلى كلٍّ فقد افترقنا إلى الأبد، وإذا كانت حقّاً ترغب في إرغامي على رؤيتها فدعيها تقنع ذلك الوغد الذي اقترنت به على مغادرة البلاد».

سألته متوسّلة: «هلّا كتبت لها مذكّرة صغيرة يا سيّدي؟».

أجاب: «كلا، لا حاجة إلى ذلك. إنّي أعتبر اتصالي معها كاتّصالي معه. وهذا لن يتمّ أبداً!».

لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة بسبب عدم اكتراث إدغار بشقيقته. وكنت طول وقتي وأنا أسير صوب مرتفعات وذرينغ أفكّر كيف

أستطيع أن أخفّف وقع رفضه كتابة بضعة أسطر على أذن إيزابيلا. لقد وجدتها تنتظرني منذ الصباح وهي واقفة على النافذة، ولمّا أشرت إليها برأسي انسحبت إلى الوراء خشية أن يراها أحد من سكّان البيت. ولجتُ المنزل دون أن أطرق الباب، ولقد ذهلت عندما أبصرت منظراً قاتماً أمامي إذ تبدل البيت النظيف، البهيج إلى مكان قذر مظلم. ولو كنت مكان السيّدة لنظّفت على الأقلّ الموقد وأزلت الغبار عن الموائد. ولكنّها على ما يبدو قد تأثّرت هي أيضاً بروح الإهمال التي تسود المكان، إذ كان وجهها الجميل شاحب اللون، وشعرها مسترسلاً، قد بعثرت خصلاته وقعص بعضها بغير اهتمام حول رأسها. ويحتمل أنّها لم تبدّل ثيابها منذ ليلة أمس. لم يكن مستر هندلي في البيت. أمّا مستر هيثكلف فكان يجلس إلى طاولة وهو يقلّب بعض الأوراق في مذكّرته. وقف عندما رآني وسألني عن أحوالي بصورة وديّة وقدّم لي مقعداً. كان يبدو أحسن من أيّ وقت مضى. وأقبلت إيزابيلا وحيّتني بحماس ورفعت إحدى يديها لتتسلّم الرسالة التي كانت تتوقّعها. هززت رأسي بالنفي إلا أنّها لم تفهم إشارتي وتبعتني حيث توجّهت لأعلّق قبّعتي وهمست في أذني طالبة منّي أن أعطيها ما أحضرته معي. أدرك هيثكلف معنى هذه المناورات وقال:

«إذا كان معك أيّ شيء لإيزابيلا (وليس من شكّ في أنّه معك يا نيلي) فاعطيه لها. ولا ضرورة أن يظلّ هذا الشيء سرّاً. إنّه لا توجد أسرار بيننا».

أجبتُ: «لا شيء معي، لقد أمرني سيّدي أن أخبر شقيقته ألا تتوقّع منه في الوقت الحاضر رسالة أو زيارة لها. إنّه يرسل لها حبّه وتمنّياته الطيّبة، وعفوه عن الحزن الذي سبّبته له. ولكنّه يعتقد أنّه

يجب بعد الآن قطع الاتّصال بين أهل بيته وأهل هذا البيت، إذ لا فائدة ترجى من المحافظة على هذا الاتّصال».

ارتعشت شفتا السيّدة هيثكلف قليلاً وعادت إلى مقعدها بالقرب من النافذة، بينما وقف زوجها بالقرب منّي إلى جانب الموقد وأخذ يوجّه إليّ أسئلة تتعلّق بكاثرن.

أخبرته كلّ ما كنت أعتقد أنّه من اللائق أن أذكره عن مرضها، واستطاع هو أن يستخلص منّي كثيراً من الحقائق عن مصدر مرضها. وضعت اللوم عليها لأنّها كانت السبب في كلّ ما أصابها وأنهيت حديثي آملة أن يحذو حذو مستر لنتون ويتجنّب في المستقبل التدخّل في شؤون عائلته سواء أكان ينبغي من وراء ذلك خيراً أو شرّاً.

وأضفت أقول: «إنّ السيّدة قد ابتدأت الآن تستعيد صحّتها، وأعتقد أنّها لن تعود كما كانت، ولكن حياتها قد أنقذت على كلّ حال وإذا ما كنت حقّاً تقدّر قيمة حياتها يا مستر هيثكلف فابتعد عن طريقها، والأحرى بك أن تغادر هذه البلاد إلى غير رجعة. إنّي أودّ أن أخبرك أنّ كاثرن لنتون تختلف الآن عن صديقتك القديمة كاثرن أرنشو كاختلافها عنّي، إنّ شكلها قد تغيّر تغيّراً كبيراً، كما تغيّرت أخلاقها تماماً، وأنّ الشخص المضطرّ بحكم الواجب إلى مرافقتها، ينبغي عليه أن يتحمّل ما يلاقي منها من عنت كثير».

قال هيثكلف وهو يحاول أن يبدو هادئ النفس: «هل تعتقدين أنّني سأترك مصير كاثرن والاعتناء بها إلى إنسانيّة سيّدك؟ وهل تستطيعين أن تقارني بين شعوره لكاثرن وبين شعوري لها؟ وقبل أن تغادري هذا البيت، يجب أن تقطعي على نفسك عهداً بأن تحصلي لي منها على إذن لمقابلتها - وسواء قبلت أم لا فإنّه ينبغي أن أراها! فماذا تقولين؟».

أجبت: «إنّني لن أوافق على طلبك، ولن أمهّد لك السبيل لتراها، إنّ وقوع اصطدام آخر بينك وبين سيّدي سيقتلها لا محالة».

قال: «إنّه يمكن تجنّب ذلك بمساعدتك» وأضاف يقول: «إنّ شعوره نحوي يختلف عن شعوري نحوه، فلو كان هو في مكاني وكنت أنا في مكانه، مع أنّي أكرهه كرهاً لا يوصف، لما رفعت يدي عليه أبداً، ولما أبعدته عنها طالما ظلّت ترغب في البقاء إلى جانبه. وفي اللحظة التي ينتهي اهتمامها به، سأمزّق قلبه وأشرب دمه! ولكن حتى يحين ذلك الوقت فإنّي سأموت ألف ميتة قبل أن أمسّ شعرة واحدة من رأسه!».

قاطعته قائلة: «ومع ذلك، فأنت لا تدري أنّه إذا ما ذكّرتها بنفسك بعد أن كادت أن تنساك، وسبّبت لها اضطراباً وقلقاً جديدين، فإنّك ستقضي على كلّ أمل في إعادتها إلى حالتها الطبيعيّة».

قال: «هل تعتقدين أنّها قد نسيتني؟ أوه، يا نيلي، إنّك تعلمين أنّها لم تنساني! كما تعلمين أيضاً أنّها إذا فكّرت في لنتون مرّة واحدة في اليوم فإنّها تفكّر فيّ ألف مرّة! لقد كنت أعتقد مثل هذا الاعتقاد، الاعتقاد بأنّها نسيتني، في أحلك فترة وأتعسها من فترات حياتي، وقد روادتني هذه الفكرة عند عودتي إلى مرتفعات وذرينغ في الصيف الماضي، إنّه لو أحبّها إدغار بكلّ قواه، لم يستطع أن يحبّها في ثمانين عاماً قدر حبّي لها بيوم واحد. وإنّ لكاثرن قلباً واسعاً كقلبي. إنّ إدغار بالنسبة لها ليس أغلى من كلبها أو حصانها إلا بدرجة واحدة تقريباً».

صاحت إيزابيلا قائلة: «إنّ كاثرن وإدغار مغرمان ببعضهما أكثر من أيّ زوجين آخرين. إنّه لا يحقّ لأيّ شخص أن يتحدّث عنهما

على هذا النحو، وإنّي لا أستطيع أن أسمع بأذني توجيه الإهانة إلى أخي وأظلّ صامتة!».

قال هيثكلف بازدراء: «إنّ أخاك مغرماً بك أيضاً إلى درجة كبيرة أليس كذلك؟ لقد تركك تتخبّطين في الحياة لوحدك دون أن يبالي بمصيرك».

أجابت: «إنّه لا يعلم كم أقاسي، إنّني لم أخبره ذلك».

قال: «إذن لقد أخبرتيه شيئاً، أليس كذلك؟».

أجابت: «لقد قلت له إنّني تزوّجت، لقد كتبت له وقد رأيت البطاقة التي أرسلتها».

قال: «ألم تكتبي له غير ذلك منذ ذلك الوقت؟».

أجابت: «كلا».

قلت: «إنّ سيّدتي الصغيرة تبدو حزينة لتبدّل أحوال معيشتها وحياتها. إنّ حبّ المرء يضعف في مثل حالتها».

قال هيثكلف: «أعتقد أنّ ذلك خطؤها، إنّها أصبحت مجرّد فتاة قذرة، لقد ملّت معاشرتي، فمنذ صباح ليلة زفافنا بكت لفراقها بيتها وتمنّت أن تعود إليه».

قلت: «حسناً يا سيّدي، آمل أن لا تنسَ أنّ السيّدة هيثكلف قد رُبِّيت في مهد الدلال، فهي معتادة أن يكون الخدم بين يديها في كلّ لحظة. ينبغي أن تحضر لها فتاة ترعى شؤونها كما ينبغي عليك أن تعاملها بلطف ولا يمكن أن تتجاهل أنّ لها قلباً واسعاً ولولا ذلك لما تخلّت عن الدعة والراحة والأصدقاء، لتسجن نفسها معك في مثل هذا المكان القفر».

أجاب: «لقد تخلّت عنهم لأنّها كانت تخدع نفسها، لقد كانت تتصوّرني في مخيّلتها بطلاً من أبطال القرون الوسطى، وتتوقّع أن

أتنازل لها عن كلّ شيء بدافع الحبّ والإخلاص. لقد خدعت نفسها وصوّر لها الوهم صوراً غريبة عنّي. ولكنّي أعتقد أنّها ابتدأت أخيراً تعرفني على حقيقتي، كما اكتشفت أنّني لم أحبّها. لقد كان أوّل عمل رأتني أفعله عندما خرجت من (غرانغ) أنّني شنقت كلبها الصغير، ولما رجتني أن أخلي سبيله، كانت الكلمات الأولى التي نطقت بها أنّني أتمنّى أن أشنق كلّ حيّ في بيتها ما عدا شخص واحد، وظنّت على ما أعتقد أنّها المعنيّة بهذا الاستثناء. ولكنّها لم تستاء من هذه القساوة التي أظنّ أنّها معجبة بها، طالما ظلّ شخصها العزيز في منجى من الأذى! والآن، أليس غريباً جدّاً، ومن الحمق أن تحلم هذه الفتاة البلهاء بأنّني أحبّها؟! قولي لسيّدك يا نيلي إنّني لم أقابل طيلة حياتي شخصاً منحطّاً مثلها، إنّها تحتقر اسم لنتون. وأخبريه أيضاً ألا يزعج نفسه، فإنّي منذ زواجي بشقيقته أتجنّب إفساح المجال لها لتحصل على أيّ حقّ تطلب بموجبه الطلاق. ولكن إذا ما رغبت تركي فإنّ باستطاعتها أن تفعل ذلك».

قلت: «إنّ هذا كلام رجل مخبول، يا مستر هيثكلف، إنّ زوجتك مقتنعة بأنّك مجنون. ولهذا تحمّلتك وصبرت عليك إلى هذا الحدّ. ولكن بما أنّك قلت لها الآن إنّها باستطاعتها أن تتركك فإنّها دون ريب ستفعل ذلك. إنّك لست مفتونة به إلى حدّ كبير جدّاً أيّتها السيّدة، حتى تبقين معه، أليس ذلك حقّاً؟».

أجابت إيزابيلا، وعيناها تقدحان شرراً من الغيظ: «احذري منه يا ألن، إيّاك أن تصدّقي كلمة واحدة ممّا يتفوّه به. إنّه كذوب، إنّه شيطان مريد، وحش، وليس مخلوقاً مثلنا! لقد قال لي قبلاً إنّ باستطاعتي أن أتركه وحيداً، وحاولت ذلك ولكن لم أجرؤ على التنفيذ! ولكن، عِدِي يا ألن، أنّك لن تذكري كلمة واحدة من حديثه

المشين لشقيقي أو لكاثرن. إنّ ما يقصده ويتمنّاه أن يثير غضب إدغار، ولقد قال لي إنّه قد تزوّجني حتى يكون له سلطة عليه ولكن أمنيته لن تتحقّق، سأموت قبل ذلك. وكلّ ما آمله، أن يفقد اتّزانه ويقتلني! إنّ اللذّة الوحيدة التي تبقّت لي في الحياة أن أتصوّر نفسي ميتة أو أراه ميتاً».

قال هيثكلف: «كفى، إنّ في هذا الكلام دليل واضح، إذا ما دُعيتِ يا نيلي إلى المحكمة فستذكرين هذه الكلمات. وانظري مليّاً في وجهها، إنّها قد بلغت المرحلة التي أريد أن تصلها. إنّك لا تصلحي بعد الآن يا إيزابيلا أن تكوني وصيّة على نفسك. وبما أنّي أعتبر نفسي حاميك الشرعي فينبغي عليّ أن أبقيك في حراستي وتحت رعايتي مهما كان هذا الواجب بغيض عليّ. اصعدي إلى الطابق العلوي، إنّ عندي سرّاً أريد أن أفضي به إلى ألن دين. إلى الطابق العلوي أقول لك أيّتها الطفلة».

أمسك بيدها وألقى بها خارج الغرفة ثم عاد وهو يزمجر قائلاً:

«إنّي لا أعرف الشفقة! لا أعرف الشفقة! إنّه كلّما ازداد تذمّرها كلّما ازداد تحمّسي للقضاء عليها».

قلت وأنا أسرع لوضع القبّعة على رأسي: «هل تفهم ماذا تعني كلمة الشفقة؟ هل شعرت بها في حياتك؟».

قاطعني قائلاً: «ضعي القبّعة» إذ إنّني أنوي الرحيل. وأضاف يقول: «إنّه لم يحن موعد ذهابك بعد، تعالي يا نيلي، إنّ عليّ إما أن أقنعك أو أرغمك على مساعدتي لأرى كاثرن بدون أدنى تأخير. إنّي أقسم بأنّي لا أنوي أيّ ضرر لإنسان. وإنّي لا أرغب في إثارة أيّ اضطراب أو إهانة لمستر لنتون، وكلّ ما أريده هو أن أسمع من

كاثرن عن أحوالها، وأستفسر منها كيف أصبحت مريضة، وأسألها إذا كانت بحاجة إلى مساعدتي. لقد قضيت الليلة الماضية ستّ ساعات في حديقة (غرانغ) وسأعود الليلة إلى هناك، وسأتردّد إلى ذلك المكان كلّ ليلة وكلّ يوم حتى أجد الفرصة مواتية للدخول إلى البيت. وإذا ما التقيت بإدغار فإنّي لن أتردّد في طرحه أرضاً وضربه ضرباً مبرّحاً يكفل سكوته طوال وجودي داخل البيت. وإذا ما عارضني خدمه فسأهدّدهم بهذين المسدّسين، ولكن أليس من الأفضل أن أتجنّب الاصطدام معهم أو مع سيّدهم؟ إنّ باستطاعتك أن تقومي بهذه المهمّة بكلّ سهولة. إنّني سأبلغلك ساعة مجيئي وعندئذٍ تفسحين المجال أمامي لأدخل دون أن يلاحظني أحد، وستقومين على حراستي حتى أخرج وبهذا العمل تكونين قد حِلْت دون وقوع الأذى».

أبديتُ معارضتي لهذا الاقتراح الذي يتطلّب منّي أن أخون سيّدي وبالإضافة إلى ذلك فقد أوضحت له أنّ الأنانيّة هي التي تدفعه إلى تعكير صفو السيّدة لنتون في سبيل مرضاته. وقلت له: «إنّ أتفه حادث يؤلمها، إنّها ليست سوى مجرّد مجموعة عصبيّة وإنّي متأكّدة بأنّه ليس باستطاعتها أن تتحمّل المفاجأة. لا تصرّ على طلبك يا سيّدي! وإلا فإنّي سأجد نفسي مضطرة لإبلاغ سيّدي نواياك، وسيتّخذ الخطوات اللازمة لحماية بيته وأهله من أمثال هذا التطفّل غير المرغوب فيه!».

قال هيثكلف: «في مثل هذه الحالة سأتّخذ الإجراءات التي تكفل الاحتفاظ بك أيّتها المرأة! إنّك لن تغادري مرتفعات وذرينغ حتى صباح غد. إنّه من الحمق أن تقولي إنّ كاثرن لا تستطيع أن تتحمّل رؤيتي. لقد قلت إنّها لم تذكر اسمي، فلمن يجب أن تذكره،

إذا كان هذا الاسم من الموضوعات الممنوع ذكرها في البيت؟ إنّني لا أشكّ أبداً أنّها تعيش في جحيم بينكم! ولقد قلت أيضاً إنّها غالباً ما تكون مضطربة، قلقة فهل هذا دليل على الهدوء؟ ولقد قلت أيضاً إنّ بالها وأفكارها غير مستقرّة، فكيف تستطيع أن تكون غير ذلك في عزلتها المخيفة، وذلك المخلوق البليد يعتني بأمورها بدافع الواجب والإنسانيّة، وبدافع الشفقة والمحبّة؟ إذا كان باستطاعته أن يغرس شجرة بلّوط في آنية للزهر فهل يتوقّع أن تنمو الشجرة بعد ذلك؟ دعيني أسوّي هذه المسألة فوراً، أتودّين البقاء هنا، وأذهب وحدي لأجد طريقاً للوصول إلى كاثرن على الرّغم من أنف لنتون ورجاله؟ أو هل تودّين أن تظلّي صديقة لي كما كنت في السابق، فتفعلين ما أطلبه منك؟ قرّري الآن! لأنّه ليس هناك من سبب يستوجب تأخيري دقيقة أخرى..».

وبعد أن تجادلتُ معه رفضت طلبه رفضاً باتّاً أكثر من خمسين مرّة، ولكن أخيراً أرغمني على الاتّفاق معه. ورضيت بأن أحمل معي رسالة منه إلى سيّدتي وقد وعدته إذا هي وافقت على مقابلته أن أبلغه موعد غياب مستر لنتون عن البيت حتى يتسنّى له دخوله فهل كان هذا العمل يا مستر (لوك ود) عين الصواب أم لا؟ لقد كنت أعتقد بأنّه بموافقتي هذه قد منعت حدوث انفجار آخر، ثم تذكّرت كيف وجه إدغار اللوم إليّ لأنّي نقلت إليه قصّة أخته فأخذتُ أحاول أن أزيل مخاوفي فيما يتعلّق بهذا الموضوع. وعدت إلى البيت.

ولكن ها قد أقبل مستر كينيث سأهبط إلى الطابق السفلي وأخبره أنّ صحّتك قد تحسّنت عن ذي قبل. إنّ قصّتي طويلة وتحتاج إلى ليلة أخرى لإتمامها.

قلت في نفسي عندما هبطت السيّدة الطيّبة لاستقبال الطبيب:

«إنّها قصّة طويلة ومحزنة، وليست من النوع الذي يجب أن أختاره لتسليتي. ولكن لا بأس! سأستخلص العلاجات الصحّيّة المفيدة من أعشاب السيّدة دين المريرة. وقبل كلّ شيء يجب أن أحذر من السحر الذي يكمن في عيني كاثرن هيثكلف. إنّي سأكون في مركز حرج إذا سلّمت قلبي لتلك الشابّة اليانعة، التي قد تكون نسخة طبق الأصل عن أمّها».

15

ومضى أسبوع آخر، وأخذت صحّتي تتحسّن وأخذ الربيع يقترب، وقد تمّ لي سماع قصّة جاري كلّها، في الأوقات التي كانت تسنح للخادمة فيها الجلوس إلى جانبي وسأتمّ سردها بكلماتي ولكنّها ستكون مختصرة بعض الشيء.

قالت: «وفي المساء، أي في مساء زيارتي لمرتفعات وذرينغ، علمت أنّ مستر هيثكلف كان قريباً من بيتنا، فلم أخرج من البيت لأنّي كنت لا أزال أحمل رسالته في جيبي، ولم أكن أودّ أن يهدّدني مرّة أخرى. كنت قد قرّرت ألا أسلّم الرسالة إلى كاثرن إلا بعد أن يغادر سيّدي المنزل، لأنّي لم أكن أدري ماذا سيكون وَقْع الرسالة عليها. وكانت النتيجة أنّها لم تتسلّمها إلا بعد مضي ثلاثة أيّام. وفي اليوم الرابع وكان يوم الأحد، أحضرت الرسالة إلى غرفتها بعد أن ذهب أفراد العائلة جميعهم إلى الكنيسة. لم يبقَ في البيت سوى خادم واحد للمحافظة عليه معي. وقد كانت العادة أن نغلق أبواب المنزل أثناء الصلاة. ولكنّ الطقس في ذلك اليوم كان دافئاً وجميلاً، فتركت الأبواب مفتّحة على مصراعيها، ولكي أفي بعهدي وأبرّ بوعدي فقد قلت لزميلي الخادم إنّ السيّدة تودّ أن نحضر لها بعض

حبّات البرتقال، فكان لزاماً عليه عندئذٍ أن يذهب إلى القرية ليشتريها. فغادر المنزل ولم يبق أحد في البيت سواي والسيّدة.

كانت السيّدة لنتون تجلس كالعادة بالقرب من النافذة المفتوحة، وهي ترتدي ثوباً أبيض، وتضع على كتفها شالاً خفيفاً. وكان شعرها مسترسلاً على طبيعته فوق جيدها وقد تغيّر شكلها وتبدّلت هيئتها بسبب المرض ولكنّها كانت تبدو، إذا ما كانت في حالة نفسيّة هادئة، جميلة كالملائكة وقد حلّ محلّ بريق عينيها نظرات حالمة كئيبة. لم تعد تبدو أنّها تنظر إلى الأشياء التي حولها ولكنّها كانت تبدو دائماً أنّها تنظر إلى بعيد، بعيد جدّاً - ويمكن القول إلى عالم بعيد عن عالمنا.

وكانت الريح تعبث بصفحات كتاب وضع أمامها على حافّة النافذة، وأعتقد أنّ لنتون كان قد وضعه هناك، إلا أنّها لم تحاول أبداً أن تسلّي نفسها بالقراءة أو بأيّ شيء آخر.

وتقدّمتُ نحوها وقلت بلطف: «إنّ لك رسالة يا سيّدتي يجب أن تقرئيها حالاً لتردّي عليها. هل أفضّها؟».

أجابت: «نعم» دون أن تحوّل اتّجاه أنظارها. ففتحت الرسالة. كانت قصيرة جدّاً. وأضفت قائلة لها: «اقرأيها». سحبت يدها وأوقعت الرسالة على الأرض. رفعتها ووضعتها في حجرها ووقفت أنتظر حتى يخطر على بالها أن تخفض نظرها، ولكنّها لم تفعل ذلك، وأخيراً سألتها: «هل أتلو على مسمعك الرسالة يا سيّدتي؟ إنّها من مستر هيثكلف؟».

لاح على وجهها بريق من الذكرى، وحاولت أن تجمع شتات أفكارها. رفعت الرسالة وبدت كأنّها تقرؤها، ولمّا وصلت إلى

نهايتها ورأت اسم هيثكلف تنهّدت، ولكن لم تستطع أن تفهم مضمونها لأنّها أشارت إلى الاسم فقط، ونظرت إليّ نظرة استفهام وتعجّب.

قلت لها وقد أدركت أنّها بحاجة إلى شخص يفسّر لها ما تضمّنته الرسالة:

«إنّه يرغب في أن يراك. إنّه الآن في الحديقة، وفي انتظار الردّ الذي سأحمله إليه».

وبينما كنت أتكلّم، لاحظت كلباً كبيراً مستلقياً على الأعشاب، يرفع أذنيه كأنّه يوشك أن ينبح ثم هدأ معلناً بتحريك ذيله أنّ شخصاً غير غريب قد اقترب منه. انحنت السيّدة لنتون إلى الأمام وأصغت إذ سمعنا وقع أقدام في القاعة. أيقنت أنّ هيثكلف قد ظنّ أنّي عدلت عن البرّ بوعدي، فعزم على تنفيذ خطّته بنفسه. تطلّعت كاثرن بحماس إلى مدخل غرفتها. لم يتّجه هيثكلف إلى الغرفة المطلوبة مباشرة، إذ لم يعرف أين تجلس السيّدة، فأشارت إليّ أن أرشده وأسمح له بالدخول، ولكنّه عرف الغرفة قبل أن أصل إلى الباب، وفي خطوة أو خطوتين كان يقف إلى جانبها وضمّها بين ذراعيه.

لم يتكلّم وظلّ يضمّها بين ذراعيه مدّة خمس دقائق، وخلال ذلك قبّلها قبلات عديدة، لا أظنّ أنّه قبّلها أكثر من ذلك طوال حياته، كانت سيّدتي هي التي قبّلته قبلاً وتبيّن لي بوضوح أنّه لم يستطع أن ينظر إلى وجهها. لقد خامره شعور، كالذي كان يخامرني، منذ أوّل لحظة رآها، وهو أنّه لا أمل من شفائها، وأنّها قد اقتربت من النهاية، ولا بدّ أنّها مفارقة الحياة.

كان أوّل جملة فاه بها في لهجة لم يحاول فيها إخفاء يأسه: أوه يا كاثي! يا حياتي! كيف أستطيع أن أتحمّل هذا؟ وحملق في وجهها

حتى ظننت أنّ عينيه ستفيضان بالدموع ولكنّهما لم تدمعا، بل احترقتا من الحزن الشديد.

بادلته كاثرن نظراته وقالت: «ماذا بعد الآن؟ لقد حطّمت، يا هيثكلف، أنت، وإدغار فؤادي! وقد أتيتما إليّ تنتحبان كأنّكما تستحقّان الشفقة. إنّي لن أشفق عليك. لقد قتلتني - ما أشدّ بأسك! كم سنة تفكّر في أن تعيش بعد موتي؟».

كان هيثكلف يركع على ركبة واحدة وهو يضمّها إليه وهنا حاول أن ينهض ولكنّها أمسكت بشعره لتبقيه راكعاً. وأضافت تقول بمرارة ولوعة: «أتمنّى أن يكون باستطاعتي أن أظلّ ممسكة بك حتى نموت معاً. يجب عليّ ألا أبالي بما قاسيت. فلقد قاسيت مثل ما قاسيت! هل ستسامحني؟ وهل ستقول بعد مرور عشرين عاماً إنّ هذا قبر (كاثرن أرنشو) التي أحببتها منذ مدّة طويلة ولقد ذقت التعاسة لفقدها، ولكن ذلك عهد قد مضى. لقد أحببت بعدها كثيراً غيرها، إنّ أولادي أعزّ عندي الآن منها، وإنّي لا أحبّ الموت لأنّي ذاهب لملاقاتها، أتقول ذلك يا هيثكلف؟».

صاح قائلاً وهو يقرض أسنانه: «لا تعذبيني! هل تقمّص روحك الشيطان حتى تتحدّثين إليّ بهذا الأسلوب وأنت تقتربين من الموت؟ هل تعتقدين أنّ هذه الكلمات ستعلق بذاكرتي إلى الأبد. إنّك تعلمين يا كاثرن أنّك تكذبين عندما تقولين إنّني قتلتك، كما تعلمين أيضاً أنّني لن أنساك ولو نسيتك لنسيت نفسي، ألا يكفي أنّه بينما تكونين أنت تنعمين بالسلام أتلوّى أنا من الألم وأعذّب في حجيم الدنيا؟».

قالت كاثرن في ألم: «إنّني لن أنعم بالسلام». وأصابتها نوبة عنيفة في قلبها منعتها من الكلام، ولمّا خفّت النوبة أضافت تقول:

«إنّني لا أودّ لك عذاباً أكثر من العذاب الذي أنا فيه يا

هيثكلف. وكلّ ما أتمنّاه هو ألا نفترق، وإذا ما أساءتك كلمة منّي بعد الآن فأرجوك أن تسامحني! تعال إلى هنا واركع أمامي ثانية! إنّك لم تؤذني في حياتك، تقدّم نحوي، مرّة ثانية، أرجوك!».

تقدّم هيثكلف حتى وقف خلف كرسيها وانحنى فوقها، ولمّا دارت وجهها لتراه أدار وجهه حالاً واتّجه صوب الموقد حيث وقف صامتاً وقد أدار ظهره لها، تابعته السيّدة لنتون بنظراتها، وأطالت النظر إليه ثم خاطبتني في عبرات تدلّ على اليأس المرير وقالت:

«أوه أترين يا نيلي، إنّه لن يهدأ له بال لحظة واحدة حتى يبعدني عن القبر. لقد أحبّني. لا بأس، إنّه ليس بهيثكلف الذي أحبّه ومع هذا فسأحبّه وأدعوه ليرافقني، إنّه روحي».

ومضت تقول «إنّ الشيء الوحيد الذي يؤلمني أكثر من أيّ شيء آخر هو هذا السجن، لقد مللت البقاء هنا. إنّي أودّ الفرار إلى ذلك العالم المجيد لأعيش هناك دائماً. نيلي، إنّك تشفقين عليّ لأنّي ضعيفة وهزيلة ولأنّك ممتلئة صحّة وعافية، إنّ كلّ شيء سيتحوّل سريعاً. سأشفق عليك. وسأتفوّق عليكم جميعاً».

وأخذت تحدّث نفسها قائلة «أعتقد أنّه يتمنّى أن يكون دائماً بجانبي. هيثكلف، حبيبي! يجب ألا تحزن. اقترب منّي يا هيثكلف!».

وفي حماسة نهضت عن كرسيّها مستعينة بذراع المقعد. ولبّى هيثكلف دعوتها وكان اليأس يبدو واضحاً في تلك الساعة. كانت عيناه دامعتين وصدره يخفق بشدّة. وقفا ينظران إلى بعضهما لحظة ثم اقتربا، ولا أدري كيف اقتربا، وكلّ ما شاهدته، إنّ كاثرن قفزت فتلقّاها بين ذراعيه وضمّها إليه ضمّة جعلتني أعتقد أنّها لن تتخلّص من ذراعيه وهي على قيد الحياة وألقى هيثكلف بنفسه على أقرب

مقعد ولمّا اقتربت منه لأعرف ما إذا كان قد أُغمي عليها قرض أسنانه من الغيظ، وأرغى وأزبد ككلب مصروع. وضمّها إلى صدره أكثر من ذي قبل. لقد شعرت عندئذٍ أنّني لست في صحبة مخلوق من طينتي وبدا لي أنّه لم يعد يفهم ما أقوله له، فابتعدت عنه وقد عقد لساني من الحيرة والاضطراب.

تحرّكت كاثرن فاطمأنّ بالي قليلاً، ورفعت يدها لتمسك بجيده وألصقت وجنتها بخدّه بينما أخذ يقبّلها قبلات جنونيّة في كلّ موضع من رأسها وقال:

«لقد لقّنتني الآن يا كاثرن درساً أبان لي كم كنت قاسية - قاسية وخدّاعة. لماذا احتقرتينني؟ ولماذا خدعت قلبك؟ إنّني لم أسمع منك كلمة واحدة تسعدني. إنّك تستحقّين هذا الألم، لقد قتلت نفسك. نعم، يمكنك أن تقبّليني وتبكي. لقد أحببتني - فبأيّ حقّ إذن تهجرينني؟ بأيّ حقّ - أجيبي - هل أضلّك الوهم الزائل الذي شعرت به نحو لنتون؟ إنّه لم يكن باستطاعة أيّ شيء في الدنيا أن يفرّق بيننا، لا التعاسة ولا الشقاء، ولا الموت، ولكنّك أنت بإرادتك وحدك فرّقت بيننا. إنّني لم أحطّم قلبك - ولكن أنت التي حطّمته، وبتحطيمك له حطّمت قلبي. إنّ قوّتي مصدر تعاستي. هل تظنّين أنّي أحبّ الحياة؟ ما هي الحياة التي سأحياها بعد - أوه، يا إلهي!».

قالت كاثرن: «اتركني وحدي، اتركني وحدي! إن كنت قد أخطأت فإنّي أموت من أجل ذلك. إنّ هذا يكفي! لقد هجرتني أنت أيضاً، ولكنّي لن ألومك. إنّي أسامحك، سامحني!».

أجاب: «إنّه من الصعب أن أسامحك وأنا أنظر إلى هاتين العينين وألمس هاتين اليدين. قبّليني مرّة أخرى، ولا تدعيني أنظر إلى عينيك! إنّي أسامحك. إنّي أحبّ قاتلتي».

وساد صمت طويل - كان وجه كلّ واحد منهما يختفي في وجه الآخر ويبلّل بدموع رفيقه.

وأخذ القلق يساورني، لأنّ الوقت كان يمرّ سراعاً فالخادم الذي أرسلته إلى القرية قد عاد. فقلت لهما: «إنّ الصلاة قد انتهت، وسيعود سيّدي إلى البيت بعد نصف ساعة».

أرسل هيثكلف من فمه لعنة وضمّ كاثرن إليه وقرّبها من جسمه أكثر من السابق إلا أنّها لم تتحرّك.

ولم يمض وقت طويل حتى رأيت الخدم يدخلون البيت ويتّجهون صوب المطبخ. ولم يكن مستر لنتون ببعيد عنهم، ولقد فتح الباب الخارجي بنفسه بعد أن دخلوا البيت وتقدّم بخطوات بطيئة نحو الباب الداخلي.

قلت: «لقد عاد، بحقّ السماء اهبطْ إلى الطابق السفلي! أسرع واختبئ بين الأشجار».

قال هيثكلف وهو يحاول أن يتخلّص من بين ذراع رفيقته: «يجب أن أذهب يا كاثي، وإذا ما بقيت حيّاً فسأراك مرّة أخرى قبل أن تنامي. إنّني لن أبتعد أكثر من خمس ياردات عن نافذة غرفتك».

أجابت وهي تمسك به بكلّ ما فيها من عزم وقوّة: «يجب ألا تذهب، أقول لك، لا تذهب».

قال لها متوسّلاً: «سأغيب عنك ساعة واحد فقط».

أجابت: «ولا دقيقة واحدة».

قال: «إنّ لنتون قد عاد ويجب أن أتركك».

حاول أن ينهض ولكنّها تعلّقت به أكثر من ذي قبل وصاحت: «لا، لا تذهب. هذه آخر مرّة أراك فيها! إنّ إدغار لن يؤذينا، هيثكلف إنّي سأموت، سأموت!».

غاص هيثكلف في مقعده وصاح: «لقد أقبل. يا حبيبتي، كاثرن، حبيبتي سأبقى إلى جانبك. فإذا ما أطلق الرصاص عليّ فسأموت عندئذٍ قرير العين».

وضمّا بعضهما مرّة أخرى. سمعتُ وقع أقدام سيّدي يصعد السلّم فتصبّب العرق البارد على جبهتي من شدّة الرعب والفزع.

قلت: «هل تودّ أن تصغي إلى هذيانها؟ إنّها لا تدري ماذا تقول. هل تريد أن تحطّمها؟ انهض وغادر المكان حالاً. إنّ هذا أعظم عمل شيطاني فعلته في حياتك».

شددت على يدي وأنا في حالة اضطراب شديد وصحت عندئذٍ بأعلى صوتي. أسرع مستر لنتون نحو الغرفة حالما سمع صياحي. وبينما أنا مضطربة حائرة، لاحظت أنّ ذراعي كاثرن قد تدلّيا ومال رأسها إلى الأمام. فقلت في نفسي: «إنّه ربّما أغمي عليها أو ماتت ومن الأفضل أن تكون قد ماتت حتى لا أتحمّل وزر عملها».

قفز إدغار نحو ضيفه الدخيل وهو يتميّز غيظاً. ولم أعلم ماذا كان ينوي أن يصنعه. إلا أنّ هيثكلف منعه من أن يفعل شيئاً، إذ أفلت كاثرن التي كانت تبدو لا حياة فيها بين ذراعيه. وقال: «انظر إليها! انظر إليها! أسعِفْها أوّلاً، ثم كلّمني!».

غادر هثيكلف الغرفة إلى غرفة الجلوس. وطلب منّي مستر لنتون أن أتقدّم نحوه وبصعوبة كبيرة استطعنا أن نعيدها إلى وعيها، ولكنّها كانت كثيرة الاضطراب، حائرة لا تدري ماذا يدور حولها، وتتأوّه، وترسل أنيناً خافتاً. نسي إدغار من قلقه عليها هيثكلف. إلا أنّني لم أنسه. ذهبت إليه في أوّل فرصة سنحت لي ورجوته أن يغادر البيت، وأكّدت له أنّ كاثرن أحسن حالاً من ذي قبل وقلت له إنّي سأبلغه في الصباح كيف قَضَتْ ليلتها.

أجاب: «سأخرج من البيت ولكنّي لن أغادر الحديقة وأستحلفك أن تخبريني في الصباح عن أحوالها. سأنتظرك تحت تلك الشجيرات. إيّاك أن تخنثي بالعهد، فإنّي سأدخل البيت سواء أكان لنتون داخله أو لم يكن».

وألقى نظرة سريعة من خلال باب الغرفة، ولمّا تأكّد أنّ ما قلت له يبدو صحيحاً غادر البيت وتخلّصنا منه ومن سوء طالعه.

16

حوالي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة ولدت كاثرن التي رأيتها أثناء زيارتك (لمرتفعات وذرينغ). ولدت في الشهر السابع من حملها وقبل أن تكمل أمّها شهور الحمل التسعة. وبعد مرور ساعتين على ولادة الطفلة صعدت روح الوالدة إلى الباري تعالى. ولقد حزن إدغار على وفاة شريكة حياته حزناً لا يوصف، ولقد ترك هذا الحزن في نفسه أثراً عميقاً لم يُمْحَ مع الأيّام وظهرت نتائجه فيما بعد. مسكينة تلك المولودة الجديدة! لم يعبأ بقدومها أحد، وظلّت في الساعات الأولى لولادتها تبكي باستمرار دون أن يلتفت إليها إنسان. فعاقبنا الله على هذا الإهمال فيما بعد.

وطلع صباح اليوم التالي، وكان يوماً مشمساً نضراً، وبهيجاً، وتسلّل الصبح برقّة وحذر من بين نوافذ الغرفة إلى السرير وألقى بهاءه على إدغار لنتون والجثّة التي كانت إلى جانبه. كان إدغار قد أضجع رأسه على الوسادة وأغمض عينيه، فبدت ملامح وجهه الجميلة كملامح وجه الجثّة التي إلى جانبه، ميتة، لا حراك فيها، ولكن موت ملامحه كان يدلّ على السكوت الناجم عن الألم المضيض وموت ملامحها كان يدلّ على السلام الحقيقي. كانت جبهتها ملساء

ناعمة، وجفناها مغلقتين، وشفتاها ترتسم عليهما الابتسامة - ولا يمكن لأيّ ملاك في السماء أن يبدو كما تبدّت. ولا أذكر أنّني شعرت بقدسيّة في حياتي أكثر ممّا شعرت بها عندما تطلّعت إلى ذلك الهدوء اللانهائي الذي كان يغمر الراحلة. ووجدت نفسي بلا شعور أردّد الكلمات التي نطقت بها قبل وفاتها ببضع ساعات: «إنّها فوقنا جميعاً. سواء كانت لا تزال على الأرض أو أنّها الآن في السماء فإنّ روحها خالدة مع الله».

إنّي لا أعرف سرّ السعادة التي تغمرني وأنا في غرفة الموت. وإنّي أرى في جلال الموت راحة لا تستطيع قوّة في الأرض أو في السماء أن تزيلها، وأشعر بالأمان اللانهائي في عالم الخلود، حيث الحياة لا تحدّد بزمن، وليس للسعادة نهاية.

وسألت السيّدة دين مستر (لوك ود) أن يردّ على سؤالها الغريب ومضت السيّدة دين في حديثها قائلة:

«كان سيّدي يبدو غارقاً في نومه، فغادرت الغرفة حالاً بعد طلوع الشمس متسلّلة إلى حيث الهواء النقي الطلق. وظنّ الخدم أنّني خرجت لأطرد النعاس عن جفني والحقيقة أنّي لم أخرج إلى ساحة المنزل إلا لأقابل مستر هيثكلف الذي لم يسمع شيئاً عن الحادث لأنّه بقي طول الليل كما كنت أعتقد بين الأشجار النائية. كنت أرغب في أن أقابله ولكنّي كنت أشعر برهبة النبأ المفزع الذي سأبلغه إيّاه.

كان هيثكلف يقف في الحديقة على مسافة بضع ياردات من المنزل، متّكئاً على غصن شجرة كبيرة وممسكاً قبّعته بيده، وقد تبلّل شعره بقطرات الندى التي كانت قد تجمّعت على الأغصان أثناء الليل. وقد اتّضح لي أنّه كان يقف ثابتاً في مكانه منذ وقت طويل

لأنّي رأيت العصافير تروح وتجيء بالقرب من أقدامه وهي منهمكة في بناء عشّ لها. وقد طارت عندما تقدّمت، فرفع هيثكلف عينيه وقال لي:

«لقد ماتت! إنّي لم أنتظر سماع النبأ منك. ارفعي منديلك، ولا تنتحبي في محضري. لعنكم الله جميعاً! إنّها ليست في حاجة إلى دموعكم!».

كنت أبكي عليه كما أبكي عليها، فقد نشعر أحياناً بالشفقة على أناس لا يشفقون على أنفسهم وعلى غيرهم. وقد لاحظت أوّل ما تطلّعت إلى وجهه أنّه قد علم بالكارثة، وأنّه كان يصلّي، إذ كانت شفتاه تتحرّكان ونظراته مصوّبة إلى الأرض.

أجبته وأنا أجفّف دموعي: «نعم، إنّها ماتت! إنّي آمل بأن تكون روحها قد صعدت إلى الجنّة حيث سيلحق كلّ منّا بها إذا ما طرحنا الباطل واتّبعنا الحقّ!».

سألني وهو يحاول أن يهزأ بي: «إذن هل ماتت كما يموت الملاك؟ هيّا أعطني صورة حقّة عمّا جرى. كيف -».

حاول أن ينطق بالاسم، ولكنّه لم يستطع... ثم قال بعد فترة صمت قصيرة: وكيف ماتت؟ ولاحظت أنّه كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه.

وقلت مخاطبة نفسي: «مسكين، ما أشقاك، إنّ لك قلباً وأعصاباً كسائر الرجال! لماذا تحاول إخفاء مشاعرك ومخاوفك؟ إنّك لا تستطيع أن تخفي كبرياءك عن الباري تعالى! لقد تحدّيت الله حتى أرغمكَ على الخضوع له».

ثم أجبت هيثكلف بصوت عالٍ: «لقد ماتت بهدوء! تأوّهت، ثم

تراخت وغرقت في سبات عميق، وبعد مضي خمس دقائق نبض قلبها النبضة الأخيرة».

سألني متردّداً كأنّه كان يخشى أن يتضمّن الجواب تفاصيل لا قلب له على تحمّلها: «وهل ذكرتني قبل موتها؟».

أجبت: «إنّها لم تستردّ شعورها ولم تستطع معرفة الذين هم حولها منذ أن تركتها. كانت مستلقية في السرير ترتسم على محياها ابتسامة عذبة، وكان آخر ما جال في مخيّلتها أيّام طفولتها الحلوة. لقد انتهت حياتها في حلم جميل - وأسأل الله أن تستيقظ في العالم الآخر على النحو الذي ماتت فيه!».

صاح وهو يضرب بقدمه الأرض ويئنّ أنيناً محزناً: «أرجو أن تستيقظ بالعذاب! لماذا كذبت عليّ حتى النهاية! أين هي الآن؟ إنّها ليست هناك، ولا في السماء - أين إذن؟ هل قلت إنّها لم تبال بآلامي! إنّني سأدعو الله دعوة واحدة صادقة وسأكرّرها حتى يجفّ لساني، وهي ألا يذيقك الله يا كاثرن أرنشو طعم الراحة طول ما ظللت أنا على قيد الحياة! لقد قلت إنّني قتلتك - فاسحريني إذن! إنّي أعتقد أنّ القتلى يسحرون قتلاهم. ابقي معي دائماً - اتّخذي أيّ شكل تريدينه - خذي عقلي!

ولكن لا تتركيني وحدي في حيرة ومهمّة قفر، أبحث عنك فلا أستطيع العثور عليك. يا إلهي! إنّ هذا شيء لا يحتمل! إنّي لا أستطيع العيش بدون حياتي! إنّي لا أستطيع أن أعيش بلا روحي!».

وضرب برأسه جذع الشجرة، وصرخ بصوت عالٍ أشبه بصوت وحش مفترس قد طعن بالحراب والمدى. فلاحظت بعد ذلك عدّة نقاط من الدم عالقة بالجذع، وأنّ يده وجبهته قد لطّختا بالدم أيضاً، وأعتقد أنّ هذا المنظر كان إعادة لمشاهد أخرى وقعت خلال الليل.

لقد أفزعني ذلك المشهد ومع هذا فلَمْ أكن راغبة في تركه وحيداً. وعندما استجمع قواه العقليّة وأبصر بي، قال لي بصوت كالرعد أن أغرب عن وجهه فامتثلتُ، إذ كنت أعتقد أنّه ليس في مقدوري أن أواسيه في مصابه.

وقد حدّد نهار الجمعة الذي تلا وفاة السيّدة لنتون، يوم تشييع جثمانها إلى الدار الآخرة، وقد ظلّت مسجّاة في غرفة الاستقبال الكبرى حتى ذلك اليوم في تابوت مفتوح نثرت عليه الزهور وأوراق الرياحين. وقضى مستر لنتون أيّامه ولياليه في الغرفة يحرس الجثمان، بينما قضى هيثكلف لياليه خارج الغرفة، دون أن يعلم أحد بذلك سواي. لم أتواصل معه غير أنّي كنت واثقة من أنّه يعتزم وداع كاثرن. وفي مساء الثلاثاء شعر سيّدي بتعب شديد فاضطر إلى أن يأوي إلى فراشه بضع ساعات، فعندئذٍ فتحتُ إحدى نوافذ الغرفة لأمنح هيثكلف فرصة ليلقي النظرة الأخيرة على جثمان الفقيدة. وقد اغتنم هذه الفرصة بالفعل ودخل الغرفة بحذر شديد وخفّة. ولو أنّني لم ألاحظ إزاحته للنقاب المسدل على وجه الجثمان، ووجود خصلة من الشعر الأشقر مربوطة بخيط فضّي اللون على الأرض لما تأكّدت أنّه دخل الغرفة. وقد فحصت خصلة الشعر فوجدت أنّها أُخذت من القلادة المعلّقة في جِيْد كاثرن. كان هيثكلف قد فتحها وألقى بمحتوياتها على الأرض ووضع في مكانها خصلة سوداء من شعره. غير أنّي عقصت الخصلتين ووضعتهما معاً في القلادة.

دُعِيَ مستر أرنشو، لحضور تشييع جثمان شقيقته إلى مقرّه الأخير، لكنّه لم يحضر ولم يرسل أيّ اعتذار. وهكذا لم يكن بين المشيّعين سوى زوج الفقيدة وبعض الخدم ومستأجر أملاك لنتون. وممّا يذكر أنّ إيزابيلا لم توجّه إليها الدعوة لحضور الجنازة.

لم تدفن كاثرن، في الكنيسة حيث يجري عادة دفن أفراد عائلة لنتون، أو بالقرب من قبور أقربائها خارج الكنيسة، وإنّما دُفنت في ضريح في زاوية من زوايا ساحة الكنيسة حيث الأعشاب الكثيرة.

17

وفي مساء الجمعة، يوم تشييع جثمان كاثرن، تبدّل الطقس الجميل، وهبّت عواصف هوجاء مصحوبة بالبرد والثلوج. لزم سيّدي غرفته، واستوليت على غرفة الجلوس وحوّلتها إلى غرفة للطفلة. وبينما كنت أهلّل لها على ركبتي، فتح الباب فجأة، ودخل شخص الغرفة وهو يلهث من شدّة التعب. كان غضبي يفوق دهشتي في اللحظة الأولى إذ اعتقدت أنّ الداخل أحد الخدم فصحت قائلة:

«ما هذا؟ كيف تتجرّئين على دخول الغرفة على هذا النحو؟ ماذا سيكون مصيرك لو علم مستر لنتون ذلك؟!».

سمعت صوتاً مألوفاً يجيبني قائلاً: «سامحيني! إنّي أعلم أنّ إدغار في فراشه الآن».

وتقدّمت المتكلّمة صوب الموقد وهي تمسك خصرها بيدها. وأضافت تقول بعد فترة صمت قصيرة: «لقد ركضت طول الطريق من مرتفعات وذرينغ إلى هنا. ولا أستطيع أن أذكر عدد المرّات التي سقطت فيها. أوه إنّ أعضائي جميعها تؤلمني!».

«لا تخافي! سأوضح لك كلّ شيء بعد أن أستريح، وكلّ ما أرجوك أن تفعليه أن تأمري سائق العربة بتوصيلي إلى غمرتون. وأن تطلبي من الخادمة أن تحضر لي بعض الثياب من خزانتي».

لقد كان ذلك الشخص المتطفّل هو السيّدة هيثكلف. كان شعرها مسترسلاً على كتفيها مبلّلاً بالثلج والماء، وكانت ترتدي ثياباً بسيطة تتناسب مع سنّها أكثر ممّا تتناسب مع مركزها، ولم يكن يغطّي رأسها أو عنقها أيّ شيء. وكانت رجلاها لا يحميهما سوى خفّ رقيق. ولاحظت وجود جرح عميق تحت أذنها حال البرد دون تدفّق الدم منه بكثرة، وكان وجهها شاحب اللون، متورِّماً، وجسمها متعباً إلى حدّ لا تستطيع معه أن تقف على رجليها.

قلت لها: «عزيزتي أيّتها السيّدة الصغيرة، إنّني لن أتحرّك من موضعي ولن أستمع إلى شيء قبل أن تخلعي جميع ثيابك المبتلّة وتلبسي ثياباً جافّة، وبما أنّه لن يتسنّى لك السفر إلى غمرتون هذه الليلة فلا حاجة أن آمر بإعداد العربة».

أجابت: «إنّني مصمّمة على السفر سواء أكان ذلك مشياً على الأقدام أو في العربة، غير أنّني لا أعارض في تغيير ملابسي».

وأصرّت على أن أقوم بتنفيذ تعليماتها قبل أن تدعني ألمسها. وهكذا لم أستطع تضميد جرحها ومساعدتها على تغيير ملابسها إلا بعد أن أمرتُ سائق العربة بالتأهّب، وأمرت الخادم بحزم الملابس الضروريّة التي تنوي أن تحملها معها.

وبعد أن انتهيت من تضميد جرحها، جلست هي على مقعد بالقرب من الموقد وقالت: «اجلسي الآن أمامي، وأبعدي عنّا طفلة كاثرن لأنّي لا أحبّ رؤيتها. لا تعتقدي بأنّني لم أكترث لوفاة كاثرن، لقد حزنت كثيراً وبكيت مرّ البكاء، لقد افترقنا كما تعلمين على غير وفاق، فلن أسامح نفسي على هذا العمل».

وأضافت تقول: «آه من ذلك الوحش القاسي! إنّني لن أعطف عليه بعد الآن، وهذا آخر شيء يربطني به». وهنا سحبت الخاتم

الذهبي من بنصرها وألقت به على الأرض. وقالت وهي تضربه برجلها: «إنّي سأحطّمه ثم أحرقه». ثم رفعته عن الأرض وألقت به في الموقد.

تابعت كلامها قائلة: «إنّي لن أجرؤ على البقاء هنا حتى لا يأتي هيثكلف لمقابلتي ويعذّب إدغار. إنّ أخي لم يعطف عليّ فلذلك لن أطلب منه العون. ولقد أرغمتني الضرورة على أن ألتجأ إلى هنا. ولو أنّي علمت أنّه موجود في هذه الغرفة، لدخلتُ إلى المطبخ وغسلتُ وجهي وطلبتُ منك أن تحضري إليّ ما أريد ثم رحلت ثانية إلى مكان لا يستطيع ذلك الشيطان أن يهتدي إليه. آه لقد كان في ثورة غضب شديدة! ولو استطاع أن يمسك بي لحدث ما لا يحمد عقباه. إنّه من المؤسف ألا تعادل قوّته قوّة أرنشو، ولو كنت أعلم أنّ باستطاعة هندلي أن يتغلّب عليه لما غادرت مرتفعات وذرينغ إلا بعد أن يقضي عليه».

قاطعتها قائلة: «حسناً، لا تتكلّمي بسرعة يا آنستي! إنّك بذلك ستحلّين العقدة التي ربطت فيها المنديل حول وجهك وعندئذٍ يسيل الدم من جديد من الجرح. اشربي قدح الشاي الذي أمامك، وهدّئي روعك».

أجابت: «إنّ هذا حقّاً. اسمعي عويل تلك الطفلة، إنّها تبكي باستمرار، أبعديها عن مسمعي لمدّة ساعة، فإنّي لن أمكث هنا أكثر من ذلك».

قرعتُ الجرس وسلّمت الطفلة إلى الخادم ثم سألت إيزابيلا عن السبب الذي حملها على الفرار من مرتفعات وذرينغ وإلى أين تنوي أن تذهب بعد أن رفضت البقاء هنا.

أجابت: «إنّي أتمنّى أن أظلّ هنا وكان ينبغي أن أظلّ لأواسي

إدغار وأعتني بطفلته، ولأنّ غرانغ هي بيتي الحقيقي. ولكن لقد قلت لك إنّ ذلك الشيطان لن يدعني. هل تعتقدين أنّه يستطيع أن يراني سعيدة موفورة الصحّة والعافية؟ أتعتقدين أنّ باستطاعته أن يرانا ننعم بالراحة ولا يحاول تعكير صفونا؟ إنّني مقتنعة الآن أنّه يكرهني إلى حدّ أنّه يشعر بضيق شديد إذا ما وقع بصره عليّ أو سمع صوتي. لقد لاحظتُ أنّه عندما يراني تتقلّص ملامح وجهه وتظهر معها كرهه الشديد لي، وهذا ما يجعلني أعتقد أنّه لن يلحق بي إذا حاولت فعلاً الاختفاء عن أعينه ولذلك يجب عليّ أن أبتعد عنه كلّ البعد، لقد شفيت من حبّه تماماً ولم أعد أتمنّى أن يقتلني لأموت، بل أتمنّى أن يقتل نفسه. لقد أصبحت أشعر براحة بعد أن انطفأت جذوة غرامي له. ولقد كانت كاثرن مخطئة جدّاً في إكرامه وتقديره مع أنّها كانت تعرف أيّ شخص هو - إنّه وحش مفترس!».

قلت: «صه! صه! إنّه إنسان عادي، إنّ هناك رجالاً أسوأ خلقاً منه».

أجابت: «إنّه ليس بإنسان. لقد وهبته قلبي فأخذه وحطّمه ثم أعاده إليّ. إنّ الناس يشعرون بقلوبهم يا ألن، وبما أنّه قد حطّم قلبي فإنّه لم يعد لي قلب لأحنو أو أعطف به عليه». وهنا أخذت إيزابيلا تبكي ولكنّها جفّفت دموعها حالاً وأردفت تقول: «لقد سألتني ما الذي حملني على الفرار. لقد أرغمت على ذلك لأنّي نجحت في إثارة غضبه. لقد شعرت بلذّة عندما وجدت نفسي أنّي قادرة على إغاظته، وقد أيقظ شعوري باللذّة غريزة حبّ البقاء في نفسي، ففررت منه إلى غير عودة.

إنّك تعلمين أنّه كان ينبغي على مستر أرنشو أن يحضر أمس تشييع جثمان شقيقته، ولكنّه لم يستطع أن يحتفظ برزانته. فقد ظلّ

يشرب الخمر من السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة، فقام وهو يترنّح سكراً وكأنّه مدعو إلى حفلة راقصة لا إلى الصلاة في الكنيسة. وبدلاً من أن يرتدي ثيابه ليشترك في الجنازة جلس إلى جانب الموقد واستأنف الشراب.

أمّا هيثكلف وإنّي لأرتجف عند ذكر اسمه - فقد كان كالغريب عن البيت منذ يوم الأحد الماضي إلى اليوم. لم يتناول معنا الطعام على المائدة حوالي أسبوع ولا أعلم ما إذا كانت الملائكة تطعمه أو أقرباؤه الشياطين. كان يحضر إلى البيت عند الفجر فيصعد إلى غرفته رأساً ويغلق بابها خلفه كأنّه يخشى أن يكون أحد ما يتمنّى رفقته ومعاشرته وهناك كان يتابع صلاته ويقرأ دعواته حتى يجفّ ريقه ويختنق صوته في حنجرته ثم يغادر الغرفة متوجّهاً إلى (غرانغ) دائماً.

وليلة البارحة جلست كعادتي في الزاوية التي اعتدت أن أقبع فيها بالقرب من الموقد، وأخذت أقرأ بعض الكتب القديمة حتى اقترب الليل من منتصفه فقد كنت أعتقد أنّه من الأفضل أن أظلّ في مكاني بدلاً من أن أصعد إلى غرفة النوم إذ كانت الرياح الثلجيّة الهوجاء تهبّ من كلّ جانب على البيت، وكانت أفكاري متّجهة إلى ساحة الكنيسة والضريح الجديد الذي حفر فيها. لم أكن أرفع عيني عن الصفحة التي أمامي حتى تجول في خاطري وتبدو أمامي خيالات وصور كئيبة. كان هندلي يجلس مقابلي، وقد أسند رأسه إلى راحة يده، وربّما كان يفكّر في الموضوع الذي كنت أفكّر فيه. كان قد توقّف عن الشراب في الساعتين أو الساعات الثلاثة الأخيرة على غير عادته، ولم يفه بأيّة كلمة. كان السكون يخيّم على جميع أنحاء البيت ولم يكن يعكّر صفو هذا السكون سوى الريح الشديدة التي تهزّ النوافذ بين حين وآخر، وصوت تكسّر الفحم في الموقد. ومن

المحتمل أنّ هرتون ويوسف كانا غارقين في نومهما. كنت أشعر بحزن شديد جدّاً فقد بدا لي في ذلك الوقت أنّ الفرح والسرور قد انعدما من الدنيا ولن يعودا إليها».

وقد قطع أخيراً حبل السكون الحزين صوت تحرّك أكرة باب المطبخ، فلقد عاد هيثكلف في ساعة مبكرة أكثر من المعتاد بسبب هبوب العاصفة المفاجئ. كان الباب مغلقاً فسمعناه يتحوّل إلى الباب الآخر في الجهة الثانية. نهضت وأنا أتمتم بعض العبارات التي لم أستطع أن أحبسها في صدري، ممّا حمل رفيقي الذي كان يتطلّع نحو الباب على أن يدير وجهه وينظر إليّ.

وقال: «إنّي أودّ أن أبقيه ينتظر في الخارج خمس دقائق، فهل تعارضين؟».

أجبت: «كلا، تستطيع أن تبقيه خارج البيت الليل بطوله. أرجوك أن تضع المفتاح في القفل وتغلق الرتاج».

حقّق أرنشو رجائي قبل أن يصل هيثكلف إلى الباب، ثم حمل كرسيّه إلى الجانب الآخر للطاولة التي أجلس بقربها، واتّكأ بمنكبيه عليها، ونظر إلى عيني نظرة كأنّه يبحث فيهما عن العطف الذي يفقده. إلا أنّه لم يجد ضالّته، ولكن وجد ما يشجّعه على الكلام.

فقال: «إنّ لي ولك حساب كبير مع ذلك الرجل يجب تسويته. يجب أن نتّحد ونتعاون ضدّه. هل أنت ناعمة، ورقيقة المشاعر كأخيك؟ وهل أنت مستعدّة أن تصبري حتى النهاية؟».

أجبت: «لقد نفد صبري وسأكون سعيدة لو كِلْتَ له الصاع صاعين، ولكن الخداع والعنف سلاحان حادّان يؤذيان كلّ من يلجأ إليهما».

قال هندلي: «إنّ الخداع والعنف يُستخدمان ضدّ الخداع

والعنف! إنّي لا أطلب منك أيّتها السيّدة أن تفعلي شيئاً سوى أن تجلسي هادئة ولا تحرّكي ساكناً. أخبريني الآن هل باستطاعتك ذلك؟ إنّي متأكّد أنّك ستسعدين مثلي بمشاهدة نهاية الشيطان، لعنة الله عليه. إنّه يقرع الباب كأنّه أصبح سيّد البيت! عديني بأنّك ستمسكين لسانك عن الكلام، وقبل أن تشير الساعة إلى الواحدة - وكانت الساعة الواحدة إلا ثلاث دقائق - ستكونين امرأة حرّة طليقة».

سحب السلاح الذي وصفتُهُ لك في رسالتي من صدره وأراد أن يطفئ الشمعة. غير أنّي سحبتها وقبضتُ على ذراعه.

وقلت له: «إنّني لن أمسك لساني عن الكلام، ويجب ألا تمسّه بسوء. دع الباب مغلقاً ولا تأتِ بأيّة حركة!».

صاح قائلاً: «لا، لقد وضعت خطّتي ووالله لأنفّذنّها. سأصنع معك جميلاً على الرّغم منك. ولا ضرورة أن تزعجي تفكيرك بالمحافظة عليّ، لقد ذهبت كاثرن. ولم يعد هناك في الدنيا إنسان يحزن لموتي، إنّ الوقت قد حان لأضع حدّاً لهذه الحياة».

أسرعت نحو النافذة لأحذّر هيثكلف من المصير الذي ينتظره. وقلت:

«من الأفضل أن تجد لك مكاناً آخر تلجأ إليه هذه الليلة، لأنّ مستر أرنشو ينوي أن يطلق الرصاص عليك إذا حاولت الدخول».

أجابني: «من الأفضل أن تفتحي الباب أنت أيّتها...».

قلت: «إنّني لن أتدخّل في هذا الأمر، ادخلْ إذا شئت فيطلق عليك الرصاص عندئذٍ. لقد قمت بواجبي».

ثم أغلقت النافذة وعدت إلى مكاني بجانب الموقد. وأخذ أرنشو يغلظ القول لي ويؤكّد أنّي ما زلت أحبّ ذلك الوغد لقد كنت

أعتقد في قرارة نفسي أنّه من الخير لأرنشو أن يتخلّص على يد هيثكلف من التعاسة والشقاء، أمّا بالنسبة لي فمن الخير لو استطاع أرنشو أن يبعث بهيثكلف إلى مأواه الحقيقي!

وبينما كانت تجول هذه الخواطر في رأسي، دوّى صوت سقوط النافذة على الأرض، وظهر هيثكلف من خلالها. كان شعره وثيابه يكسوهما الثلج، وأسنانه البيضاء تلمع في الظلام من جرّاء البرد والغضب. كان يعتقد أنّه يستطيع أن يدخل من النافذة، لكنّ القضبان الحديد كانت قريبة من بعضها فلم يستطع أن يدخل كتفيه من بينها. وعندئذٍ صاح بي:

«إيزابيلا، دعيني أدخل، وإلا فإنّك ستندمين».

أجبت: «إنّي لا أستطيع أن أساعد على وقوع جريمة في البيت. إنّ مستر هندلي يقف متربّصاً بك، وهو يحمل في يده مدية وفي الأخرى مسدّساً محشوّاً بالرصاص».

قال: «دعيني أدخل من باب المطبخ».

قلت: «سيصل هندلي إلى الباب قبلي. إنّني لو كنت مكانك يا هيثكلف لتوجّهت إلى قبر كاثرن ومددت جسدي فوقه لأموت كما يموت الكلب المخلص لسيّده. إنّ الحياة لم تعد تستحقّ العيش بعد الآن بالنسبة إليك لقد أوضحت لي أنّ كاثرن كانت كلّ سعادتك في الحياة فكيف تفكّر بالحياة بعد أن فقدتها؟».

صاح رفيقي وهو يندفع نحو فجوة النافذة: «إنّه ها هنا أليس كذلك؟ آه لو أستطيع أن أمدّ ذراعي لقتلته دون ريب».

وما كاد ينهي هذه الكلمات حتى هجم هيثكلف على سلاح أرنشو وخلّصه من قبضة يد عدوّه.

انطلق المسدّس، وانطبقت المدية على رسغ صاحبها. فسحبها

هيثكلف بالقوّة فجلطت جلدة هندلي، ثم ألقى هيثكلف بها في جيبه وأخذ حجراً فحطّم الجزء القائم بين النافذتين وقفز إلى الداخل. كان خصمه قد سقط فاقد الوعي من شدّة الألم ومن تدفّق الدم الذي تفجّر من أحد شرايينه. فضربه برجله ثم وطأ على جسده بقدمه، وضرب رأسه بالأرض بينما أمسك بيدي ليمنعني من نداء يوسف، ولم يتركه قبل أن ينهي على حياته إلا لأنّه شعر بأنفاسه تختنق في صدره. سحب الجسد الذي أصبح لا حراك فيه إلى المقعد الطويل. وهنا اقتطع قطعة من القماش من معطف أرنشو وضمّد بها الجرح بقساوة ووحشيّة.

ولما تخلّصتُ من يده وأصبحت حرّة طليقة لم أُضِعْ لحظة واحدة وناديت الخادم العجوز الذي أسرع يهبط السلّم عندما علم بالحادث وقال:

«ماذا يجب أن نفعل الآن، ماذا يجب أن نفعل الآن؟».

صاح هيثكلف في وجهه كالرعد: «إنّه جنون سيّدك، إذا استمرّ على قيد الحياة شهر آخر وجب عندئذٍ إرساله إلى مستشفى المجاذيب. لا تقف هناك ترغي وتزبد، تقدّم إنّني لست على استعداد لتولّي أمر الاعتناء به!».

قال يوسف متسائلاً: «وهكذا، كنت تنوي إذن قتله؟» ورفع يديه وعينيه في فزع.

دفعه هيثكلف بيده إلى وسط الدماء ورمى إليه بممسحة، وبدلاً من أن يبدأ بتنشيف الدم، ضمّ راحتيه وركع على ركبتيه وأخذ يصلّي ممّا أثار الضحك في نفسي. لقد كنت عند ذاك في حالة نفسيّة لا أخشى فيها أيّ شيء.

وفجأة قال هيثكلف الظالم: «أوه، لقد نسيتك، عليك أن

تمسحي الأرض، تبّاً لك وحتى أنت تتآمرين معه ضدّي، أيّتها الحيّة الرقطاء! إنّ هذا العمل يناسبك!».

وأخذ يهزّني هزّاً عنيفاً حتى اصطكّت أسناني ثم دفعني إلى جانب يوسف، الذي كان قد أنهى عند ذاك مهمّته ونهض من مكانه وهو يتوعّد بأنّه سيتوجّه فوراً إلى (غرانغ)، ليبلّغ النبأ إلى مستر لنتون بصفته قاضياً. لقد كان ينوي فعلاً تنفيذ قراره، ممّا جعل هيثكلف يرغمني على أن أروي له تفاصيل الحادث. ولقد بذلت جهداً كبيراً في إقناع الخادم العجوز أن هيثكلف لم يكن المعتدي. وعلى كلّ فلم يمض وقت طويل حتى برهن مستر أرنشو على أنّه ما زال حيّاً. وهنا أسرع يوسف إلى إعطاء سيّده جرعة من البراندي، فعادت الحياة إليه من جديد. كان هيثكلف يعلم أنّ خصمه يجهل المعاملة التي عومل بها وهو فاقد الشعور. وما أن استردّ شعوره حتى وصفه بأنّه مجنون ونصحه بأن يذهب إلى فراشه. وممّا أبهجني أنّه تركنا بعد أن قدّم نصيحته إلى هندلي، ولم يمضِ بعد ذلك وقت طويل حتى توجّهت إلى غرفتي وأنا لا أكاد أصدّق بأنّني قد نجوت منه بهذه السهولة.

وفي صباح هذا اليوم هبطت السلّم إلى الطابق السفلي فوجدت مستر أرنشو جالساً بجانب الموقد، معتلّ الصحة بينما كان هيثكلف يضطجع مقابل المدخنة. ولم يكن أحدهما يرغب على ما يظهر في تناول طعام الإفطار، انتظرتهما حتى برد الأكل، ولمّا لم يتقدّم أحدهما إلى تناول أيّ شيء، ابتدأت في تناول الطعام وحدي. لم يكن أيّ شيء يمنعني من الأكل بشهيّة وكنت بين الفينة والفينة ألقي بنظرة على رفيقيّ الصامتين. وبعد أن أنهيت طعامي، تجرّأت واقتربتُ من الموقد.

لم يحاول هيثكلف أن يتطلّع إليّ، فأمعنت النظر في وجهه وملامحه التي كانت جامدة كالحجر. كانت سحابة كثيفة تغطّي جبهته التي كنت أرى فيها رمز الرجولة في السابق ورمز الشياطين في الوقت الحاضر، وكانت عيناه الواسعتان ذابلتين من قلّة النوم والبكاء وجفناه كانا لا يزالان مبلّلان بالدموع، أمّا شفتاه فكان الحزن الصامت قد ختم عليهما بخاتمه. وبعد قليل طلب هندلي قليلاً من الماء، فأحضرت له كأساً وسألته كيف حاله.

أجاب: «ليس كما أرجوه. إنّ كلّ عضو في جسمي يؤلمني كأنّي كنت أقاتل فرقة من الشياطين».

قلت: «نعم، لا عجب، لقد كانت كاثرن تفتخر بأنّها تمنع عنك الأذى، ولو بُعثت من قبرها الليلة الماضية لشهدت مشهداً لا يسرّ! ألم تجرح في صدرك وكتفيك؟».

أجاب: «إنّني لا أعلم، ولكن ماذا تقصدين؟ هل تجرّأ على ضربي عندما سقطت على الأرض؟».

قلت في همس: «لقد داسك بقدمه بعد أن طرحك على الأرض. وكاد أن يمزقّك بأسنانه، إنّه نصف شيطان».

نظر مستر أرنشو كما كنت أنظر إلى عدوّنا المشترك الذي كان غارقاً في آلامه وحزنه، ويبدو أنّه كان لا يعي ما يدور حوله.

وقال هندلي بصوت يشبه الأنين وهو يحاول النهوض: «لو يمنحني الله القوّة الكافية لقتله في آخر أيّامي الحزينة لما تردّدت في ذلك وذهبت إلى الجحيم وأنا مرتاح الضمير مغتبط الفؤاد».

ثم غاص في مقعده من جديد بعد أن اقتنع أنّه ليس لديه القوّة الكافية للنضال.

قلت في صوت عالٍ: «لا، ألا يكفي أنّه قتل كاثرن. إنّ كلّ

إنسان يعلم في (غرانغ) أنّه لولا مستر هيثكلف لظلّت شقيقتك على قيد الحياة حتى الآن. إنّني عندما أتذكّر كم كنّا سعداء وكم كانت كاثرن سعيدة، قبل أن يعود، ألعن اليوم الذي عاد فيه».

لفتت هذه الكلمات انتباه هيثكلف إذ رأيت عينيه تسكبان الدموع. حملقتُ في وجهه وضحكتُ باستهزاء.

صاح في وجهي وقال: «انهضي واغربي عن عيني».

قلت: «أرجو المعذرة. لقد أحببت كاثرن كما كنت تحبّها، وأخوها الآن بحاجة إلى من يعتني بأمره فلأجلها سأعتني به. لقد ماتت، وإنّي أراها في هندلي! إنّ له عينان تشبهان عينيها تماماً، وإنّه –».

حرّك نفسه ليخيفني وقال: «انهضي أيّتها التعسة البلهاء قبل أن أقتلك».

قلت وأنا أستعدّ للفرار من أمامه: «ولكن لو أصبحت كاثرن المسكينة، تحمل اسم السيّدة هيثكلف، المزدري، الحقير، لما استطاعت أن تتحمّل سلوكك المشين».

كانت الأريكة ومستر أرنشو يفصلان بيني وبين هيثكلف الذي بدلاً من أن يحاول الإمساك بي، تناول سكّيناً عن طاولة الطعام وضربني بها على رأسي. أصابتني عند أسفل أذني فلم أستطع أن أتمّ حديثي. قفزتُ إلى الباب، وكان آخر عهدي به أنّي رأيته يلحق بي هائجاً غاضباً فأمسك به مضيفه حتى يمنعه من اللحاق بي وضمّه إليه فسقط الاثنان، وهما ما زالا ممسكان ببعضهما، على الموقد. وفررتُ وفي طريق فراري من المطبخ قلت ليوسف أن يسرع لمساعدة سيّده ثم غادرت البيت إلى الطريق العام، وبعد أن قطعت المنحنيات

عبرت رأساً المرج وسط المستنقعات متّجهة صوب (غرانغ)، وقرّرت ألا أعيش ليلة أخرى بعد الآن تحت سقف مرتفعات وذرينغ.

وتوقّفت إيزابيلا هنا عن الكلام، وتناولت جرعة من الشاي ثم نهضت وطلبت منّي أن أضع على رأسها قبّعتها والشال الكبير الذي أحضرته لها، ولمّا لم تعر توسّلاتي لتبقى ساعة أخرى أيّ اهتمام وقفَتْ على كرسي وقبّلت صورتيّ إدغار وكاثرن، ثم حيّتني وغادرت البيت إلى العربة ترافقها الخادمة (ماني) التي كادت تطير فرحاً لرؤية سيّدتها مرّة ثانية. وهكذا غادرت إيزابيلا هذه المنطقة ولم تعد إليها أبداً في حياتها، ولكنّها كانت دائماً على اتّصال مع سيّدي بعد أن سُوِّيت الأمور بينهما. وأعتقد أنّ مكان إقامتها الجديد كان في جنوبي إنجلترا بالقرب من لندن حيث أنجبت طفلاً بعد فرارها ببضعة أشهر. وقد سمّته لنتون غير أنّه كان معتلّ الصحّة منذ ولادته.

وقد قابلني مستر هيثكلف ذات يوم في القرية فسألني عن مقرّ إقامتها فرفضتُ أن أخبره فأبدى عدم اهتمام بأمرها. ومع أنّي لم أُدْلِ إليه بأيّة معلومات عن مقرّ إيزابيلا الجديد فقد اكتشف ذلك عن طريق أحد الخدم، إلا أنّه لم يتّصل بها، وكان كثيراً ما يسأل عن الرضيع كلّما رآني، وعند سماعه اسم ابنه كان يبتسم ابتسامة حزينة ويقول:

«إنّهم يريدون منّي أن أكرهه أيضاً، أليس كذلك يا نيلي؟» فأجيبه:

«إنّي لا أعتقد أنّهم يريدون أن تعرف شيئاً عنه».

فيقول: «ولكنّي سأتولى رعايته بنفسي عندما أشاء» ومن حسن حظّ هيثكلف أنّ إيزابيلا ماتت قبل أن يحين الوقت الذي يستطيع فيه تولّي رعاية ابنه، ماتت إيزابيلا بعد مرور حوالي ثلاث عشرة سنة من وفاة كاثرن، أي عندما كان لنتون في الثانية عشرة أو أكثر قليلاً.

وفي اليوم الذي تلا زيارة إيزابيلا غير المتوقّعة لم يتح لي فرصة مقابلة سيّدي، إذ كان لا يودّ مقابلة أيّ إنسان. ولمّا وجدت فيما بعد أنّ الفرصة موافية لمحادثته تبيّن لي أنّه سرّ من إبلاغه نبأ هجر شقيقته لزوجها الذي كان يضمر له أشدّ الكره والبغضاء في نفسه، حتى إنّه كان قد امتنع عن الذهاب إلى أيّ مكان يحتمل أن يرى فيه هيثكلف أو يسمع عنه. ولقد جعل منه الحزن والكره ناسكاً تماماً. استقال من منصبه كقاضٍ، ولم يعد يزور الكنيسة ليحضر الصلاة، وأصبح يتجنّب زيارة القرية في جميع الظروف والحالات، وهكذا صار يقضي أيّامه في عزلة تامّة ضمن حدود حديقته وأراضيه إلا أنّه كان يقوم أحياناً بجولات في المروج وحيداً أو يزور ضريح زوجته وذلك إمّا في المساء، أو في الصباح الباكر، عندما تكون الطرق مقفرة من السابلة. وتدريجيّاً رضخ إلى مشيئة الله، وصار يستعيد ذكراها وبشوق متأمّلاً لقياها في العالم الآخر.

ووجد إدغار سلوى في ابنته التي سمّاها بكاثرن كاسم أمّها. وكان يناديها دائماً بكاثي تحبّباً. وكان تعلّقه بها ناتجاً من كونها ابنة كاثرن أكثر من كونها ابنته. وكنت كثيراً ما أقارن بينه وبين هندلي أرنشو. وأتساءل لماذا كانت أخلاقهما مختلفة مع أنّ ظروفهما متشابهة. لقد كانا كلاهما يحبّان زوجيهما حبّاً كثيراً فكنت لا أستطيع إيجاد تفسير لعدم اتباعهما الطريق نفسه سواء كانت خيراً أم شرّاً. فعندما تحطّمت السفينة التي يقودها هندلي تخلّى عن منصبه، وبدلاً من أن يحاول إنقاذها اندفع في خضمّ الفوضى والاضطراب وتركها تتخبّط بين الأمواج العاتية. أمّا لنتون فعلى العكس منه، فعندما تحطّمت سفينته وثق بالله وآمن به، فأدخل الله الطمأنينة والراحة إلى نفسه. لقد يئس الأوّل، ولم يقنط الثاني من رحمة الله.

ولقد كانت نهاية أرنشو مثلما كنّا نتوقّعها. فقد وافته منيّته سريعاً بعد شقيقته ولم تطل المدّة بينهما أكثر من ستّة أشهر. ولم نعلم نبأ وفاته إلا عندما دعينا لاتّخاذ الترتيبات الخاصّة بتشييع جنازته. وكان الشخص الذي أبلغنا الحادث هو مستر كينيث. حضر إلى (غرانغ) ذات صباح وقال: «حسناً يا نيلي، لقد جاء دورك ودوري الآن لنلبس ثوب الحداد، من تظنّين أنّه توفّي اليوم؟».

سألته باضطراب: «من؟».

قال وهو يهبط عن صهوة جواده ويربط الرسن في عكفه بجانب الباب: «اذرفي الدمع عليه».

أجبتُ: «بالتأكيد، إنّه ليس مستر هيثكلف؟».

قال الطبيب: «أتبكين لموت هيثكلف؟ إنّه ممتلئ قوّة ونشاطاً هذا اليوم لقد رأيته الساعة، إنّ وزنه في ازدياد منذ أن فقد نصفه الحسن».

كرّرت السؤال عليه: «من هو إذن يا مستر كينيث؟ قل لقد نفد صبري؟».

أجاب: «هندلي أرنشو! صديقك القديم هندلي. لا تحزني لقد مات وهو سكران. لقد كان شابّاً مسكيناً! لقد حزنت عليه. وإنّ الإنسان ليحزن لفقد صديق قديم. إنّ عمره لا يتجاوز السابعة والعشرين، ولكن من يصدّق أنّكما قد ولدتما في عام واحد».

وإنّني لأعترف هنا أنّ النبأ قد وقع عليّ وقع الصاعقة وكانت هذه الصدمة أقوى بالنسبة إليّ من الصدمة التي تلقّيتها بسبب وفاة السيّدة لنتون، وجلست في الرواق أبكي أخي في الرضاعة. وفي الحال طلبت إذناً بالذهاب إلى مرتفعات وذرينغ لأشترك في الواجبات التي تُقام للميت. عارض مستر لنتون ذهابي في بادئ الأمر

معارضة شديدة، ولكنّي قلت له إنّ لسيّدي القديم وأخي في الرضاعة حقّ عليّ أقوى من حقّه. وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكّرته أنّ الطفل هرتون هو ابن أخ زوجه، وأنّه في حالة عدم وجود قريب له غيره، يترتّب عليه عندئذٍ أن يتولّى الوصاية عليه، ويهتمّ بأموره. فسمح لي عندئذٍ بالذهاب إلى المرتفعات وطلب منّي أن أتحدّث في الأمر إلى محاميه الذي كان محامي أرنشو أيضاً.

ذهبتُ إلى القرية وطلبت من المحامي أن يرافقني إلى مرتفعات وذرينغ. غير أنّه هزّ رأسه ونصحني أن أترك هيثكلف وشأنه وقال لي: «إنّ هرتون لم يعد يملك شروى نقير».

وأضاف يقول: «لقد مات والد هرتون مثقلاً بالديون، وجميع ممتلكاته مرهونة».

ولمّا وصلتُ إلى المرتفعات، أعرب لي يوسف، الذي كان يبدو حزيناً جدّاً، عن رضاه بوجودي، أمّا هيثكلف فقال إنّه لم ير ضرورة لوجودي ولكن بما أنّني قد حضرت فيمكنني البقاء لأشرف على اتّخاذ الترتيبات اللازمة لتشييع الجنازة.

وقال مستر هيثكلف: «إنّ جسد هذا المجنون يجب أن يدفن عند مفترق الطرق بدون أيّ احتفال. لقد حدث أنّني تركته وحيداً عشر دقائق فقط بعد ظهر أمس وفي تلك الفترة القصيرة أقفل بابيّ البيت ورائي، وقضى الليل بطوله يحتسي الخمر وهو يتعمّد قتل نفسه بالشراب. وقد اقتحمنا عليه الباب في الصباح عندما سمعناه يشخر كالحصان فوجدناه مطروحاً على الأريكة فاقدَ الشعور. أرسلتُ في طلب الدكتور (كينيث) فحضر ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان قد فارق الحياة وأصبح جثّة باردة، وهكذا ترين يا نيلي وتوافقين على أنّه لا يستحقّ إثارة أيّة ضجّة عليه».

وأكّد الخادم العجوز صدق أقوال مستر هيثكلف وقال متلعثماً: «لقد كان من الأفضل أن يذهب هيثكلف لإحضار الطبيب وأبقى إلى جانب سيدي».

وقد أصررت على أن تشيّع الجنازة بشكل محترم فوافق مستر هيثكلف على أن يكون كلّ شيء حسب ما أبتغي ولكنّه قال لي تذكّري أنّ المال الذي سيُنفَق في هذا الشأن سيُؤخذ من جيبه. لم يُبْدِ هيثكلف أيّة إشارة تدلّ على حزنه أو فرحه بهذا الحادث غير أنّي لاحظت عليه شيئاً يشبه الزهو بالنصر، وقد كان ذلك عندما حمل الناس التابوت إلى خارج البيت. وقبل أن يلحق هو وهرتون بالجنازة رفع الطفل السيّئ الطالع على طاولة وقال له: «الآن، يا ولدي الجميل، لقد أصبحتَ ملكي! وسنرى فيما إذا كانت هذه الشجرة ستنمو ملتوية كغيرها، أو تهبّ عليها الريح نفسها فتحنيها!».

سُرّ الولد بكلمات هيثكلف، وأخذ يتلهّى بشاربه ثم ضربه على خدّه. وهنا تقدّمت منه وقلت له:

«يجب أن يعود هذا الصبي معي إلى ثرشكروس غرانغ يا سيّدي، إنّه لا علاقة لك به البتّة!».

سألني: «هل يعتقد لنتون ذلك؟».

أجبته: «طبعاً - لقد أمرني بأن أحضره معي عند عودتي».

قال: «حسناً! إنّي لن أجادلك في هذا الموضوع، ولكن لي رغبة في أن أحاول رعاية طفل قريب لسيّدك ليحلّ محلّ هذا الطفل إذا ما حاول أخذه. إنّني لن أدع هرتون يغادر هذا المكان بكلّ سهولة وبدون أيّ نزاع، وإنّي واثق بأنّي سأجعل ذلك الطفل يحتلّ مكانه، فاذكري هذه الكلمات لسيّدك».

وقد كانت هذه الإشارة كافية لتقييد أيدينا ومنعنا من اتّخاذ أيّة خطوة في هذا الشأن. لقد أخبرت سيّدي خلاصة أقوال هيثكلف عند عودتي، وبما أنّه كان لا يُبدي كثير اهتمام في هذا الموضوع فقد فضّل عدم التدخّل فيه.

وهكذا أصبح هيثكلف سيّد مرتفعات وذرينغ بعد أن كان يحلّ ضيفاً فيها، وقد أثبت محاميه أنّ جميع ممتلكات أرنشو وأراضيه قد أصبحت ملكاً لهيثكلف، فقد رهن هندلي كلّ شبر فيها وصرف المال في المقامرة واحتساء الخمر.

وفي هذه الحالة أصبح هرتون الذي كان ينبغي أن يكون في تلك الساعة سيّد تلك المنطقة، فقيراً معدماً يعيش على صدقة عدوّ والده، ويُقيم في بيته كخادم محروم حتى من الاستفادة من أجوره.

18

واستأنفت السيّدة دين حديثها قائلة: لقد كانت السنوات الاثنتي عشرة التي تلت تلك الفترة العصيبة أسعد أيّام حياتي، وكانت أكثر مشاكلي خلال هذه السنوات مبعثها اعتلال صحّة سيّدتنا الصغيرة اعتلالاً بسيطاً في بعض الأحايين، ما يحدث عادة لجميع الأطفال سواء أكان أهلوهم أغنياء أم فقراء. أخذت الطفلة بعد مرور الأشهر الأولى تشبّ وتنمو كشجرة السنديان، وقبل أن تينع الأزهار مرّة أخرى فوق ضريح والدتها كان باستطاعتها أن تخطو على قدميها وتتكلّم إلينا بلهجتها الخاصّة. ولقد ملأ وجودها بيتنا المهجور نوراً وبهجة. كانت جميلة المحيا، لها عيون عائلة أرنشو السوداء الجذّابة، وبياض بشرة عائلة لنتون الناعمة الصافية، وشعورها الذهبيّة اللامعة، ودقّة تركيب ملامحها. كانت لها روح عالية وقلب حساس، رقيق المشاعر. وكانت تشبه أمها في شدة تعلّقها بمن يعيشون معها إلا أنّها كانت تختلف عنها بأنّها كانت وديعة كالحمامة هادئة ناعمة كالنسائم العليلة. لم يكن غضبها حادّاً كما لم يكن حبها عنيفاً، بل كان هادئاً.

ولقد تولّى والدها أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه، فوجد في ذلك

تسلية له ومتعة وقد ساعدها حظّها وذكاؤها على أن تصبح فتاة متعلّمة ضليعة بالآداب والعلوم.

وبلغت كاثرن الثالثة عشرة من عمرها، ولم تكن بعد قد خرجت مرّة واحدة بمفردها خارج حدود الحديقة. كان مستر لنتون يأخذها معه لمسافة ميل أو بعض ذلك خارج الحديقة في حالات نادرة جداً. وكان لا يدع أحداً يرافقها غيره. كانت الكنيسة هي المبنى الوحيد الذي اقتربت منه أو دخلته غير بيتها، فمرتفعات وذرينغ ومستر هيثكلف لم يكن لهما وجود في عالمها، وكانت أحياناً تبدي ملاحظاتها عندما تلقي بنظرها إلى السهول والمرتفعات التي تبدو من نافذتها وتقول:

«ألن، إلى متى أنتظر حتى يتاح لي المسير إلى أعالي التلال لأرى ماذا يوجد وراءها من الجهة الأخرى، هل هو البحر؟».

فأجيبها قائلة: «كلا، يا آنسة كاثي، إنّها تلال أيضاً، كهذه التلال».

وسألتني ذات مرّة: «ماذا تشبه تلك الصخور الذهبية عندما نقف تحتها؟».

لقد جذبها جمال صخور (بنستون كراجز) وبصورة خاصة عندما كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية عليها وعلى القمم العالية جداً القريبة منها قبل المغيب، فأوضحت لها أن تلك القمم ليست إلا قطعاً كبيرة جرداء من الحجارة، لا ينبت فيها شجر ولا نبات.

ومضت تسألني قائلة: «ولماذا نرى القمم تضيء بالنور مدة طويلة بعد أن يحلّ المساء هنا؟».

أجبت: «لأنها أكثر علواً من أرضنا ويصعب على المرء أن

يتسلقها لعلوها وانحدارها كثيراً. إن الثلج يكسوها طول أيام الشتاء، وقد زرت ذلك المكان في منتصف الصيف فوجدت الثلوج في الطرف الشمالي الشرقي».

صاحت بفرح: «أوه، لقد كنتِ هناك إذن! إني أستطيع أن أذهب إلى هناك أيضاً عندما أصبح امرأة. وهل صعد إليها أبي؟».

أجبتها: «إنّ المروج التي تتجولين فيها أجمل بكثير من هذه القمم وثرشكروس غرانغ هو أجمل مكان في الوجود».

وتمتمت تحدّث نفسها: «ولكني أعرف المنتزه والحديقة ولا أعرف هذه القمم العالية، وسأكون سعيدة إذا ما نظرت حولي من أعلى قمة فيها - إن حصاني الصغير (منى) سيحملني إليها يوماً ما».

كانت بعض الفتيات الخدم في البيت قد حدَّثنها عن الكهف السحري فاشتدت حماستها لرؤيته، وألحت على والدها بأن يحقق رغبتها فوعدها بأن ينفذ طلبها عندما تشبّ وتنمو، كانت الفتاة تقيس عمرها بالأشهر، فكلما مرّ شهر أو شهران تقول له: «لقد أصبح عمري الآن يا أبي يؤهلني أن أزور (بنستون كراغر)». كانت الطريق إلى تلك البقعة تمر بمرتفعات وذرينغ وهذا ما حدا بمستر لنتون إلى تأخير رحلته وكان يجيبها دائماً: «لم يحن الوقت بعد يا حبيبتي».

ولقد حدثتك من قبل أن السيدة هيثكلف عاشت حوالي اثنتي عشرة سنة بعد أن هجرت زوجها. كان أفراد عائلتها رقيقي الجسم، وكانت هي وإدغار يفتقران إلى الصحة التي يتمتع بها سكان هذه المنطقة عامة. وإني لا أعلم بالضبط المرض الأخير الذي أصابها ولكني أعتقد أنها وأخاها قد ماتا بالداء نفسه، وهو نوع من الحمّى تبدأ خفيفة في بادئ الأمر وتنتهي بانتهاء حياة المريض. وقد كتبت إلى أخيها تبلغه سوء حالتها الصحية ورجته أن يزورها إذا كان ذلك

ممكناً لتسوية بعض الأمور وتوديعه الوداع الأخير، وتسليمه ابنها لنتون ليرعى شؤونه من بعدها. كان كل أملها في أن ترى لنتون يعيش في حضن أخيها لأنها كانت واثقة من أن أباه لن يعلّمه ويثقفه ما ينبغي. لم يتردد سيدي لحظة واحدة في زيارتها، وغادر بيته في الحال متوجهاً إليها وترك كاثرن في رعايتي بعد أن أوصاني بألا أدعها تغادر البيت أو الحديقة مطلقاً حتى ولو برفقتي.

استغرقت زيارة إدغار لشقيقته ثلاثة أسابيع. وفي اليومين الأولين اللذين تليا سفر إدغار جلست كاثرن في زاوية من زوايا المكتبة حزينة إلى حدٍّ لم تستطع معه القراءة أو اللعب. وتلت ذلك فترة من القلق، والضجر المزعج. ولكثرة أشغالي في البيت وكبر سني لم أستطع أن أشاركها لعبها لأسليها وأزيل عنها الملل، فسمحت لها أن تقوم بجولة على صهوة مهرها في الأراضي المحيطة بالبيت.

كان الصيف في عنفوانه، لذلك كانت كاثرن تجد لذّة كبيرة في القيام بجولاتها وكانت تقضي المساء في سرد قصصها الخيالية عن العالم الخارجي. لم أكن أخشى عليها أن تجتاز يوماً ما الحدود التي رسمت لها لأن الأبواب جميعها كانت مغلقة، ولأني كنت أعتقد أنها لا تجرؤ أن تفعل ذلك لوحدها. وقد برهنت الأيام على سوء تقديري. جاءت كاثرن إليّ ذات صباح في الساعة الثامنة وقالت إنّها ستقوم في ذلك اليوم بدور التاجر العربي الذي يقطع الصحراء على قافلته، وطلبت مني أن أزوِّدها بكثير من الطعام لها ولفرسها وثلاثة من الكلاب. فأعددتُ لها سلّة مليئة بالطعام وضعتها في السرج، وامتطت ظهر جوادها مرحة وغطّت رأسها بقبعة وأسبلت على وجهها نقاباً يقيها حر الشمس، وودعتني وهي ترسل ضحكاتها في الجوّ،

ساخرة من تحذيراتي بألا تتأخر في العودة إلى البيت. ولم تعُد الصبية الشقية قبيل غروب الشمس فخشيتُ عليها أن تكون قد اجتازت الحدود ولذا فقد رحتُ أجوب الحديقة بنفسي باحثةً عنها. كان أحد العمال يقوم بإصلاح سياج الحديقة فسألته عمّا إذا كان قد رأى سيدتنا الشابة.

أجاب: «أجل، لقد رأيتها في الصباح تقفز وهي على ظهر جوادها من فوق ذلك السياج من الشجيرات، ثم غابت عن الأنظار».

صعقتُ عند سماعي هذا النبأ. وحالاً خطر على بالي أنها قد توجهت إلى (بنستون كراجز) فتساءلت قائلة: «أيّ شيء سيصيبها إذا ما واصلت رحلتها إلى ذلك المكان؟» ثم شققت طريقي من الفجوة التي يصلحها العامل إلى الطريق العام. وسرت مسرعة ميلاً بعد ميل، حتى أصبحت على مقربة من مرتفعات وذرينغ إلا أنني لم أعثر على أي أثر لكاثرن طيلة الطريق سواء أكان ذلك من بعيد أو قريب. وبدأت أخشى أن يحلّ الظلام ويسدل الليل ستاره على الكون قبل أن أصل إلى (بنستون كراجز) حيث كنت أعتقد أنها توجّهت.

وأخذتُ أسأل نفسي من جديد: ماذا ستكون النتيجة لو أن قدمها زلقت وهي تتسلق إلى القمة، ربما أنها قد ماتت أو كسر بعض عظامها؟ لقد كانت هواجسي تؤلمني حقاً. وقد شعرتُ بارتياحٍ بعض الشيء عندما رأيت شارلي، أحد الكلاب التي رافقت كاثرن في رحلتها، يضطجع بالقرب من مرتفعات وذرينغ والدم ينزف من أذنه. أسرعتُ إلى الباب وطرقته بعنف فردّت عليّ امرأة أعرفها كانت تعيش في غمرتون ثم انتظمت في خدمة هيثكلف بعد وفاة مستر أرنشو.

قالت المرأة: «آه، أقدمتِ لتأخذي معك سيدتك الصغيرة! لا تخافي. إنها هنا في حزر مكين، وإني لسعيدة لغياب سيدي عن البيت».

قلت: «أحقاً إنه ليس في البيت؟».

أجابت: «كلا، كلا، لقد ذهب هو ويوسف، وأعتقد أنهما لن يعودا هذه الساعة أو بعد ساعة أخرى. ادخلي واستريحي قليلاً».

دخلت وإذ بي أرى حملي الضال يجلس بجانب الموقد على مقعد صغير كانت والدتها تجلس عليه عندما كانت طفلة. وكانت تبدو مرتاحة سعيدة كأنها في بيتها، وهي تتحدث إلى هرتون وتضحك معه. بينما كان هو ينظر إليها مذهولاً ويجيب عن أسئلتها العديدة التي لا تنقطع.

قلت لها وأنا أحاول إخفاء سروري تحت ستار من الغضب: «لقد أحسنتِ صنعاً أيتها الآنسة! إنّ هذه آخر مرّة تخرجين فيها من البيت حتى يعود والدك. إنّني لن أثق بكلامك بعد الآن أيتها الفتاة الشقيّة!».

أسرعَتْ نحوي وصاحت بابتهاج: «أوه يا ألن! إنّ لدي قصة بديعة سأسردها على مسمعك هذه الليلة. هل زرتِ هذا المكان من قبل في حياتك؟».

قلت: «ارتدي قبعتك، ولنعد إلى البيت حالاً. لقد أحزنني عملك هذا إلى حدٍّ كبير، ووجدت مشقّة كبيرة في البحث عنك. لقد حمّلني مستر لنتون قبل سفره مسؤولية المحافظة عليك، إلا أنّك لم تصغي إلى كلامي وارتكبت شيئاً إدّا. لقد برهنتِ على أنك ثعلبة صغيرة ماكرة، ولن يثق بك إنسان بعد الآن».

قالت: «ماذا صنعت؟ إنّ أبي لن يؤنبني يا ألن مثل ما تؤنبينني الآن ولا يغضب مني كما غضبت».

قلت: «تعالي، إنّك ما زلت طفلة صغيرة لم تتجاوزي الثالثة عشرة من عمرك». وما أن سمعت هذه الملاحظة حتى رفعت قبعتها عن رأسها وعادت إلى جانب الموقد.

قالت المرأة: «لا تكوني قاسية على الفتاة فنحن الذين دعوناها لتدخل بيتنا».

وكان هرتون خلال حديثنا يقف صامتاً وقد وضع يديه في جيوبه وكان يبدو مستاء من تطفّلي.

وواصلت حديثي إلى كاثرن دون أن أبدي أيّ اهتمام بتدخّل المرأة وقلت: «وإلى متى يجب عليّ أن أنتظرك؟ سيحلّ الظلام خلال عشر دقائق. أين مهرك يا آنسة كاثرن؟ وأين الكلب سفنكس؟ إنّني سأتركك هنا إذا لم تعودي حالاً معي فاختاري لنفسك ما يحلو!».

أجابت: «إن المهر في ساحة البيت وسفنكس ها هنا، إنه قد جرح وكذلك الكلب شارلي. كنت أود أن أخبرك عنهما الآن ولكن بدا لي أنك لا تودّين سماع حديثي».

أمسكت بقبعتها واقتربت منها لأضعها على رأسها، إلا أنها فرّت مني وابتدأت تدور في الغرفة، فلحقت بها فأخذت تركض كالفأر، فوق الأثاث وتحته ومن خلفه، ممّا جعلني أبدو كأني أقوم بتمثيل دور هزلي. ضحك منّي هرتون والخادم وشاركتهما كاثي في الضحك فصرخت في غضب شديد:

«حسناً، يا آنسة كاثي، لو كنت تعلمين لمن هذا البيت الذي أنت تحت سقفه الآن، لعجّلت في الخروج».

تطلّعت إلى هرتون وسألته: «أهذا منزل والدك؟».

أجاب: «كلا» واحمرّ وجهه خجلاً.

فسألته ثانية: «إنّه بيت مَن إذن - أهو بيت سيدك؟».

زاد اضطرابه واحمرار وجهه، وتمتم بضع كلمات ثم أدار وجهه.

وتطلّعت إليّ كاثي وسألتني: «مَن يكون سيده؟ لقد كان يقول في حديثه إلي «بيتنا» و«أهلنا» فاعتقدت أنه ابن صاحب البيت، ولم يقل لي أبداً، «يا آنسة» كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك إذا كان خادماً حقاً؟».

اسودّت الدنيا في عيني هرتون عند سماعه هذه الكلمات، وأثناء ذلك أشرتُ إلى كاثي أن تسرع بمغادرة المنزل.

وقالت مخاطبة قريبها الذي تجهله كما تخاطب عمال الإصطبل في غرانغ: «والآن، أحضر لي حصاني، ويمكنك أن تأتي معي. إني أودّ أن أعرف أين يسكن صياد العفاريت وأستمع إلى بقية قصصك عن الجنيات. ولكن أسرع! ما بالك؟ أحضر حصاني ألا تسمع ما أقوله لك».

قال الفتى: «ستحلّ عليك اللعنة قبل أن أصبح خادمك!».

سألت كاثرن في استغراب: «ماذا؟».

أجاب: «تحلّ عليك اللعنة، أيتها الساحرة».

قلت متدخّلة بينهما: «أترى، يا آنسة كاثي، كيف يتحدّث إليك رفيقك الجديد. وما أجمل الكلمات التي يخاطب بها فتاة شابة مثلك! أرجوك ألا تدخلي في نزاع معه. هيا نخرج من هنا حالاً».

صاحت الفتاة: «ولكن يا ألن، كيف يتجرّأ أن يخاطبني بهذه

اللهجة، ألا ينبغي عليه أن يفعل بما آمره، أيها المخلوق المؤذي سأخبر أبي بما قلته لي».

ولما لم يَبْدُ على هرتون أنه يخشى تهديدها، انهمرت الدموع من عينيها وقالت للمرأة: «أعدّي أنت المهر، وأحضري الكلب».

أجابت المرأة: «هدّئي من روعك يا آنسة، إنّك لن تخسري شيئاً لو أظهرتِ بعض الدماثة. فإن لم يكن هرتون ابن سيد البيت فإنّه ابن خالك، أما أنا فلستُ خادمتك».

صاحت كاثي وهي تضحك ضحكة ساخرة: «أهو ابن خالي؟!».

أجابت المرأة: «نعم إنه كذلك حقاً».

وأضافت الفتاة تقول وقد بدا عليها الاضطراب الشديد: «أوه يا ألن! لا تسمحي لهم أن يتحدثوا كذلك. لقد سافر والدي ليحضر ابن عمتي، إنّ ابن عمتي رجل مهذب وهذا -» وهنا توقفت عن الكلام وبكت حالاً، لقد اضطربت لمجرد الإشارة إلى وجود قرابة بينها وبين ذلك الفلاح.

همست في أذنها قائلة: «صه! صه! إنه يمكن أن يكون للمرء كثير من أبناء الخال والعمّات وغيرهم دون أن يمسّه سوء من ذلك».

قالت وقد ألقت بنفسها بين ذراعي: «إنه ليس ابن خالي، ليس ابن خالي!» غضبتُ كثيراً منها ومن الخادمة لأنّهما كشفا لبعضهما عن حقائق كانت مجهولة، فلم أشكّ في أن الخادمة ستبلغ سيدها بنبأ وصول ابنه لنتون، وأن كاثرن ستطلب من أبيها فور عودته إيضاحات عن صحة قرابة هرتون بها. وفي أثناء ذلك كان هرتون قد استردّ هدوءه وخرج من الغرفة وأحضر المهر. فلم أستطع أن أمنع نفسي من إرسال ابتسامة إلى الفتى المسكين. كان هرتون في الثامنة

عشرة من عمره، قوي البنية، يافع الشباب، جميل المحيا، ولكنه كان يرتدي ثياباً تتناسب مع عمله اليومي في الحقل. وقد لاحظت بأن له عقلاً ناضجاً وأخلاقاً كريمة خير من أبيه. لقد كان كزهرة طيبة تنبت في البراري بين الأعشاب. وأعتقد أن مستر هيثكلف كان يعامله معاملة سيئة ليخلق فيه روح الشر والقسوة، لم يعلِّمه الكتابة أو القراءة، ولم يدع أية عادة سيئة لم يحاول إلصاقها به، كما أنه لم يرشده خطوة واحدة نحو الفضيلة. وسمعت أن يوسف قد ساهم كثيراً في الإساءة إلى الفتى، بالتملّق إليه وتدليله ومعاملته كطفل صغير وتضييق نطاق تفكيره، وقد سمح سيد البيت ليوسف أن يهدم الفتى ويفسد طباعه وأخلاقه.

وعلى كلٍّ فما لنا وهذا ولنمضِ في حديثنا. لقد شرعنا في العودة إلى البيت، وسردت عليّ الفتاة أثناء الطريق ما حدث معها وهي في طريقها إلى (بنستون كراجز). فقد اشتبك كلابها مع كلاب هرتون عندما اقتربت من (مرتفعات وذرينغ) وتلى ذلك تعرّف هرتون على كاثرن. وبالتالي أخبرت الفتاة هرتون إلى أين كانت تتجه وطلبت منه أن يرشدها إلى الطريق. وبعد ذلك أخذ يسرد عليها الأقاصيص الخيالية عن كهف الجنيات في (بنستون كراجز) والأماكن الأخرى وقد اتضح لي من حديثها أنها أحبّت هرتون في بادئ الأمر إلى أن آذت شعوره بمخاطبتها إياه كما تخاطب الخادم، وآذى هو شعورها بلهجته القاسية، وهي التي كانت تخاطب في البيت بكلمات الودّ والمحبة والدلال. وقد وجدتُ مشقّة كبيرة في الحصول على وعد منها بألا تذكر شيئاً عن الحادث لأبيها. وأوضحت لها كيف أنه يكره التعرّف إلى جميع الذين يعيشون في (مرتفعات وذرينغ)، وأنه سيحزن أشد الحزن لو عرف أنها كانت هناك. كما أنني أفهَمْتُها

بصراحة أنه إذا ما كشفت النقاب عن إهمالي وعدم اكتراثي بتنفيذ أوامره فإنه قد يغضب كثيراً، وعندئذٍ لا أرى بدّاً من مغادرة (غرانغ). ولمّا كانت لا تستطيع أن تتحمل فقداني فقد قطعت على نفسها عهداً بألا تفضي إلى والدها بأي شيء عمّا حدث، وقد أوفت بعهدها، إذ كانت فتاة طيبة القلب.

19

وصلتني رسالة مجلّلة أطرافها بالسواد وفيها يحدد مستر لنتون يوم عودته من لندن، ويطلب مني أن ألبس ابنته السواد حداداً على وفاة إيزابيلا شقيقته، وأعدّ غرفة إلى ابن أخته الشاب. وقد طارت كاثرن فرحاً عندما علمت بعودة والدها، وراحت تفكر كيف يكون ابن عمتها. ولما حلّ يوم وصولها شرعت منذ الصباح الباكر في ترتيب شؤونها وارتدت ثوبها الأسود الجديد. وأرغمتني على مرافقتها إلى الحديقة لتنتظر أبيها وابن عمتها. ولما نزلنا إلى الحديقة أخذت تحدّثني عن لنتون وقالت إنها تعلم أنه أصغر منها سناً بستة أشهر، وأضافت تقول إنّ عمتها إيزابيلا كانت قد أرسلت إلى والدها خصلة جميلة من شعره، فبدت شقراء أكثر من شعرها. وقد احتفظت بها في صندوق زجاجي وهي في انتظار اليوم الذي ترى فيه صاحبها. وأعربت كاثرن عن ابتهاجها وسرورها بوصول ابن عمتها، لأنه سيصبح رفيقاً لها.

وقد انتظرنا طويلاً وصول مستر لنتون وأخيراً لاحت لنا العربة في الأفق البعيد واقتربت رويداً رويداً حتى وصلت إلى البيت، وما أن أبصرت كاثي وجه أبيها من نافذة العربة حتى أخذت تصيح وتصفّق بيديها فرحاً وسروراً. وهبط والدها من العربة وهو أشد ما

يكون شوقاً لرؤيه ابنته. وبينما هما يتبادلان القبل، تطلعت من نافذة العربة لأرى لنتون الصغير، فوجدته نائماً في ركن العربة ملتفاً بعباءة من الفرو. كان شاحب اللون ناعماً كالفتاة، يشبه سيدي شبهاً كبيراً حتى يخيّل للمرء أنه أخاه الصغير، لكنه كان يبدو ضعيفاً معتلّ الصحة على العكس من خاله.

ولما رآني سيدي أنظر إلى الفتى، نصحني بعد أن صافحني، بأن أترك باب العربة مغلقاً حتى لا أزعج الصبي لأن الرحلة كانت شاقة بالنسبة إليه. ورغبت كاثي في أن تلقي نظرة عليه، إلا أن والدها طلب منها أن ترافقه إلى البيت وأسرعتُ أمامهما لأوجِّه للخدم تعليماتي.

وقد سمعت الوالد يقول لابنته: «اسمعي، يا عزيزتي، إن ابن عمتك ليس قوي البنية، مثلك، وهو حزين لأنه فقد والدته منذ زمن قصير جداً. لذلك لا تتوقعي منه أن يبادر إلى اللعب معك حالاً ولا تزعجيه كثيراً بكلامك، وأرجو أن تتركيه ينام هادئاً هذه الليلة على الأقل».

أجابت كاثرن: «نعم، نعم يا والدي، ولكني أودّ أن أراه على الأقل».

وأيقظ الشاب بعد قليل، وأنزله خاله من العربة. وقال له وهو يضع يده بيد كاثرن: «إن هذه ابنة خالك كاثي يا لنتون. إنها مغرمة بك وأرجو ألا تحزنها بالبكاء هذه الليلة. حاول أن تكون مرحاً الآن. لقد انتهت رحلتنا وما عليك الآن إلا أن ترتاح، وتسعد نفسك بما تحب وترضى».

قال الفتى بعد أن امتنع عن تحية كاثرن ورفع أنامله الصغيرة ليمسح الدموع عن وجنتيه: «اتركيني أذهب إلى سريري».

همست في أذنه: «تعال، أيها الفتى الطيب، إنك ستدفعها إلى البكاء في بكائك - انظر كم هي حزينة من أجلك!».

ودخل الثلاثة البيت، وتوجهوا إلى المكتبة حيث كان الشاي قد أعدّ لهم. وحملت لنتون ووضعته على كرسي إلى جانب المائدة، وما كاد يجلس على الكرسي حتى انفجر باكياً من جديد، فسأل سيدي عن السبب.

أجاب الصبي: «إني لا أستطيع أن أجلس على الكرسي».

قال خاله: «اجلس على الأريكة إذن، وستحضر لك ألن الشاي». واستجاب لنتون إلى طلب خاله، فحملت كاثرن عندئذٍ كرسياً صغيراً ووضعته إلى جانبه ثم أحضرت قدحاً من الشاي وجلست بالقرب منه هادئة بادئ الأمر، ولكنها لم تستمر كذلك. إذ بدأت بعد وقت قصير تلمس خصلات شعره وتقبل وجنّاته، وتقدّم الشاي له في معلقة كطفل صغير. وقد سرّه ذلك لأنه لم يكن بالفعل غير طفل حقاً، فجفف مآقيه وبدت على محياه ابتسامة فاترة.

وظلّ سيدي يراقبهما بضع لحظات ثم قال: «شيء حسن إذا استطعنا أن نبقيه عندنا ألن، إن رفقته لكاثرن ستثير فيه روحاً جديدة حالاً وسيستمد من ذلك قوة وجرأة».

قلت مخاطبة نفسي: «إذا استطعنا الاحتفاظ به!».

ولما انتهى الجميع من تناول الشاي، رافقت الطفلين إلى غرفة النوم، ولم أغادرها حتى رأيت لنتون يغرق في نومه. وما أن هبطت من الغرفة إلى القاعة وكنت أهم بإشعال المصباح وإذ بإحدى الخادمات تقبل من المطبخ وتهمس في أذني قائلة: «إن خادم مستر هيثكلف بالباب وإنه يرغب في مقابلة سيدي».

قلت في اضطراب شديد: «ماذا يريد منه في مثل هذه الساعة؟

إنه ليس من اللائق أن أزعجه في هذا الوقت وخاصة أنه عائد من رحلة طويلة. إني لا أعتقد أن سيدي يستطيع أن يستقبله».

وما أن سمع يوسف هذه الكلمات حتى تقدَّم نحوي ووقف في مدخل القاعة. كان يرتدي ثياب يوم الأحد، ويحمل قبعته في يده ويمسك في يده الأخرى عصاه.

قلت له: «طاب مساؤك يا يوسف، ما الذي حملك على المجيء إلى هنا هذه الليلة؟».

أجاب: «إني أودّ مقابلة سيدك».

أردفت قائلة: «لقد ذهب مستر لنتون إلى فراشه. إذا لم يكن عندك شيء هام تودّ أن تبلغه إياه، فإني متأكدة بأنه لن يستمع إليك في هذه الساعة. من الأفضل أن تبلّغني ماهية رسالتك».

قال وهو يجيل النظر في الأبواب المغلقة: «أين غرفة نومه؟».

تبين لي أنه مصرّ على مقابلة سيدي، فتوجهت إلى المكتبة وأعلنتُ وصول الزائر غير المنتظر، وأشرتُ إلى مستر لنتون أن يصرفه حتى يوم غد. وقبل أن يوافق على هذا الرأي كان يوسف قد لحق بي ودخل الغرفة ووقف غير بعيد عن المائدة وقد قبض براحتيه على رأس عصاه ثم قال بلهجة عالية متوقعاً معارضته:

«لقد أرسلني مستر هيثكلف لأحمل إليه ابنه وإنه لا يمكنني العودة إلى البيت بدونه».

صمت إدغار لنتون برهة قصيرة وظلّلت ملامحه سحابة من الحزن الشديد، فقد تذكّر إيزابيلا وخوفها على ابنها، ووصيتها له بالمحافظة عليه وتربيته تربية صالحة. وأجهد فكره باحثاً عن طريقة ينجّي بها الطفل من أبيه ويظلّ محتفظاً به فلم يهتدِ إلى أية طريقة.

ولم يتبقّ أمامه إلا أن يسلّم أمره إلى الله ويسلّمه إلى والده. غير أنه لم يوافق على إيقاظه من نومه في تلك الساعة وقال ليوسف بهدوء:

«أبلغ (مستر هيثكلف) أنني سأرسل ابنه في صباح غد إلى مرتفعات وذرينغ، إنه الآن نائم وتعب جداً. وأبلغه أيضاً أن والدته قد أوصتني بأن يظلّ تحت وصايتي، وأن صحته في الوقت الحاضر مضطربة».

قال يوسف بلهجة الأمر وهو يضرب الأرض برجله: «كلا، إن هيثكلف لا يبالي بأقوال أمه، ولا يبالي بأرائك أيضاً، أنه يريد ابنه ويجب أن آخذه معي، أوافقت أم لم توافق».

أجاب لنتون حازماً: «لن تأخذه هذه الليلة، اخرجْ حالاً من هذا البيت، وأعد على مسمع سيدك ما أقوله لك. اخرج من هنا».

وقُدتُ العجوز من يده إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب خلفه.

صاح يوسف وهو يبتعد عن الغرفة: «حسناً سيأتي هو بنفسه، وعندئذٍ اطردوه إذا كانت لديكم الشجاعة الكافية».

20

ولكي نتجنّب خطر تنفيذ هذا التهديد فقد عهد مستر لنتون إليّ بأن آخذ الصبي إلى مرتفعات وذرينغ في صباح الغد الباكر على مهر كاثرن، وقال لي:

«وبما أنه لن يكون لنا أي تأثير على مصيره ومستقبله وحياته فيجب ألا تبلغي ابنتي عن المكان الذي سنرسله إليه. إنها لن تستطيع أن تزوره هناك ومن الخير أن تظل جاهلة مكان وجوده. حتى لا يبرح الشوق بها لزيارة المرتفعات. ويكفي أن تقولي لها أن أباه استدعاه فجأة فاضطرّ إلى مغادرتنا».

تذمّر لنتون من مغادرة فراشه في الساعة الخامسة صباحاً واستغرب كثيراً عندما أبلغته أن عليه أن يستعد ليواصل رحلته، لكنني هوَّنت الأمر عليه بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع والده، مستر هيثكلف، الذي يتمنى رؤيته كثيراً.

ولما سمع أبيه صاح في دهشة: «أبي! والدي! إن أمي لم تخبرني أن لي والداً. أين يعيش؟ أني أفضّل أن أبقى إلى جانب خالي».

أجبته: «إنه يعيش على مسافة قريبة من (غرانغ) خلف تلك التلال.

وباستطاعتك أن تأتي لزيارتنا عندما تودّ ذلك. وستكون سعيداً برؤيته كما يجب عليك أن تحبّه كما كنت تحب والدتك».

سأل لنتون: «ولكن لماذا لم أسمع عنه قبلاً، لماذا لم يكن يعيش مع والدتي كما يعيش سائر الرجال مع نسائهم؟».

أجبت: «لقد كانت لديه أعمال في الشمال تستدعي بقاءه هناك بينما كانت صحة والدتك تستدعي بقائها في الجنوب».

وواصل الصبي أسئلته وقال:

«ولماذا لم تحدثني والدتي عنه، كانت كثيراً ما تحدّثني عن خالي، فتعلمت أن أحبّه منذ زمن طويل، فكيف يمكنني أن أحبّ أبي الآن؟ إنني لا أعرفه».

أجبتُ: «أوه، إن جميع الأطفال يحبون آباءهم، وربما كانت والدتك تعتقد أنها لو أخبرتك عنه لأردت أن تعيش معه. هيا بنا، إن السفر في ساعة مبكرة في هذا الصباح الجميل خير بكثير من النوم».

سألني: «أتذهب معنا تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها بالأمس؟».

أجبت: «ليس الآن».

وأردف قائلاً: «وهل سيذهب خالي معنا؟».

قلت: «كلا، سأرافقك إلى هناك وحدي». ألقى برأسه ثانية على الوسادة وقطب جبينه ثم صاح قائلاً: «إنني لن أذهب بدون خالي. إني لا أدري إلى أين أنا ذاهب؟».

وحاولت أن أقنعه أن يتخلى عن عناده ومعارضته لمقابلة والده، إلا أنه ظلّ مصرّاً على بقائه في فراشه وامتناعه عن ارتداء ملابسه. ووجدت نفسي أخيراً مضطرّة لاستدعاء سيدي لانتزاعه من فراشه.

وغادر المسكين فراشه في النهاية بعد أن أكدنا له أن غيابه لن

يطول، ووعده مستر إدغار بأنه سيزور كاثي، ووعدته عدداً من الوعود الواهية التي اختلقتها وأخذت أردِّدها على مسمعه طوال الطريق. وقد خفف الهواء العليل كما خففت أشعة الشمس الذهبية اللامعة من استيائه بعد فترة قصيرة من مغادرتنا البيت. وأخذ يوجّه إليّ باهتمام شديد أسئلة مختلفة عن بيته الجديد وسكانه.

وسألني: «هل مرتفعات وذرينغ مكان جميل مثل (ثرشكروس غرانغ)؟».

أجبت: «إنه ليس مغطّى بالأشجار كغرانغ وليس واسعاً مثلة ولكن يمكنك أن ترى منه الأراضي الجميلة التي تحيط به، والهواء هناك عليل وصحي وإنه أفضل من هواء غرانغ بالنسبة لك. وقد تظنّ أن البيت قديم ومظلم لأول وهلة، ولكنه بيت محترم وهو أحسن بيت في هذه المنطقة بعد (غرانغ). سيريك هرتون أرنشو، وهو ابن خال الآنسة كاثي، وقريبك، جميع الأماكن الجميلة، وسيكون باستطاعتك أن تأخذ معك كتاباً عندما يكون الطقس جميلاً، وتقرأه بين الأعشاب السندسية. وسيرافقك هرتون في نزهاتك بين التلال».

وسألني: «هل أبي شاب وهل هو ظريف كخالي، ومن هو يشبه؟»

أجبته: «إنه شاب كخالك، ولكن له شعر أسود وعينان سوداوان، وهو أطول منه وأكبر منه حجماً. إنه لن يبدو لك لطيفاً في البداية، حسب ما أعتقد، لأن ذلك ليس من عادته، فهو يبدو صلب العود قاسياً. ولكن تذكّر بأنه يجب أن تكون معه صريحاً ومهذّباً فيحبك أكثر من خالك لأنك ابنه».

تمتم قائلاً: «شعر أسود وعينان سوداوان لا أستطيع أن أتخيل كيف تكون صورته؟ إني لا أشبهه».

أجبت: «إنه لا يشبهك كثيراً».

ومضى قائلاً: «إنه من الغريب ألّا يأتي مرة واحدة لزيارتي وزيارة أمي، هل رآني من قبل؟ إني لا أذكر شيئاً عنه أبداً».

قلت: «إن ثلاثمائة ميل مسافة طويلة جداً يا مستر لنتون، ومن المحتمل أن مستر هيثكلف كان ينوي زيارة والدتك من وقت إلى آخر ولكنه لم يكن يجد فرصة مناسبة لذلك. فيجدر بك ألا تزعجه بمثل هذه الأسئلة، إنك ستُقلق باله دونما جدوى».

وقد ظلّ الطفل غارقاً في تخيلاته طوال الطريق حتى وقفنا في النهاية أمام مدخل حديقة البيت. وتطلعت إلى وجهه أراقب الانفعالات التي ستظهر على ملامحه حيث جال ببصره فور وصوله على واجهة المنزل والنوافذ الضيقة وهزّ رأسه. يبدو أن المنظر الخارجي للمنزل الجديد لم يلق هوى في نفسه، ولكنه فضَّل أن يؤجل شكاواته علّه يجد في الداخل ما يعوّض عما وجده في الخارج. وقبل أن يهبط عن صهوة جواده، تقدمت وفتحت الباب. كانت الساعة عندئذٍ تقارب السادسة والنصف وقد انتهى أفراد العائلة في تلك اللحظة من تناول فطورهم، وأخذ الخادم يمسح المائدة وينظفها - وكان يوسف يقف إلى جانب كرسي سيده يحدثه بشأن فرس أعرج، بينما كان هرتون يستعد للخروج إلى الحقل.

قال مستر هيثكلف عندما رآني: «مرحباً بك يا نيلي، كنت أخشى أن أضطر إلى الذهاب إلى (غرانغ) لأحضر ولدي بنفسي. لقد أحضرته أليس كذلك؟ دعينا نرى ماذا يمكن أن نصنع به؟».

نهض عن كرسيه واتجه نحو الباب فلحق به يوسف وهرتون.

قال يوسف بعد أن نظر إليه نظرة جدية: «بكل تأكيد أنه يبدو كأمه».

وأطلق هيثكلف من فمه ضحكة ساخرة بعد أن رأى اضطراب ابنه وقال:

«يا إلهي! ما هذا الجمال! ما أجمله، أتعتقدين يا نيلي أنهم قد ربوه على الحليب والحلزون! أوه، لعنة الله على روحي، ولكنه أسوأ مما كنت أتوقّع أن يكون».

وأشرت إلى الطفل القلق المضطرب أن يدخل البيت. إنه لم يكن متأكداً أن ذلك الغريب المقطب الجبين هو والده. وعلى الغالب أنه لم يفهم تماماً أقواله وأنه كان يقصده بذلك. تعلق بي، ولما دعاه هيثكلف إلى أن يقترب منه أخفى وجهه وألقى به على كتفي وبكى.

قال هيثكلف: «ما هذا السخف، إننا لا نود أن نؤذيك يا لنتون، أليس اسمك كذلك؟ إنك ابن أمك بالفعل! أين حصتي فيك؟».

ورفع قبعة الطفل ومرَّ براحته على خصلات شعره، ولمس أنامله الصغيرة، وذراعيه النحيلين. وعند ذلك أمسك الطفل عن البكاء ورفع عينيه الزرقاوين الواسعتين ليفحص والده.

سأله هيثكلف: «هل تعرفني؟».

أجاب: «لا».

- «هل سمعتَ بي من قبل؟».

- «كلا».

قال هيثكلف: «لا؟ تباً لوالدتك وخزياً لها إنها لم توقظ فيك روح العطف عليّ والمحبة لي. إنك ولدي، ولقد ارتكبت أمك إثماً لأنها تركتك تجهل كل شيء عن والدك. والآن، لا تغضب ولا يُحزنك هذا. كن فتى طيباً وسأهتم بأمرك. وأنت يا نيلي إذا كنت

تعبة من الوقوف، فبإمكانك أن تجلسي، وإلا فعودي إلى بيتك. وأعتقد أنك ستبلغين سيدك ماذا سمعت ورأيت هنا».

أجبت: «حسناً، إني آمل أن تكون لطيفاً مع الصبي رؤوفاً به يا مستر هيثكلف، وإلا فمن الأفضل أن تعيده إلينا، إنه الإنسان الوحيد الذي هو من لحمك ودمك في هذا العالم الشاسع».

قال وهو يضحك: «إني سأكون رؤوفاً به عطوفاً عليه، فلا تخشي شيئاً من هذه الناحية. ولكن لا أودّ أن أرى إنساناً آخر يرأف به غيري لأني أودّ أن أحتكر حبه لنفسي. وسأبدأ معاملتي اللطيفة له. هيا يا يوسف أحضر له فطوراً وأنت يا هرتون، هيا إلى عملك».

وأضاف يقول لي بعد أن غادر الاثنان القاعة: «إن ابني هو الوريث الشرعي لغرانغ، وإني لا أودّ أن يموت حتى أصبح وريثه، وبالإضافة إلى ذلك، إنه وريثي وإني أود أن أراه سيد أراضيهم. إن هذه هي الفكرة الوحيدة التي تجعلني أتحمّل تربية الطفل. إني أكرهه في شخصه وأكرهه للذكريات التي يبعثها في نفسي. ولكن هذه الاعتبارات لا قيمة لها. إني سأحافظ عليه وسأهتم بأمره وأعتني به كما يعتني سيدك بابنته. لقد أعددت له غرفة الطابق الثاني وفرشتها بأثاث ظريف. وعينت له معلّماً أيضاً، وسيأتي من مسافة عشرين ميلاً إلى هنا ثلاث مرات في الأسبوع ليعلمه ما يودّ أن يتعلمه. وقد أمرت هرتون بإطاعته، واتخذتُ جميع الترتيبات التي تكفله أن يكون متفوقاً على جميع مَن في البيت. غير أنني حزين، على كلّ حال، لأنه لا يستحق هذا الاهتمام».

وعاد يوسف، وهو ما زال يُدلي بحديثه، حاملاً بين يديه طبقاً من الحلوى مصنوعاً من الحليب ووضعه أمام لنتون. نظر الطفل حوله نظرة اشمئزاز وأكَّد بأنه لن يأكله.

قال يوسف وهو يحملق في وجه الطفل: «ألا تريد أن تأكل؟».

أجاب لنتون باضطراب: «إني لا أريد أن آكله خذه بعيداً!».

سحب يوسف الطبق غاضباً وأحضره إلينا. وقال: «إن فتاك الناعم الرقيق لا يودّ أن يأكله، وأعتقد أنه محقٌّ في ذلك لأن أمه كانت مثله تماماً. ومن شَابَهَ أمه فما ظلم».

قال سيده بغضب: «لا تذكر والدته أمامي. أحضر إليه ما يستطيع أكله، وكفى. ما هو نوع الطعام الذي هو معتاد أكله يا نيلي؟».

اقترحتُ تقديم حليب مغلي له مع الشاي فأمر الخادم بإعداد ذلك. وبعد ذلك تسرّبت إلى الخارج بينما كان لنتون منهمكاً في مداعبة كلب وديع اقترب منه. ولكنه انتبه إلى ذلك، فما أن أغلقت الباب خلفي حتى أخذ يبكي ويصيح مردداً هذه الكلمات: «لا تتركيني! إني لا أود أن أعيش هنا! لا أود البقاء في هذا المكان!».

وامتطيت المهر وحثثتُ الخطى عائدة إلى البيت وهكذا انتهت وصايتي القصيرة على الصبي.

21

استيقظت كاثرن الصغيرة في الصباح فرحة متحمسة لتشترك مع ابن خالها في اللعب، ولكن لمّا علمت نبأ سفره بكت بدموع غزيرة وحزنت أشد الحزن حتى اضطر إدغار أن يهوّن عليها الأمر بنفسه وأكد لها أنه سيعود في وقت قريب جداً. وقد خفف هذا الوعد من اضطرابها بعض الشيء، ولكن عامل الزمن كان أقوى أثراً في تهدئتها.

وكنت كلما صادفت مدبّرة شؤون البيت في مرتفعات وذرينغ أثناء زيارتي لغمرتون لشراء بعض الحاجيات، سألتها عن أحوال السيد الصغير وعن صحته. وقد استنتجت منها أنه ما زال معتلّ الصحة، وأن مستر هيثكلف لا يحبه ويجد بعض المشقّة في إخفاء ذلك، كما أنه يكره سماع صوته، ولا يستطيع أن يجلس معه في غرفة واحدة كثيراً من الوقت، وقلّما يتبادلان الحديث. وعلمت أن لنتون يتلقى دروسه ويقضي أمسياته في غرفة صغيرة تسمى قاعة الاستقبال، أو أنه يستلقي في فراشه طيلة النهار، لأنه يقاسي دائماً من آلام وجع الرأس أو القحّة أو البرد وغير ذلك من الأوجاع.

وقالت المرأة لي أيضاً: «إنني لم أر مخلوقاً ضعيف القلب مثل هذا الصبي، أو شخصاً يهتم بصحته أكثر منه، فإذا تركت النافذة

مفتوحة في المساء استمر يقول: «آه! إن هذا شيء قاتل!» ويصرّ على إشعال الموقد في منتصف فصل الصيف، ويطلب دائماً تقديم الحلوى له والحليب. وإذا ما اقترب منه هرتون ليسليه بدافع الشفقة فإنهما لا بد أن يفترقا بعد قليل، الأول منهما يسبّ ويلعن، والثاني ينتحب ويبكي. وأعتقد أن سيد البيت لا يتوانى عن طرده من البيت لو لم يكن ابنه».

وقد شجّعني مستر إدغار على الحصول على معلومات أوفى عن لنتون، فقد كان يهتم به كثيراً، وأعتقد أنه لم يكن يتوانى عن المخاطرة بعض الشيء لرؤيته، وقد طلب مني مرّة أن أسأل الخادم عمّا إذا كان لنتون يزور القرية. ولما سألتها أبلغتني أنه قد حضر مرتين إلى القرية مع والده وفي كل مرّة كان يظلّ في الفراش بعد عودته ثلاثة أو أربعة أيام. وأذكر أن مدبرة المنزل قد تركت العمل بعد سنتين وقد جاءت بعدها امرأة أخرى لم أكن أعرفها وما زالت هناك حتى الآن.

ومضت الآن تباعاً على هذا النحو حتى أصبحت الآنسة كاثي في السادسة عشرة من عمرها. وقد جرت العادة ألّا نقيم أي فرح أو ابتهاج في ذكرى عيد ميلادها لأن ذلك اليوم نفسه يناسب ذكرى وفاة والدتها. وقد قضى والدها يومه، أي يوم عيد ميلادها السادس عشر، وحيداً حسب عادته في المكتبة ثم سار عند الغسق حتى وصل إلى مقبرة غمرتون حيث كان يطيل بقاءه حتى منتصف الليل. كان ذلك اليوم يوماً من أيام الربيع الجميلة، فارتدت الفتاة الشابة ثيابها وطلبت مني أن أقوم بجولة معها في المرج. وقالت:

«أسرعي يا ألن، أسرعي! إني أودّ أن أذهب إلى حيث أجد أعشاش الطيور».

أجبتُ: «أعتقد أن المسافة بعيدة جداً إلى هناك».

قالت: «كلا إنها ليست ببعيدة، لقد ذهبت إلى هناك مع والدي».

ارتديت قبعتي وغادرنا المنزل، إذ كان مستر لنتون قد سمح لي أن أرافقها في رحلة قصيرة لا تطول أكثر من ساعة واحدة. وقد سررتُ كثيراً في بداية الرحلة من أصوات القبّرات وهي تغنّي من قريب ومن بعيد، ونعمت بأشعة الشمس الدافئة الجميلة. وكانت عيناي تلاحق مدللتي الصغيرة فأشعر بسرور وغبطة لرؤية خصلات شعرها تتطاير في الفضاء خلفها، ووجنتيها كالوردة البرية في احمرارهما ونعومتهما وصفائهما، وكذلك لرؤية عينيها تشعّ منهما السعادة والهناء. لقد كانت مخلوقة سعيدة وملاكاً طاهراً.

وقلت: «حسناً، أين طائرك يا آنسة كاثي؟ لقد ابتعدنا عن البيت».

وظلّت تقول: «إنه على بعد خطوات قليلة يا ألن، على بعد خطوات قليلة، اصعدي ذلك التل، واعبري تلك الضفة، فإذا ما وصلنا إلى الجهة الأخرى تمكّنت من إمساك الطيور».

لكن كانت أمامنا تلال كثيرة علينا أن نتسلقها وضفاف عديدة نقطعها، وأخيراً بدأ الملل يتسرّب إلى نفسي والتعب يدبّ في جسمي، وأخبرتها أنه يجب أن نعود القهقرى. ناديتها بصوت عالٍ لتعود لأنها كانت تسبقني بمسافة طويلة، فلم تقف وربما إنها لم تسمعني أو إنها لم تبالِ بقولي واستمرت تقفز من مكان إلى آخر وأنا أتبعها مضطرة مرغمة. وأخيراً اقتربت من مرتفعات وذرينغ ورأيت بضعة أشخاص يقبضون عليها. تأكدت أن من بينهم كان مستر

هيثكلف. لقد قبض على كاثي وهي مرتكبة جريمة النهب أو على الأقل اصطياد الطيور من أعشاشها في أرض ليست ملكها.

وسمعتها تقول لهم لتدافع عن نفسها: «إني لم آخذ شيئاً ولم أجد شيئاً، ولا أقصد أن أحمل شيئاً، إلا أن والدي أخبرني أنه يوجد هنا أعداد كبيرة من الطيور فرغبت في مشاهدة بيضها».

ألقى هيثكلف إليّ نظرة وابتسم ابتسامة خفيفة وسأل الفتاة مَن يكن أباها.

أجابت: «مستر لنتون، صاحب ثرشكروس غرانغ، أعتقد أنك لا تعرفه، وإلا لما تكلمت إليَّ بهذه اللهجة».

قال بلهجة تهكمية: «إذن تعتقدين أن أباك مبجّل ومحترم إلى حدٍّ كبير؟».

سألته كاثرن وهي تحملق في وجهه باستغراب:

«ومن أنت؟ لقد رأيت هذا الرجل من قبل، فهل هو ولدك؟».

أشارت إلى هرتون الذي كان يرافق هيثكلف، والذي كان يبدو بعد مرور عامين أكثر بدانة وأشد خشونة.

قاطعتها قائلاً: «يا آنسة كاثي، لقد مرَّ علينا ثلاث ساعات بدلاً من ساعة واحدة ونحن خارج البيت فيجب أن نعود حالاً».

دفعني هيثكلف جانباً وأجاب: «كلا، إن هذا الرجل ليس ابني، ولكن لي ابن واحد، ولقد رأيته قبلاً، وعلى الرغم من أنّ مربيتك على عجل فإني أعتقد أنه من الأفضل أن تستريحا قليلاً في بيتي، وستجدان كل ترحاب».

همست في أذن كاثرن وقلت لها إنه يجب ألّا تقبل في أي شكل من الأشكال دعوته.

لكنها قالت بصوت عالٍ: «لماذا؟ لقد أضناني الركض والعدو،

ولا يمكنني الجلوس على الأرض لأنها رطبة. هيا بنا نذهب إلى بيته يا ألن. وبالإضافة إلى ذلك فقد قال إني رأيت ولده، وأعتقد أنه مخطئ. إنني أعرف أين يعيش هذا السيد، إنه يقطن في المزرعة التي زرتها عندما كنت عائدة من بنستون كراجز».

أجاب هيثكلف: «هذا صحيح، تعالي يا نيلي، وأنت يا هرتون سِرْ إلى جانب الفتاة».

قلت وأنا أحاول إفلات ذراعي التي أمسَكَ بها: «كلا، إنها لن تذهب إلى بيتك».

ولكن كاثرن كانت تعدو مسرعة نحو البيت وقد اقتربت من مدخله.

وأردفت قائلة: «إن هذا عمل خاطئ يا مستر هيثكلف، إنك لا تنوي الخير، إنها سترى هناك لنتون وستبلغ والدها ذلك فور عودتنا وسيقع اللوم عليّ وحدي».

أجاب: «إني أريد من كاثي أن ترى لنتون، إنه يبدو الآن خير ممّا كان في الأيام القليلة الأخيرة، وسنقنعها حالاً بالتردُّد على المرتفعات لزيارته سراً فأين الأذى في ذلك؟».

أجبت: «الأذى في ذلك أن والدها سيكرهني إذا علم أنني ساعدتها على دخول بيتك، وإني مقتنعة أنك تعدُّ خطة شريرة في تشجيعك لها على هذا العمل».

قال: «إن خطتي شريفة جداً، وسأطلعك على كافة تفاصيلها. وهي أن يقع الاثنان في حب بعضهما بعضٍ ويقترنا بعد ذلك. إني أعمل لِما فيه خير سيدك، إن فتاته الصغيرة ستصبح شريكة لنتون».

أجبتُ: «وإذا مات لنتون، وليس من المحتمل أن يعيش طويلاً، فستصبح كاثرن وريثتك؟».

قال: «كلا إنها لن تصبح، إنه لا يوجد أي بند في الوصية ينصّ على ذلك، إن جميع ممتلكاته ستصبح ملكي، ولكن حتى أتجنّب الخلافات في المستقبل فإني أرغب في زواجهما وقد صمَّمتُ على تحقيق ذلك».

قلت، وكنا قد اقتربنا من مدخل البيت: «وقد صممتُ أنا كذلك على ألّا أدعها تقترب ثانية من بيتك».

طلب مني هيثكلف أن ألزم الصمت وتقدَّمني نحو الباب ليفتحه. نظرت إليه سيدتي الشابة، التي كانت قد سبقتنا إلى الباب وحدها، ملياً كأنها تبحث عمّا يجول من أفكار في زوايا عقله. ابتسم لها هذه المرّة عندما التقت عيناه بعينيها، وأخفض صوته في مخاطبتها. كان لنتون يقف إلى جانب الموقد، وقد عاد لتوه من الحقول لأنه كان ما زال مرتدياً قبعته، ويدعو يوسف إلى إحضار حذاء جاف له. كان يبدو طويلاً أطول من الشباب الذين هم في مثل سنه، كانت تقاطيع وجهه جميلة وفي عينيه بريق يتألق أكثر من المرة الأولى التي رأيته فيها.

وأدار مستر هيثكلف وجهه إلى كاثي وسألها: «والآن، من هذا؟ أتستطيعين أن تقولي مَن هو؟».

قالت: «أليس هذا ابنك؟».

أجاب: «بلى، بلى، ولكن هل هذه هي المرّة الأولى التي ترينه فيها؟ تذكّري جيداً! إن لك ذاكرة ضعيفة. لنتون ألا تذكر ابنة خالك التي كنت تمنّي دائماً نفسك برؤيتها؟».

صاحت كاثي وقد طارت فرحاً عند سماعها هذا الاسم: «ماذا لنتون؟ هل هذا لنتون الصغير، إنه أطول مني! هل أنت لنتون؟».

تقدّم الفتى إلى الأمام وعرّفها بنفسه، فضمّته عندئذٍ إليها وقبّلته

بحرارة وشوق، وتطلعا إلى بعضهما مدهوشين لما طرأ على شكلهما من تغيير مع مرور الزمن. كانت قامة كاثرن قد بلغت ذروتها في الطول، كانت ممشوقة القدّ، تتحلى بالخفة والنشاط. بينما كانت نظرات لنتون وحركاته باردة بطيئة، لكنه كان يمتاز بسحر وجاذبية في حديثه ممّا ساعد ذلك على تغطية عيوبه الأخرى وجعله لا يبدو غير محبب إلى النفس، وبعد أن تبادلا عدداً من عبارات الإعجاب والتقدير، توجهت الفتاة إلى مستر هيثكلف الذي كان يتلكأ بالقرب من الباب يحاول إخفاء اهتمامه بما يدور في داخل الغرفة وقالت له:

«إذن، أنت عمي، لقد أحببتكَ مع أنك كنت تبدو قاسياً في بادئ الأمر.

لماذا لا تزور (غرانغ) مع لنتون؟ إن من الغريب أن تعيش طوال هذه السنوات بالقرب منا ولا ترانا، فلماذا يا ترى؟».

أجاب: «لقد كنت أزور غرانغ مرة أو مرتين كل يوم على الغالب قبل أن تولدي. إذا كان لديكِ من المزيد من القبل فاهديها إلى لنتون».

قالت كاثرن وهي تهجم علي لتقبّلني: «إنك شريرة يا ألن، لأنك حاولت منعي من الدخول، سأسير إلى هنا صباح كل يوم في المستقبل، أأستطيع ذلك يا عمي وهل أستطيع إحضار والدي معي بعض الأحيان؟ وهل ستكون سعيداً برؤيتنا؟».

أجاب وهو يحاول قسراً إخفاء تجهُّمه الناجم عن كرهه العميق للزائرين: «طبعاً، ولكن دعيني أخبرك أن مستر لنتون يحمل ضغينة لي، لقد تخاصمنا مرة في حياتنا خصاماً عنيفاً، فلو ذكرتِ له أنك زرتنا لمنعك من زيارتنا منعاً باتاً. ولهذا يجب ألا تخبريه أو تذكري له شيئاً عن هذه الزيارة إلّا إذا كنت لا تهتمين برؤية ابن عمتك في

المستقبل. بإمكانك أن تأتي لزيارتنا إذا شئت ولكن يجب ألّا تذكري شيئاً عن ذلك لوالدك».

سألت كاثرن: «لماذا هل تخاصمت معه؟».

أجاب: «كان يعتقد بأني لم أكن مناسباً لأتزوج أخته لأني كنت فقيراً جداً - لقد آذيت كرامته فلم ينسَ ذلك أبداً.

قالت الشابة: «إن هذا خطأ، سأقول له ذلك فيما بعد، ولكن لا دخل لي ولنتون في الخصام الناشب بينكما. إني لن أحضر إلى هنا إذن، فدَعْ لنتون يزورني في (غرانغ)».

تمتم ابن عمتها قائلاً: «إن المكان بعيد جداً بالنسبة لي. إن مسير مسافة أربعة أميال يقتلني. تعالي إلى هنا أنت يا آنسة كاثرن كل أسبوع مرة أو مرتين».

ألقى الأب نظرة ازدراء مرير إلى ابنه ثم أدار وجهه إليّ وقال متمتماً: «إني أخشى أن تضيع جهودي سدى يا نيلي، إذ ربما اكتشفَت الآنسة كاثرن عيوبه فتهجره. انظري إنه منهمك في تجفيف أقدامه ولا ينظر إليها أبداً، يا لنتون!».

أجاب الصبي: «نعم، يا والدي».

قال هيثكلف: «ألا يوجد عندك شيء تريه لابنة خالك، حتى ولا أرنب أو عش؟ خذها قبل أن تبدّل حذاءك إلى الإصطبل لتُريها حصانك».

قال لنتون مخاطباً كاثي: «ألا تفضلين الجلوس هنا؟».

أجابت: «إني لا أعرف، وألقت بنظرها طويلاً إلى الباب مبدية رغبة شديدة في التنقّل من مكان إلى آخر.

ولكنه ظلّ جالساً على مقعده وأخذ يقترب من النار أكثر من ذي قبل. نهض هيثكلف وتوجه إلى المطبخ ومن هناك خرج إلى ساحة

الدار وأخذ ينادي على هرتون. أجاب هرتون ودخل الاثنان معاً. كان الرجل الشاب يغتسل، فقد اتضح ذلك من تألق وجنتيه وابتلال شعره.

قالت كاثي وقد تذكرت ما كانت الخادمة قد أخبرتها: «أوه، إني أود أن أسألك يا عمي أصحيح أن هذا الشاب ابن خالي؟».

أجاب: نعم، إنه ابن خالك، ألا تحبينه؟ نظرت كاثرن نظرة استغراب.

وأردف هيثكلف يسأل: «أليس هرتون شاباً ظريفاً؟».

وقفت الصبية الصغيرة على أطراف أصابع قدمها وهمست بعض الكلمات في أذن هيثكلف فضحك، أما هرتون فقد اسودّت الدنيا في وجهه لأنه شعر بانخفاض قدره ولكن سيده أو ولي أمره استدرك الأمر قائلاً:

«إنكَ ستكون المحبَّب عندها بيننا يا هرتون! إنها تقول إنّك - ماذا قلت؟

حسناً، أتقول شيئاً فيه كثير من التحبب، اسمع! اذهبْ معها إلى الحقل واسلكْ معها سلوك الرجل المهذب! لا تتلفظ بألفاظ بذيئة، ولا تحملق في وجه السيدة الشابة عندما لا تنظر إليك، وإذا ما تحدثت إليها، فانطق الكلمات بتؤدة وانزع يديك من جيوبك. هيا وحاول أن تسليها قدر استطاعتك».

وأخذ يرقب الاثنان من النافذة. كان أرنشو غير ملتفت إلى رفيقته وإنما كان يلقي ببصره إلى الأراضي الواسعة الممتدة أمامه بينما كانت تنظر كاثرن إليه من طرف خفي. ثم حوَّلت انتباهها إلى أشياء أخرى تجد فيها تسلية لنفسها ورفعت صوتها تغني لحناً يعوّضها عن الحديث.

قال هيثكلف: «لقد عقدَتْ لسانه، إنه لن يجرؤ على لفظ كلمة واحدة طوالَ الوقت! نيلي، هل تذكرين عندما كنت في مثل سنه أو أصغر بقليل. هل كنت أبدو غبياً مثله؟».

أجبت: «لقد كنت غبياً أكثر منه وأكثر عبوساً».

أردف قائلاً: «إن لي في وجوده على قيد الحياة متعة. ولقد حقق وجوده آمالي وأشبع رغباتي. إني أعرف ما يقاسيه، الآن تماماً، وليس هذا إلا البداية لما سيقاسيه. ألا تعتقدين أن هندلي يفخر بابنه لو كان حياً كما أنا فخور بابني؟ ولكن هناك فرق بيننا، إن الأول كذَهَبٍ استُخْدِم في صقل الحجارة والآخر كتنكٍ استُخدِم محل الأدوات الفضية. إن ابني لا يوجد فيه شيء ذو قيمة، وأما ابنه فذو صفات ممتازة ولكنها مضيعة».

وأثناء ذلك، ابتدأ الشاب الصغير الذي كان يجلس على بُعدٍ منا قليلاً يبدي دلائل القلق والاضطراب لأنه حرم نفسه مرافقة كاثرن خوفاً من أن يصيبه بعض التعب. فلاحظ أبوه هذا القلق فقال له صائحاً:

«انهض أيها الولد الكسول، هيا الحق بهما، إنهما يقفان بالقرب من خلايا النحل».

استجمع لنتون قواه وابتعد عن الموقد. كانت النافذة مفتوحة، فما أن وقف، حتى سمع كاثي تسأل رفيقها ما هذا المحفور فوق الباب؟ أجاب هرتون بعد أن حملق برهة في الكتابة قائلاً: «لا أستطيع قراءة تلك الكتابة اللعينة».

سألته كاثرن: «ألا تستطيع قراءتها؟ إنني أستطيع، ولكن أريد أن أعرف لماذا حُفِرَت هذه الكتابة هنا».

قهقه لنتون وكانت تلك أول مرة يبدو فيها سعيداً فرحاً وقال: «إنه لا يعرف القراءة، أتصدقين أنه يوجد مثل هذا الغبي الجاهل؟».

تساءلت كاثرن جادة: «إني لا أصدّق أنه بسيط إلى هذا الحد، لقد سألته سؤالين، وكل مرّة كان يبدو غبياً إلى حدٍّ يجعلني أعتقد أنه لا يستطيع فهم أسألتي. إني بصعوبة أستطيع فهم أقواله!».

ردَّد لنتون ضحكته وقال مخاطباً هرتون: «إن ابنة خالي تعتقد أنك غبي، ها إنك تجني الآن ثمار احتقارك القراءة والدرس». وقال موجِّهاً سؤاله لكاثرن: «هل لاحظتِ لهجته المرعبة؟».

صاح هرتون عندئذٍ متسائلاً: «أين الشيطان في استخدامها؟» وكان يبغي مواصلة كلامه إلا أن كاثرن ولنتون انفجرا ضاحكين وقال لنتون: «ما فائدة استخدام كلمة الشيطان في تلك الجملة؟ لقد حذَّركَ أبي من التلفّظ بهذه الكلمات الرديئة، غير أنك لا تستطيع فتح فمك بدون ذكر أيّ منها. حاول أن تتحدّث كما يتحدث الرجل المهذّب، حاول الآن!».

أجاب هرتون غاضباً: «لو لم تكن فتى صغيراً، لطرحتكَ على الأرض هذه اللحظة». ثم تراجع إلى الوراء والشرر يتطاير من عينيه، لأنه كان يعتقد أنه قد أهين ولم يعرف كيف يردّ الإهانة.

ابتسم مستر هيثكلف عند سماعه هذا الحديث ولكنه ألقى بعد ذلك نظرة غاضبة على لنتون، الذي ظلّ يتحدث مع كاثرن حول أخطاء هرتون وعيوبه. وقد ابتدأتُ هنا أكره لنتون أكثر ممّا أعطف عليه كما أصبحت لا ألوم أباه لأنه كان لا يقدّره ويحترمه.

وبقينا في البيت حتى بعد الظهر، إذ لم أستطع أن أقنع كاثي بالعودة قبل ذلك. ولحسن الحظ لم يغادر سيدي غرفته في (غرانغ) حتى ذلك الحين وظلّ يجهل غيابنا هذه المدة الطويلة. وبينما نحن

في طريق عودتنا حاولت أن ألقي بعض الضوء على أخلاق الناس الذين قابلتهم كاثرن في مرتفعات وذرينغ إلا أنها اعتقدَتْ بأنني مُجحفة في حقهم.

وقالت: «إنك تقفين إلى جانب والدي يا ألن، إني أعرف أنك تتحيَّزين له، وإلا ما خدعتني كل هذه السنوات العديدة وقلت لي إن لنتون يعيش بعيداً عنا مسافات طوال. إنني غاضبة جداً منك. وتذكّري أنه ينبغي عليك أن تمسكي لسانك ولا توجِّهي أية إهانة إلى عمي، وسألوم بابا لأنه خاصمه».

لم تذكر كاثرن لوالدها تلك الليلة شيئاً عن زيارتها لأنها لم تقابله، غير أنها في اليوم التالي قالت له بعد أن حيّته تحية الصباح: «بابا! أتستطيع أن تحزر من رأيت بالأمس أثناء تجوالي في المروج؟ لقد رأيت - ولكن اسمع يجب أن تعرف كيف تمّ ذلك». وسرَدَت على مسمعه كل ما حدث معها. لم يقاطعها بالتفوه بأية كلمة حتى أنهت حديثها، وكان أثناء ذلك يرمقني بين آونة وأخرى بنظرة عاتبة. ولما انتهت من قصتها ضمّها إليه وسألها عمّا إذا كانت تعلم لماذا أخفى عنها وجود لنتون بالقرب من غرانغ؟

أجابته: «لأنك تكره مستر هيثكلف».

قال: «إذن أنت تعتقدين أني أهتم براحتي وشأني أكثر ممّا أهتم بشؤونك وراحتكِ! كلا إن سبب إخفاء مكان وجود لنتون عنك لا لأني أكره مستر هيثكلف ولكن لأنه يكرهني، ولأنه رجل شيطاني يحب هدم حياة الذين يكرههم إذا وجد الفرصة مؤاتية له. لقد كنت أعلم أنه لا يمكنك الاحتفاظ بصداقة ابن عمتك دون أن تصطدمي بهذا الرجل. ولذلك رأيت من مصلحتك، ولا شيء غير ذلك، أن أتخذ الاحتياطات اللازمة لأمنعك من رؤية لنتون مرة ثانية. وقد

كنت أنوي أن أوضح لك الأمر فيما بعد متى نضج عقلك، وإني آسف لأني تأخرت في إيضاح الحقيقة».

قالت كاثرن ولم تكن قد اقتنعت بعد بصدق كلامه: «لقد رحب مستر هيثكلف بي ترحيباً حاراً يا أبي، ولم يعارض أبداً في رؤية بعضنا بعضاً وقال لي إنني أستطيع أن أحضر إلى بيته كلما شئت، ولكن حذّرني من أن أخبرك بذلك لأنك متخاصم معه ولم تسمح له بالاقتران بعمّتي إيزابيلا. إنك الملوم يا أبي، إنه يريد أن يمتّن عرى الصداقة بيننا، أنا ولنتون على الأقل».

ولما تبيَّن لسيدي أنها لن تصدِّق أن زوج عمتها معروف بسوء أخلاقه سرد عليها لمحة موجزة عن سلوكه المشين ومعاملته لإيزابيلا وكيف أصبحت (مرتفعات وذرينغ) مُلكاً له. ولم يستطع أن يشرح لها بالتفصيل هذا الموضوع لأن أعصابه كانت ترتجف رعباً كلما ذكر اسم عدوه القديم وذلك منذ أن توفيت زوجه السيدة لنتون. فقد كان يعتقد أنه لولا هيثكلف لظلّت زوجه على قيد الحياة إلى الآن. فكان في نظره دائماً أنه قاتل زوجه.

وختم حديثه إلى ابنته قائلاً: «ستعلمين يا عزيزتي فيما بعد لماذا أطلب منك أن تتجنبي بيت هذا الرجل وأفراد عائلته - فعودي الآن إلى أشغالك ومسرّاتك القديمة، ولا تفكري فيهم بعد الآن!».

قبّلت كاثرن أباها وجلست هادئة تطالع كتبها لبضع ساعات حسب عادتها، ثم رافقته إلى ساحة الدار، ومر اليوم بكامله كالمعتاد. ولكن عندما أقبل السماء ولجأت إلى غرفتها، ذهبتُ لمساعدتها في خلع ثيابها فوجدتها تبكي وقد ركعت إلى جانب سريرها.

قلت لها: «آه، أيتها الفتاة الغريرة! أنه من العيب أن تذرفي

دمعة واحدة على هذه الأمور التافهة. أنك لا تعرفين بعد الحزن الحقيقي. افترضي مثلاً لو توفي والدك أو توفيت أنا، وأصبحتِ وحيدة في هذه الدنيا فكيف يكون شعورك في هذه الحالة؟

قارني بين الحالة الراهنة وتلك الحالة، واحمدي الله على أنه منحك الأصدقاء الخلص بدلاً من أن تبكي وتنتحبي».

أجابت: «إنني لا أبكي من أجل نفسي يا ألن، ولكن من أجله. إنه يتوقّع أن يراني غداً مرّة أخرى، وسينتظرني دون جدوى فيُصاب بخيبة الأمل».

قلت: «إن هذا هراء! هل تعتقدين أنه يفكر فيك قدر ما تفكرين فيه؟ إن لديه هرتون رفيقاً وسيجد فيه السلوى».

سألتني: «ولكن هل أستطيع أن أكتب كلمة موجزة أخبره فيها لماذا لم أتمكّن من الحضور وهل أرسل له الكتب التي وعدته بإعارتها؟».

أجبت: «كلا، كلا! إنه عمل خاطئ سيردّ عندئذٍ على كتابك، وتعودين أنت إلى الكتابة إليه وهكذا دواليك، كلا، يجب أن نضع حداً نهائياً لهذه العلاقة، إن ذلك ما يبتغيه والدك ويجب أن تنفذ أوامره».

استأنفت قائلة: «ألا أستطيع أن أرسل له مذكّرة صغيرة؟».

قاطعتها قائلة: «كلا، اصعدي إلى سريرك».

نظرت إليّ شزراً حتى إنني لم أقبّلها وأحييها تحية المساء. تركتُ الغرفة وأغلقت الباب خلفي مستاءة ولكني ندمت على ذلك فعدت أدراجي وفتحت باب غرفتها فوجدتها منحنية على الطاولة تكتب على قصاصة من ورق، وما أن رأتني حتى أخْفَتْها عني.

قلت: «إنه لن يتولّى أحد حمل هذه الرسالة فلا تزعجي نفسك بكتابتها».

وأطفأت الشمعة وغادرت الغرفة من جديد. ولقد علمت فيما بعد أنها لم تستمع إلى نصحي، بل أنهت كتابة رسالتها إلى لنتون بواسطة بائع الحليب الذي كان يحضر إلى بيتنا من القرية. ومرّت الأيام والأسابيع واستعادت كاثي هدوءها، إلا أنها أصبحت مغرمة بالانزواء في زوايا البيت وحيدة، وكنت إذا ما اقتربتُ منها فجأة وهي تقرأ في كتبها، طوت الكتاب بغية إخفائه عن نظري. ولاحظت أنها كان تتوجه إلى المطبخ في الصباح الباكر وتتسكع بين زواياه كأنها تتوقع وصول شيء ما، كما لاحظت أيضاً أنها كانت تغلق درج خزانتها الصغيرة بمفتاح تحفظه معها وكانت تحرص على حمله معها أينما اتجهت.

وذات يوم، وبينما كانت كاثي تفتش درجها، لاحظت أنه كان محشواً بالأوراق الصغيرة المطوية فأثار ذلك شكوكي، وقررت أن أطّلع على هذه الأوراق. وفي المساء عندما كانت كاثرن وسيدي يجلسان في الطابق الثاني، بحثتُ بين مفاتيح البيت التي كانت معي عن مفتاح يمكن به فتح الدرج فعثرت على ضالتي. وما أن تمكنت من فتح الدرج حتى جمعت محتوياته وأخذتها إلى غرفتي لأفحصها على مهل. ولقد دهشت عندما اكتشفت أن هذه الأوراق لم تكن سوى ردود لرسائل كانت ترسلها كاثرن إلى لنتون كل يوم تقريباً. كانت الردود المؤرخة قديماً قصيرة لكنها تطورت تدريجياً إلى رسائل غرام عديدة، تدل على حماقة كاتبها في بعض الأحيان، وعلى وجود بعض الجمل التي أعتقد أنها استعيرت من مصدر يجيد اللغة بعض الشيء. وقد ذهلتُ من صراحة هذه الردود وما بُثَّ فيها من لواعج

الشوق والغرام، ولست أعرف ما إذا كانت قد أرضت كاثي ولكنها بدت لي مجرّد هذر لا قيمة له. وبعد أن تصفّحت كثيراً منها ربطتها جميعاً بمنديل وتركتها جانباً وأغلقتُ الدرج الفارغ.

هبطت سيدتي الصغيرة في الصباح الباكر حسب عادتها إلى المطبخ، ورأيتها تتجه نحو بابه عندما أبصرت الصبي القادم من القرية، وألقت شيئاً في جيب سترته وأخذت شيئاً آخر بينما كانت الخادمة تملأ سطله بالحليب. درتُ حول الحديقة وانتظرت خروج الرسول الذي دافع دفاع الأبطال عن الأمانة التي يحملها ولكني استطعتُ في النهاية أن أستخلصها منه. وبعد أن هددته بسوء العاقبة إذا هو لم يواصل طريقه إلى القرية حالاً، اطَّلعت على الأسلوب العاطفي الذي كتبت فيه كاثي رسالتها. كان أبسط من أسلوب ابن عمتها وأكثر فصاحة. هززتُ رأسي ودخلت البيت مباشرة. ولما كان اليوم ممطراً، لم تخرج كاثي إلى الحديقة ولجأت إلى غرفة المكتبة، وأخذت تدرس كتبها، ولما أنهت دراستها الصباحية اقتربت من دُرجها بينما كان أبوها يطالع بعض كتبه وراقبتُ حركاتها. وما أن فتحت كاثي الدرج حتى صاحت عجباً، وشحب لونها وتغيرت ملامحها. فرفع مستر لنتون عندئذٍ رأسه وقال:

«ماذا دهاك يا حبيبتي، هل أوذيت؟» فتأكدت من لهجته إنه لم يكتشف رسائلها فقالت: «لا شيء يا أبي، لا شيء! ألن ! ألن، تعالي معي إلى الطابق العلوي إنني أشعر بدوار بسيط!».

لبيت نداءها ورافقتها. وما أن وصلنا الغرفة وأصبحنا وحيدين حتى سقطت على ركبتها وقالت: «لقد أخذت الرسائل يا ألن أعطيني إياها، ولن أقدم على مثل هذا العمل في المستقبل! هل أخبرتِ

والدي بذلك، أرجوك ألا تخبريه. إنني مخطئة جداً ولن أعود إلى كتابة أية رسالة».

أجبتها: لقد تماديتِ إلى حدٍّ بعيد، إنك تشعرين الآن بالخزي من جرّاء هذا العمل. ماذا تعتقدين أن سيدي فاعل عندما أعرض عليه هذه الرسائل؟ إنني لم أفعل ذلك بعد ولكن لا تعتقدي أنني سأحتفظ بأسرارك العجيبة. يا للخزي والعار! لقد كنت البادئة بكتابة هذه السخافات، إذ إنه لا يمكن أن يفكر في البدء بها.

قالت وقلبها يكاد يتفطر من الغيظ: «إنني لم أكن البادئة أبداً! إنني لم أفكر مرّة بحبه حتى _».

صحتُ في وجهها غاضبة «بحبه! بحبه! هل سمع أحد بمثل هذا من قبل! يمكنني كذلك أن أقول إنني أحب السحان الذي يأتي مرة واحدة في العام لشراء قمحنا. ما أجمل هذا الحب بالفعل! إنك لم تشاهدي لنتون سوى مرتين في حياتك لبضع ساعات قلائل! إنني سأحمل معي هذه الرسائل إلى غرفة المكتبة وسنرى ما هو رأي والدك في هذا الحب».

وقفزت نحوي لتأخذ رسائلها الثمينة ولكني منعتها من ذلك، فأخذَتْ تتوسل إليّ بأن أحرقها جميعاً أو أصنع بها ما أشاء شريطة ألا أريها لأبيها. ولما كنت لا أرغب فعلاً بإبلاغ مستر لنتون جلية الأمر. قلت لها «إذا أحرقتها جميعاً هل تعدينني حقاً ألّا ترسلي له أو تتسلمي منه أية رسالة أو كتاب بعد الآن؟».

صاحت كاثرن، وقد تغلّب كبرياؤها على خجلها: «إنني لن أرسل له شيئاً».

قلت: «ولا شيء إذن يا عزيزتي بعد الآن!».

أجابت: «إنني أعد يا ألن! احرقيها، القي بها إلى النار، أرجوك!»

ولكن ما إن تقدَّمت نحو الموقد حتى طلبتْ مني أن أُبقي على رسالة أو رسالتين وقالت:

«رسالة أو رسالتين يا ألن، أحفظهما لأجل خاطر لنتون!».

حللتُ عقدة المنديل وبدأت ألقي بهما في النار. وإذ بها تقترب بيدها من النار وتسحب بعض الأوراق التي التهمت النار نصفها معرِّضة أصابعها للاحتراق، وصاحت بأعلى صوتها قائلة: «لا بد أن أحتفظ برسالة واحدة على الأقل أيتها القاسية!».

أجبت: «حسناً، سأطلعُ والدك إذن على إحداها»، وطويت الرسائل التي تبقَّت في يدي واتجهتُ صوب الباب. ولمّا تبين لها عزمي على الذهاب فعلاً ألقت بما في يدها في النار وهبطتُ إلى الطابق السفلي لأبلغ سيدي أن كاثرن في عافية وأنها ستأوي إلى فراشها فترة من الوقت.

ولما أقبل المساء هبطت سيدتي الصغيرة إلى غرفة الجلوس شاحبة الوجه، وقد احمرّ جفناها من البكاء. وفي صباح اليوم التالي سلَّمت الصبي قصاصة من الورق كتبت عليها ما يلي: «يُرجى من مستر هيثكلف ألّا يرسل رسائل أخرى إلى الآنسة لنتون، لأنها لن تتسلّمها». ومن ذلك الحين انتهى وصول الرسائل وصار بائع الحليب يأتي خاوي الوفاض.

22

اقترب الصيف من نهايته وحلّ الخريف مبكّراً قبل أن ينتهي الحصاد، كان مستر لنتون وابنته كثيراً ما يخرجان إلى النزهة في الحقول ويتحدّثان إلى الحصّادين، وفي آخر أيام الحصاد كانا يطيلان البقاء خارج البيت حتى المساء على الرغم من رطوبة الجو وبرودته. وكان من نتيجة ذلك أن أصابت سيدي وعكة شديدة من البرد، تحوّلت فيما بعد إلى نزلة صدرية ألزمته البيت طوال فصل الشتاء.

أما كاثي المسكينة فقد حلّ بها الحزن والأسى منذ أن تخلّت عن غرامها فأثّر ذلك على صحتها ما حدا بوالدها إلى أن يلحّ عليها في أن تقلّل من قراءتها وتُكثِر من الرياضة. ووجدت أنه من واجبي أن أنوب عن والدها في مرافقتها إلى النزعات التي تحب القيام بها خارج المنزل.

وفي عصر يوم من أيام شهر أكتوبر أو أوائل شهر نوفمبر، رجوت سيدتي الصغيرة ألا تغادر البيت لتقوم بجولتها العادية لبرودة الطقس وتلبّد السماء بالغيوم وتوقّع سقوط المطر بين فترة وأخرى إلا أنها رفضت أن تستمع إلى نصيحتي، فوجدتُ نفسي مرغمة على ارتداء عباءتي، وحملت مظلّتي لأرافقها في جولتها، ومضينا في

طريقنا. كانت تسير إلى جانبي بهدوء صامتة، تبدو عليها سمة من الكآبة، فنظرت حولي لأجد وسيلة أحوّل فيها أفكارها وأحيي في نفسها السعادة والأمل. وقلت لها مشيرة إلى مكان قصيٍّ تظلّله أغصان شجرة باسقة: «انظري يا آنسة! إن هنالك زهرة صغيرة فوق الشجرة. تسلّقي إلى أعلاها واقطفيها لتريها إلى والدك».

تطلّعت كاثي برهة طويلة إلى الزهرة الوحيدة التي ترتجف وحدها في مهبّ الريح وقالت:

«كلا، إنني لن ألمسها، إنها تبدو كئيبة حزينة، أليس كذلك يا ألن؟».

قلت: «نعم، إنها كذلك، وإن وجنتيك لذابلتين، هيا نُمسك بأيدي بعضنا ونعود مسرعتين إلى البيت».

أجابت: كلا، لا أريد العودة، وواصلت مسيرها بهدوء وتؤدة، متوقفة بين آن وآخر لتُمعن النظر في قليل من العشب الأخضر أو مستنقع من الماء أو لتتأمل إحدى الشجيرات، وفي أثناء ذلك كانت ترفع يدها لتمسح دمعة تترقرق في عينيها.

اقتربتُ منها ووضعتُ ذراعي على كتفيها وسألتها: «ماذا يبكيك يا حبيبتي؟ أتبكي لأن أباك مصابٌ بوعكة برد بسيطة؟ اشكري الله على أنه لم يُصَبْ بأسوأ من هذا».

أجابت: «آه، إني أخشى أن تزداد حالته الصحية سوءاً، وماذا عساي أصنع بعد؟ ستتبدّل حياتي كثيراً وتصبح دنياي جافة قاحلة».

أجبتها: «لا يستطيع إنسان أن يتنبّأ بماذا يطوي المستقبل في ثناياه، فربما قضيتِ نَحبكِ قَبْله. إنه من الخطل أن نتوقّع الشر. إن علينا أن نأمل في أن نُعيش سنوات وسنوات عديدة - إن والدك ما زال شاباً، وإني قوية البنية ولم أتجاوز بعد الخامسة والأربعين. لقد

عاشت أمي حوالي ثمانين عاماً. وأعتقد أن مستر لنتون سيحيا حتى الستين على الأقل. ألا ترين أنه من الحماقة أن نحزن للكارثة قبل وقوعها بعشرين عاماً؟».

قالت وهي تتأمّل في الفضاء كمن يبحث عن سلوى جديدة: «ولكن عمّتي إيزابيلا كانت أصغر سناً من والدي، وقد ماتت».

قلت: «لم يكن أحد يهتم بالعمّة إيزابيلا، كما أنها لم تكن سعيدة كوالدك، ولم يكن كلّ شيء متوفّر لها. وكل ما يجب أن تفعليه الآن هو أن تُدخلي البهجة والسرور إلى قلبه وأن تتجنّبي إزعاجه في أي موضوع كان. إنني لا أخفي عليك أمراً واعلمي أنك ستقتلينه إذا أثقلتِ عليه وأظهرتِ حبك لابن شخص يكرهه أشدّ الكراهية، وأفسحتِ له المجال ليكتشف بأنك قلقة غاضبة لأنه فرّق بينك وبين لنتون بسرعة».

أجابت رفيقتي: «إني غير قلقة على شيء في الدنيا سوى على مرض والدي إني لا أهتم بشيء كما أهتم بحياة أبي. كما أني لن أفعل أي عمل أو أفه بأية كلمة تسبّب له الاضطراب والقلق. وإني أحبه أكثر من نفسي، إني أبتهل إلى الله يا ألن كل ليلة ألّا أموت قبله حتى لا يشقى بسببي وذلك دليل على أني أحبّه أكثر من نفسي».

قلتُ: «كلام بديع، ولكن يجب أن تقرني الأقوال بالأفعال، وبعد أن يتم شفاؤه يجب ألّا تنسي الوعود التي تعهَّدتِ بتنفيذها في ساعة الضيق».

واقتربنا، ونحن نتابع سيرنا، من باب يؤدي إلى الطريق العام، وتسلّقت كاثي الحائط وجلست على حافته ومدَّت يدها لتلتقط بعض الأزهار التي كانت ما زالت يانعة فوق غصن إحدى شجيرات الورد البري التي تظلّل الطريق. وما أن مدّت يدها حتى سقطت قبعتها،

ولمّا كان الباب مغلقاً فقد رأت أن تهبط لتلتقطها. حذّرتها من السقوط ولكنها استطاعت أن تهبط بسهولة غير أن العودة لم تكن أمراً هيناً. فقالت لي:

«ألن، يجب عليك أن تبحثي عن مفتاح الباب وإلا فإني سأجد نفسي مضطرة إلى الذهاب إلى كوخ الحارس».

أجبتها: «ابقي حيث أنت، إن معي حزمة المفاتيح، وسأحاول فتحه بأحدها، فإن لم أستطع فسأذهب لأحضر المفتاح بنفسي».

حاولتُ فتح الباب مستخدمة جميع المفاتيح التي أحملها بينما كانت كاثي تروّح عن نفسها بالرقص هنا وهناك أمام الباب. ولما لم أستطع فتح الباب كررت طلبي بألا تغادر مكانها حتى أذهب إلى البيت وأعود بالمفتاح. وما كدت أخطو الخطوة الأولى حتى سمعتُ وقع حوافر جواد يقترب مني، ولم تمضِ لحظة واحدة حتى كان الجواد قربي فهمست قائلة: «مَن هذا؟».

وهمسَتْ رفيقتي وجلة: «ألن، يا ليتك تستطعين أن تفتحي الباب!».

وسمعنا صوتاً يقول: «آنسة لنتون، إني سعيدٌ لملاقاتك، إني أودّ أن أتحدث إليك قليلاً».

أجابت كاثرن: «إني لا أريد أن أتحدّث إليك يا مستر هيثكلف، إنك رجل شرير وتكره والدي وتكرهني، هذا ما يقوله أبي وتقوله ألن أيضاً».

قال هيثكلف: «إن هذا هو بيت القصيد. إني لا أكره ابني وإني أطلب منك أن تعيريني انتباهك بشأنه، لقد كتبتِ إليه قبل شهرين أو ثلاثة عدداً كبيراً من الرسائل المليئة بالحب والغرام فيجب أن تعاقَبي

أنت وإياه على ذلك! وخاصة أنتِ، لأنك أكبر منه سناً. إن رسائلك عندي فإذا أبديت أية معارضة فسأرسلُها إلى والدك. هل مللتِ من هذه التسلية الآن؟ لقد أغرم لنتون بك وفتن بك إلى حدٍّ كبير فهجرته ونبذته نبذة النواة إلا أنه ظلّ متيماً بك. ولقد استخدمتُ جميع الوسائل، واتخذتُ جميع الإجراءات. وحاولتُ الكثير أن أردّه عن غيه، وعن هذه الأعمال الصبيانية غير أنه لم يرعوِ وازداد سوءاً يوماً بعد يوم، وإني لا أغالي إن قلت أن سيتوسد الثرى قبل حلول فصل الصيف إذا لم تنقذيه».

قلت له: «كيف تستطيع أن تكذب بهذه السهولة على الطفلة المسكينة؟ أرجوكَ أن تبتعد عنها! إني أعجبُ كيف تستطيع أن تختلق هذه الأباطيل؟ لا تصدّقي يا آنسة كاثي هذا الهراء. إنه من المستحيل أن يموت شخص عَشقَ شخصاً غريباً عنه».

تمتم الوغد قائلاً: «إني لم أكن أعلم أن هناك من يسترقّ السمع. إني أقدّرك أيتها السيدة حقّ قدرك، ولكني لا أحبّ منك الالتواء واللعب على الحبلين».

وأضاف يقول بصوت عالٍ: «كيف تستطعين أن تكذبي بهذه البساطة وتقولي إني أختلق الأباطيل لأفزعها؟ كاثرن لنتون، يا فتاتي الطيبة، سأتغيّب عن البيت خلال هذا الأسبوع، اذهبي إلى هناك وتحقّقي بنفسك إذا كنت أقول الصدق أم لا.

أرجوك أن تذهبي يا عزيزتي، تصوّري أن أباك في مكاني وأن لنتون في مكانك.

فكيف يكون عندئذٍ موقفك من عشيقك اللامبالي فيك؟! لا تقعي في الخطيئة ذاتها، إني أحلف بحياتي أنه ميت لا محالة ولا أحد يستطيع إنقاذه سواكِ!».

وهنا استطعت أن أكسر قفل الباب بالحجر، ففتحته واقتربتُ منهما.

قال هيثكلف وهو ينظر إليّ شزراً: «إني أقسم يميناً صادقاً أن لنتون في طريقه إلى القبر، وأن الحزن والأسى يعجّلان بموته. فإذا كنت، يا نيلي، لا تسمحين لكاثرن بزيارة لنتون، اذهبي أنت بنفسك لزيارته. إنني لن أعود إلى البيت حتى مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم، وأعتقد أن سيدك نفسه لا يعارض في زيارتها لابن عمتها!».

أمسكتُ كاثرن من ذراعها وحاولت إخراجها من الباب لأنها ظلّت تحدّق بعينين وجلتين في وجه هيثكلف. وقلت لها: «هيا بنا!».

فقال مخاطباً كاثرن: «إني أمحضك الصدق بأن صبري أوشك أن ينفد كما نفد صبر يوسف وهرتون في معاملتهما للنتون. إنه متعطّش إلى الرحمة كما هو متعطّش إلى الحب، وكلمة حنوٍّ منك لَهِيَ خيرُ علاج له. لا تبالي بتحذيرات السيدة دين وأقوالها، كوني كريمة وحاولي القيام بزيارة له. إنه يحلم فيك ليل نهار، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بأنك تحبينه على الرغم من أنك لا تكتبين إليه ولا تزورينه».

أغلقتُ الباب خلفي، وفتحتُ مظلتي وجذبتُ كاثي إليّ، لأن المطر بدأ يتساقط من خلال أغصان الأشجار محذّراً إيانا من مغبّة التأخير. وأسرعنا نحو البيت تاركين هيثكلف وبدا لي أن الحزن قد ران على قلب كاثرن.

كان سيدي قد أوى إلى مخدعه قبل أن نصل، فاسترقَت كاثي الخطى إلى غرفته لتستفسر عن حاله فوجدته قد استسلم إلى الكرى. عادت وطلبت مني أن أجلس معها في غرفة المكتبة. شربنا الشاي

معاً ثم جلست على السجادة ورجتني ألا أتفوّه بأية كلمة لأن التعب والضنى كانا قد أخذا منها كل مأخذ. تناولتُ كتاباً من المكتبة وتظاهرتُ بأني أقرأه. وحالما اعتقدَتْ أني قد انهمكت في القراءة، استأنفت بكاءها الصامت. وبدا لي عند ذاك أن البكاء هو سلواها الوحيد. فصمتُّ على مضض برهة ثم أخذتُ أفنّد أقوال هيثكلف في ابنه. ولكن للأسف لم يكن لديّ المقدرة الكافية على محو الأثر الذي تركته كلماته في خيالها.

وقالت: «قد تكونين مُصيبةً يا ألن، ولكنني لن أشعر براحة حتى يتبيَّن لي كذب أقواله، وحتى أبلِّغ لنتون أني لست ملامة في عدم مكاتبته وأقنعه أنني لن أتحوّل عن حبّه».

ولقد ذهبت جميع محاولاتي بإقناعها أنها مخطئة فيما تظنّه أدراج الرياح. وافترقنا على خصام تلك الليلة. غير أنني وجدت نفسي في صباح اليوم التالي أسير متجهة نحو مرتفعات وذرينغ إلى جانب مهر سيدتي الشابة العنيدة. لم يكن في مقدوري أن أراها حزينة، شاحبة اللون، مقطبة الجبين، مثقلة الجفن، فرضختُ لمشيئتها آملة في أن تتحسّن أحوال لنتون في زيارتنا له.

23

كان صباح اليوم التالي ملبّداً بالغيوم، وكانت السيول تنحدر من التلال القريبة مخترقة السبل التي أمامنا. فابتلّت قدماي بالماء. غضبتُ ولكني كتمت غيظي حتى دخلنا إلى (مرتفعات وذرينغ)، دخلنا البيت عن طريق المطبخ حتى نتأكد ما إذا كان مستر هيثكلف متغيّباً عن البيت بالفعل أم لا، لأني لم أكن أثق بكلامه مطلقاً.

كان يوسف يجلس وحيداً بالقرب من النار المشتعلة في الموقد وإلى جانبه على المائدة كأسٌ من الجعة وقطعة كبيرة من كعكة الشوفان، أسرعت كاثرن نحو الموقد لتدفئ نفسها وسألته عمّا إذا كان سيده في البيت. فلم يجب وظننتُ أن الرجل العجوز قد أصيب بالصمم فأعادت عليه السؤال بصوت عالٍ:

أجاب: «كلا، كلا، يجب أن تعودا من حيث أتيتما».

وفي الوقت نفسه، صاح صوتٌ ضعيف من الغرفة الداخلية قائلاً: «يوسف! كم مرة ينبغي أن أنادي عليك؟ لم يتبقّ في الموقد سوى قليل من الجمر».

لم يشأ يوسف أن يعير هذا النداء أذناً صاغية. ولم تكن مدبّرة شؤون المنزل أو هرتون في البيت، فقد ذهب أحدهما في مهمة

والآخر ربما كان يعمل في الحقل. عرفنا صوت لنتون، فدخلنا غرفته.

قال الصبي وقد ظنّ أننا خادمه المهمل: «أوه، ما أكسلك كم أتمنى أن تموت في الغرفة العلوية من الجوع!».

ولكنه توقّف عندما أدرك خطأه، وأسرعت ابنة خاله إليه.

رفع لنتون رأسه عن ذراع المقعد الكبير الذي كان مستلقياً عليه وقال: «أهذا أنت يا آنسة لنتون؟ لا تقبّليني بعنف حتى لا ينقطع نفسي. يا عزيزتي! لقد قال لي أبي إنك ستحضرين حتماً». وأردف يقول لها بعد أن استردّ قواه قليلاً من ضمّ كاثرن له: «أرجوك أن تغلقي الباب، لم يُحضِر أحد من هاته المخلوقات الكريهة الفحم لإشعال النار في الموقد. إن الطقس بارد جداً!».

أحضرتُ قليلاً من الفحم، وأعدتُ إشعال النار. فقد كان لنتون يقحّ بشكل متعب ويبدو مريضاً محموماً.

تمتمت كاثرن قائلة: «حسناً، يا لنتون، هل أنت سعيد لأني حضرت؟ أأستطيع أن أقوم بأية خدمة لك؟».

سألها: «لماذا لم تحضري من قبل؟ كان ينبغي عليك أن تحضري بدلاً من مراسلتي. لقد أضنتني كتابة تلك الرسائل الطويلة. كنت أفضّل أن أتحدّث إليك. والآن، لا أستطيع الحديث أو القيام بأي عمل آخر. إني لأعجب أين زيلا الآن!».

وخاطبني قائلاً: «أرجوك أن تذهبي إلى المطبخ وتشيري إليها الحضور إذا كانت هناك».

أجبته: «لا يوجد أحد في البيت سوى يوسف».

أدار وجهه وقال حانقاً: «إني أريد أن أشرب. إن زيلا تذهب كل يوم إلى غمرتون منذ أن سافر أبي. إن الحياة شقاء هنا، لقد

أرغمتُ على أن أهبط إلى هذه الغرفة لأنهم صمموا على ألا يلتفتوا إليّ إذا بقيت في الطابق العلوي».

سألته: «هل أبوك يرعاك ويهتم بأمورك؟».

صاح متسائلاً: «مهتم بأمري؟ إنه يحرّضهم عليّ، تبّاً لهؤلاء التعساء! هل تعلمين يا آنسة لنتون أن ذلك الفظّ الغليظ هرتون يضحك مني ويهزأ بي! إني أكرهه! فعلاً، إني أكرههم جميعاً، إنهم مخلوقات كريهة».

أخذت كاثي تبحث عن الماء في الغرفة فوجدت إبريقاً فيه ماء في الخزانة فصبت منه كأساً وأحضرتها إلى لنتون، فطلب منها أن تضيف إليها ملعقة من نبيذ كان في زجاجة على المائدة. وبعد أن شرب قليلاً من الكأس شكرها على لطفها.

وأعادت كاثرن عليه السؤال السابق، وقد سرّت عندما لاحظت أن ثغره قد افتر عن ابتسامة رقيقة: «هل أنت سعيد لأني زرتك؟».

أجاب: «إني سعيد لمرآك. ولقد كنت مضطرباً قلقاً لأنكِ لم تحضري.

ولقد قال لي أبي إن سبب انقطاعك عن زيارتي هو كرهكِ لي. هل تكرهينني يا آنسة -».

قاطعته قائلة: «أرجوك أن تدعوني كاثرن أو كاثي! إني لا أكرهك أبداً. إني أحبك أكثر من أي مخلوق آخر بعد والدي وألن. إلا أني لا أحبّ مستر هيثكلف، ولن أجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته. هل سيظل بعيداً عن البيت أياماً عديدة؟».

أجاب: «كلا، لكنه سيتردَّد بعد عودته على الحقول كثيراً لبدء فصل الصيد. ويمكنكِ أن تقضي معي ساعة أو ساعتين أثناء غيابه. عِدِي أنك ستحضرين! ينبغي عليّ أن أكون حريصاً على مرضاتك.

فتظلّين عندئذٍ دائماً على استعداد لمساعدتي أليس كذلك؟».

قال فرحاً: «وعندئذٍ تحبينني مثلما تحبين والدك. ولكن والدي يقول إنك ستحبينني أكثر من والدك ومن جميع البشر لو كنت زوجتي ولهذا أودّ أن تكوني كذلك».

قالت بحزن: «كلا! إني لن أحبّ أي إنسان في الوجود أكثر من أبي، إن بعض الناس يكرهون أزواجهم أحياناً، ولكنهم لا يكرهون إخوانهم وأخواتهم، ولو كنت أخاً لي لعِشتَ معنا، ولأحبَّك والدي كما يحبّني».

لم يوافق لنتون على رأي كاثي بأن الناس يكرهون أزواجهم أحياناً ولكن كاثي أصرّت على صحة هذا الرأي وضربت لذلك مثلاً كره والده لعمتها. وحاولتُ أن أمسك لسانها عن خوض هذا الموضوع فلم أستطع، وأفضَتْ بكلّ ما في جعبتها من معلومات إليه في هذا الشأن. فاضطرب الفتى اضطراباً شديداً وأكّد لها أن أقوالها غير صحيحة.

أجابت بكل صراحة: «لقد حدّثني عن ذلك والدي وهو لا يعرف الكذب أبداً».

صاح لنتون: «إن أبي يكره أباك، ويصفه بأنه جبان أحمق».

ردّت عليه قائلة: «إن أباك رجل شرير، وإنك صبي سيئ الخلق لتجرؤك على إعادة أقواله. لا ريب في أنه رجل شرير لأنه أرغم عمتي إيزابيلا على هجره».

قال الصبي: «إنها لم تهجره، يجب ألا تعارضيني»، صاحت الفتاة: «إنها هجرته».

أجاب: «حسناً، سأقول لكِ شيئاً. إن أمك كانت تكره أباك، والآن ما رأيك؟».

صاحت كاثرن في غضب شديد: «أوه!».

فأضاف يقول: «وكانت تحبّ والدي».

احمرّ وجهها من شدّة الخجل والغضب وقالت: «إنك لكذوب! إني أكرهك الآن».

أسند ظهره إلى الكرسي وأخذ يمتّع نفسه بمرأى كاثرن التي استحوذَ عليها الغضب وأخذ يغني قائلاً: «إنها كانت تحبّه! إنها كانت تحبّه!».

قلت: «صه! إن هذه القصة قد اختلقها والدك أيضاً، حسب ما أعتقد».

أجاب: «كلا - أمسكي لسانك عن الكلام. إنها كانت تحبّه يا كاثرن! إنها كانت، إنها كانت!».

كانت كاثرن تقف وراءه فدفعت الكرسي بيدها بشدّة فوقع على الأرض. وفوراً استحوذت عليه قحّة خانقة وضعت حدّاً لانتصاره.

واستمرّت الضجّة مدة طويلة ممّا أفزعني. أما ابنة خاله فقد أخذت تبكي بكاء شديداً، نادمة على ما فعلت. وأمسكتُ به حتى انتهت النوبة. وعندئذٍ أبعدني عنه وأحنى رأسه بهدوء. وهدأت سورة غضب كاثرن أيضاً وأخذت لها مقعداً مجاوراً مقابلاً للنتون.

انتظرتُ بضع دقائق ثم سألته: «كيف تشعر الآن يا سيد هيثكلف؟».

أجاب: «أتمنى أن تشعر كاثرن بالألم الذي أشعر به، إنها قاسية، إن هرتون لم يُصِبْني بأذى، ولم يضربني طوال حياته ولقد تحسّنت صحتي اليومَ إلّا أن - وهنا أخذ صوته يخفّ ويتلاشى».

تمتمت كاثرن قائلة: «إنني لم أضربه». وعضّت على شفتها لتكبح جماح مشاعرها.

تأوّه لنتون وأخذ يئن مدة ربع ساعة كمن يقاسي من عذاب كبير قاصداً من وراء ذلك على ما يبدو إزعاج ابنة خاله.

ولم تستطع كاثرن أن تخفي شعورها طويلاً فقالت أخيراً: «إني آسفة لأني آذيتك يا لنتون، إني لم أكن أعرف أنك ستتألم من تلك الدفعة البسيطة. لا تدعني أعود إلى البيت وأنا مقتنعة بأنني آذيتك! أجبني!».

تمتم قائلاً: «إني لا أستطيع أن أتحدّث معك، لقد أذيتني وسأظلّ طوال الليل متيقظاً أتألم من القحّة. لو كنت مكاني لعرفت ما أقاسيه. إنك ستنامين في راحة ودعة بينما يساورني الهم والحزن، ولا سمير بجانبي!» وأخذ يندب حظه بصوت عالٍ.

قلت له: «إن الآنسة لن تزعجك مرّة أخرى، وستهدأ أكثر من ذي قبل إذا ما تَركَتْكَ وحيداً».

انحنت كاثرن فوقه وقالت بدلال: «أتودّ أن أذهب، قُلْ، أتود أن أتركك يا لنتون؟».

أجاب بصراحة: «لن يمكنك أن تصلحي ما فات».

قالت: «حسناً! سأذهب إذن!».

قال: «على الأقل اتركيني وحيداً، إني لا أطيق حديثك». تلكأت ولم تأبه إلى توسلاتي لمغادرة المكان، ولكنها اتجهت أخيراً نحو الباب بعد أن رأت أن لنتون لا يحرّك ساكناً وتبعتُها. وما كدنا نخطو بضع خطوات حتى زعق لنتون بأعلى صوته فعدنا أدراجنا. كان قد زلق عن مقعده وسقط بالقرب من الموقد وأخذ يتلوّى كطفل صغير أصيب بالطاعون. فأسرعَتْ إليه كاثرن مرتاعة وركعت إلى جانبه وأخذت تبكي وتلاطفه.

وقلت: «إنني سأرفعه على الأريكة ويمكنه عندئذٍ أن يتدحرج كما يشاء، إنه لا يمكننا أن ننتظر هنا طويلاً. آمل أن تكوني يا آنسة كاثي قد اقتنعتِ بأنكِ لستِ الشخص الذي يمكن أن يساعده، وأن حالته الصحية لا دخلَ لكِ فيها. هيا بنا، إنه حالما يعلم أنه ما من إنسان يهتم بأموره التافهة سيهدأ باله».

وضعت كاثي وسادة تحت رأسه وقدّمت إليه بعض الماء. رفض الماء، وألقى برأسه على الوسادة. متألماً. وحاولت أن تصلح وضعها فقال: «إنها ليست عالية. فأحضرَتْ وسادة أخرى ووضعتها فوقها».

فتمتم قائلاً: «إنها عالية جداً».

سألته عندئذٍ: «كيف ينبغي أن أضعها؟».

رفع رأسه قليلاً وألقى به على كتفها فقلت له: «لا، إن الآنسة قد أضاعت كثيراً من وقتها عليك، إنه لا يمكننا أن نظلّ هنا خمس دقائق أخرى».

أجابت كاثي: «نعم، نعم، إننا نستطيع. لقد تحسّنت أخلاقه الآن. وإنه بدأ يفكّر أنني سأقاسي أكثر منه هذه الليلة إذا جعلني أعتقد أنني قد سببت له الأذى بزيارتي، وعندئذٍ لن أتجرأ على الحضور إلى هنا مرّة أخرى. قُلْ الحق يا لنتون لأني لن أعود إلى هذا البيت إذا كنت تعتقد أنني آذيتك».

أجاب: «يجب أن تأتي لتساعديني على شقائي، ينبغي عليك أن تأتي لأنك آذيتني، لم أكن عندما حضرتِ أتألم كما أتألم الآن أليس ذلك صحيحاً؟».

فقلت: «ولكنكَ آلمتَ نفسكَ ببكائك ونحيبك وإثارة غضبك».

قالت ابنة خاله: «لم أفعل ذلك أبداً، وعلى كل حال دعنا نعود

أصدقاء الآن. إنك ترغب دون ريب في أن تراني أحياناً أليس هذا صحيحاً؟».

أجاب متأففاً: «لقد قلت لك نعم، اجلسي على الأريكة ودعيني أتكئ على ركبتك، كما كانت تفعل أمي. اجلسي هادئة ولا تتحدثي. ولكن يمكنك أن تغني لي أغنية إذا كنت تستطيعين أو يمكنك أن تروي على مسامعي قصة غنائية شعبية جميلة أو أية قصة أخرى، هيا».

وأخذت كاثرن تغنّي أطول أغنية تذكّرتها فسرّ الاثنان بذلك كثيراً. وأصرّ لنتون على أن تواصل الغناء تغني واحدة بعد أخرى ضارباً بمعارضتي الشديدة عرض الحائط وهكذا قضى الاثنان في الغناء والحديث مدة طويلة حتى أشارت الساعة إلى الثانية عشرة، وسمعنا وقع أقدام هرتون وهو عائد إلى البيت لتناول الغداء.

قال الفتى وهو يمسك برداء كاثرن بينما كانت تهم بالوقوف: «هل تعودين صباح الغد يا كاثرن؟».

أجابت: «كلا، ولا في اليوم التالي أيضاً. ولكنها همست في أذنه بكلمات تعارض هذا القول لأن أسارير وجهه انفرجت بعد ذلك».

وخرجنا من البيت، وما أن أصبحنا في الطريق العام حتى قلت لها: «تذكّري أنك لن تعودي غداً».

ابتسمَتْ. فأردفتُ قائلة لها: «إنني لن أتهاون معك، سأصلح القفل ولن تستطيعي الفرار أبداً».

ضحكت وقالت: «يمكنني أن أقفز من على الحائط، إن غرانغ لي سجناً يا ألن وإنك لست بحارس السجن. وبالإضافة إلى ذلك، لقد بلغت السابعة عشرة تقريباً وأصبحت امرأة. وإني متأكدة أن

لنتون سيستعيد قواه ويشفى بسرعة إذا اعتنيتُ بأمره. إنني أكبر منه سناً كما تعلمين، وأرجح منه عقلاً وسيفعل كما آمره. إنه حبيب جميل عندما يكون هادئاً. إننا لن نتخاصم بعد أن فهم كلّ منا الآخر. ألا تحبينه يا ألن؟».

تساءلت: «أحبه! إنه سيئ الخلق جداً، ولن يعمّر كثيراً كما يعتقد مستر هيثكلف. وأشكّ في أنه سيعيش حتى يحلّ فصل الربيع. لقد كان من حسن حظنا أن يتولى والده أمر تربيته، إنه كلما أمعنّا في ملاطفته ومعاملته برقة ولين كلما ازدادت غلاظته وأنانيته. إني سعيدة لأنه لا يوجد بصيص أمل في زواجك منه».

استاءت رفيقتي من هذا الحديث واغتاظت وآذت شعورها الإشارة إلى موته بدون اكتراث ولا مبالاة.

قالت لي بعد أن فكرت ملياً: «إنه أصغر مني سناً، ولا بدّ أنه سيعيش أكثر مني، بل يجب أن يعيش طالما ظللتُ على قيد الحياة. إنه قوي الآن كما كان عندما جاء من لندن. إني متأكدة من ذلك! إن الذي يؤلمه ويضعف جسمه هو البرد فقط، كما قال والدي. لقد قلت يا نيلي إن أبي ستتحسّن صحته، فلماذا لا تتحسّن صحة لنتون إذن؟».

صحتُ في وجهها قائلة: «حسناً، حسناً، لا ضرورة لأن نزعج أنفسنا. بإثارة هذا الموضوع. والآن اسمعي يا آنسة. إذا حاولتِ الذهاب إلى مرتفعات وذرينغ مرة ثانية معي أو بدوني فسأبلغ الأمر إلى مستر لنتون، ويجب ألّا تستأنف العلاقة بينك وبين ابن عمتك إلا إذا سمح أبوك بذلك».

تمتمت قائلة: «لقد استؤنفت!»

قلت: «إذن يجب ألا تستمر».

أجابت: «سنرى!» ومضت مسرعة أمامي نحو البيت.

وصلنا البيت قبل حلول موعد تناول غدائنا، وقد ظنّ سيدي أننا كنا نتجوّل في الحديقة ولهذا لم يوجِّه إلينا أي سؤال يستوضح فيه عن سبب تغيبنا. وحالما دخلت البيت أسرعت إلى إبدال حذائي وجواربي المبتلّة، لكن ذلك لم يجد نفعاً وقد أصبتُ بالبرد حيث ظللتُ مدة طويلة في (مرتفعات وذرينغ) وأنا أنتعل الحذاء المبتل والجوارب المبلّلة وكان نتيجة هذا أن لزمت الفراش ثلاثة أسابيع اعتباراً من صباح اليوم التالي، ولم أتمكّن خلال ذلك من تأدية واجباتي المنزلية.

سلكت سيدتي الصغيرة مسلكاً حسناً فكانت كالملاك الحارس ترعى أموري وتسليني في وحدتي. كانت في اللحظة التي تترك فيها غرفة والدها تأتي إلى جانب سريري. كان يومها موزعاً بيني وبينه. تخلّت عن جميع مسرّاتها، وأهملت تناول طعامها ودروسها وحتى لعبها، وكانت خير ممرضة عرفت. لقد كانت أيامها موزَّعة بيننا حقاً، لكن لياليها كانت لها وحدها، إذ كان سيدي يأوي إلى فراشه مبكراً ولم أكن أنا في الغالب بحاجة إلى أية مساعدة بعد الساعة السادسة. يا لها من مسكينة! لم أفكّر أبداً بماذا كانت تلهو بعد تناول الشاي في المساء. وقد كنت ألاحظ احمرار وجنتيها كلما دخلت غرفتي لتحييني تحية المساء وأعزي ذلك إلى شدة الحرارة في غرفة المكتبة ولم يكن يخطر ببالي أبداً أن هذا الاحمرار كانت تكسبه من برودة الطقس وهي تقطع المروج على صهوة مهرها إلى مرتفعات وذرينغ.

24

تمكّنت في نهاية الأسبوع الثالث من مغادرة غرفتي وصرت أتنقّل في أنحاء البيت. وفي أول فرصة استطعت فيها أن أسهر خارج غرفتي طلبت من كاثرن أن تقرأ لي شيئاً لأن عيناي كانا ضعيفتين. وافقَتْ ولكن بدون طيبة خاطر، وظننتُ أنّ كتبي لا تلائم ذوقها فأشرتُ إليها أن تختار ما يحلو لها قراءته. فاختارت كتاباً من كتبها المحببة واستمرت في قراءتها زهاء ساعة من الزمن ثم أخذت تسألني:

«ألستِ تعبة يا ألن؟ أليس من الأفضل أن تستريحي في سريرك الآن؟ إنك ستمرضين إذا سهرت طويلاً يا ألن».

فرددتُ عليها قائلة: «لا، لا يا عزيزتي، إني لست تعبة».

ولمّا رأت أني لم أتحرّك من مكاني، اتَّبعَت أسلوباً لتظهر عدم رغبتها في مواصلة مهمتها. فانتقلت إلى التثاؤب.

وقالت: «ألن، إنني متعبة».

أجبتها: «إذن ضعي الكتاب جانباً وحدّثيني».

وقد زاد الطين بلّة إذ اضطربت وأخذت تتأوه، وتنظر إلى ساعتها بين فترة وأخرى حتى اقتربت الساعة من الثامنة، وبعد ذلك صعدت إلى غرفة نومها وهي تحاول جاهدة طرد النعاس عنها. وفي

الليلة التالية بدت أكثر قلقاً وأقلّ صبراً وفي الليلة الثالثة تخلّصت من مجالستي بحجة أنها تعاني صداعاً حادّاً. احترتُ في سلوكها الغريب، وبعد أن مكثت طويلاً وحدي ذهبت إلى غرفتها لأستفسر عن حالها وأدعوها إلى أن تجلس بجانبي على الأريكة بدلاً من أن تظل وحيدة، فلم أعثر عليها لا في الطابق العلوي ولا السفلي، وأكد الخدم أنهم لم يروها. واقتربتُ من باب غرفة مستر إدغار وأصغيتُ فلم أسمع أي صوت داخل الغرفة. عدتُ إلى غرفتها وأطفأت شمعتي وجلستُ بجوار النافذة.

كان نور القمر يسطع في كبد السماء، والثلوج تغطي الأرض، فخطر على بالي أنها ربما هبطت إلى الحديقة لتستنشق بعض الهواء النقي. وتبين لي من النافذة شخصاً يسير على محاذاة السياج الداخلي للحديقة ولكنه لم يكن سيدتي الشابة. ولمّا اقترب عرفته فقد كان أحد ساسة الخيل. وقف الرجل فترة طويلة ينظر إلى الطريق العام ثم تقدّم بخطوات سريعة كأنه قد اكتشف شيئاً، وعاد وهو يمسك بمقود مهر الآنسة كاثرن، بينما كانت هي تسير إلى جانبه. تسلَّل الرجل إلى الإصطبل ودخلت كاثي البيت من نافذة غرفة الاستقبال وتسللت بخفة وهدوء إلى حيث كنت أنتظرها. أغلقت الباب وراءها بلطف وخلعت حذاءها ثم قبعتها دون أن تشعر بوجودي وما كادت تهمّ بخلع عباءتها حتى برزتُ فجأة وأشعرتها بوجودي. أذهلتها المفاجأة لأول وهلة وتمتمت ببعض كلمات مبدية استغرابها وجمدت في مكانها.

وبادرتُها الحديث قائلة: «عزيزتي الآنسة كاثرن، أين كنت في مثل هذه الساعة؟ ولماذا تحاولين أن تخدعيني باختلاق الأكاذيب؟ أين كنت؟ تكلّمي».

أجابت متلعثمة: «في أقصى الحديقة، إنني لا أكذب».
سألتها: «ألم تذهبي إلى مكان آخر غيره؟».
أجابت: «كلا».

صحت حزينة: «أوه، يا كاثرن! أنت تعلمين أنك مخطئة، وإلا لما كذبت علي.

إن عملك هذا يحزنني، إنني أفضّل أن أمرض ثلاثة أشهر على أن أسمعك تختلقين كذبة واحدة».

وقالت: «حسناً، يا ألن، إني أخشى أن تكوني غاضبة علي. عدي بأنك لن تغضبي عندما تعلمين الصدق. إني أكره أن أخفي عنك الحقيقة».

جلست على حافة النافذة، وأكدت لها أنني لن أوبخها مهما كان عملها وابتدأت تحدّثني:

«لقد زرت (مرتفعات وذرينغ) يا ألن ولم أتأخر يوماً واحداً عن الذهاب إلى هناك منذ أن مرضتِ ما عدا خمسة أيام. لقد أعطيتُ ميخائيل كتاباً وصوراً ليُعد لي المهر كل مساء وليعيده إلى الإصطبل عند عودتي. كنت أصل إلى هناك حوالي الساعة السادسة والنصف وأظلّ حتى الساعة الثامنة والنصف في أكثر الأحيان. ولم يكن الهدف من زيارتي تسلية نفسي فلقد كنت أشعر بالتعاسة طوال زيارتي وقلّما كنت أشعر بالسعادة.

لقد كان لنتون في زيارتي الثانية له يبدو ممتلئاً حياة ونشاطاً، ولقد أعدّت زيلا، مدبرة المنزل، في هذه الزيارة غرفة نظيفة لنا وأشعلت النار في موقدها وقالت لنا بما أن يوسف قد ذهب لحضور اجتماع ديني وخرج هرتون في نزهة فباستطاعتنا أن نفعل ما يحلو لنا. وقدّمت لي بعد وصولي بعض النبيذ والكعك، وعاملتني معاملة

طيبة جداً. وجلس لنتون في مقعد مريح بجانب الموقد فضحكنا وتحدثنا يغمرنا المرح والسرور، ورسمنا خطط المستقبل وماذا ننوي أن نفعل في الصيف القادم، ولست أرى حاجة في إعادة ذلك لأنك ستجدينه سخيفاً.

وكدنا أن نتخاصم ذات مرّة، فقد قال إن خير طريقة يقضي المرء فيها يوماً من أيام شهر يوليو الحار هي أن يضطجع من الصباح حتى المساء على ضفة جدول وسط المروج، والقبّرات تحوم فوقه، وهي ترسل ألحانها البديعة في الفضاء الواسع العريض، والسماء زرقاء صافية الأديم وأشعّة الشمس تملأ الدنيا. لقد كانت هذه فكرته المثلى عن السعادة السماوية بينما كانت السعادة في نظري هي التأرجح في أغصان شجرة وارفة الظلال، تهبّ عليها ريح غربية، وتصدح أغاني الطيور المختلفة، والسعادة تغمر الدنيا. إنه أراد أن ينعم كل شيء بنشوة السلام، بينما أردتُ أن يرقص كل شيء في بهجة وفرح. قلت له إن سماءه ستنقصها الحياة والحركة وقال إن سمائي ستكون سماء سكرى. وقلت له أيضاً إنني لا أستطيع إلا أن أنام في سمائه. وقال إنه لا يستطيع أن يتنفس في سمائي وأخذ يزداد عندئذٍ غلاظه، ولكن اتفقنا أخيراً على أن نجرّب كلتا الحالتين، حالما يأتي الطقس المناسب. ثم قَبَّلَ كل منا الآخر وعدنا صديقين حميمين.

وبعد أن جلسنا هادئين مدّة ساعة من الزمن، نظرتُ إلى الغرفة الواسعة وأرضها الناعمة وقلت ما أجمل اللعب فوقها، هيا ننقل المائدة من الوسط! وطلبتُ من لنتون أن يدعو (زيلا) لتساعدنا وتشاركنا في اللعب. لم يوافق على هذه الفكرة بادئ الأمر وقال إنه لا يجد في اللعب أية متعة، ولكنه وافق أخيراً على أن يلعب معي

بالكرة. وجدنا كرتين في الخزانة بين كومة من الألعاب القديمة. كانت إحداها تحمل الحرف (ك) والأخرى تحمل الحرف (هـ) وأخذتُ الكرة التي كتب عليها حرف (ك) لأنه يرمز إلى كاثرن، وأخذ هو الكرة التي كتب عليها حرف (هـ) لأنه يرمز إلى هيثكلف اسمه. فزت عليه طوال اللعب فغضب من جديد، وأخذ يقحّ وعاد إلى مقعده وقد سحر تلك الليلة من أغنيتين أو ثلاث وهي من أغانيك يا ألن. ولما وجدت نفسي مرغمة على مغادرة البيت رجاني وتوسّل إلي أن أزوره في الليلة القادمة فوعدته بذلك. وعدت إلى بيتي أسابق الريح وحلمت هذه الليلة بمرتفعات وذرينغ، وحبيبي ابن عمتي، حتى طلع الصباح.

شعرت بالحزن والأسى يحزان في قلبي في الصباح، لأنك كنت مريضة من جهة ومن جهة أخرى لأن أبي لا يعرف شيئاً عن زيارتي (لمرتفعات وذرينغ). ولقد بدا نور القمر رائعاً في مساء ذلك اليوم فقلت في نفسي سأتمتّع بالسعادة ليلة أخرى إلى جانب لنتون وبينما كنت أجتاز الحديقة لأدخل البيت، قابلني أرنشو وأمسك بمقود جوادي وطلب مني أن أذهب إلى المدخل الأمامي. وربّت على عنق مهري متودّداً له. فقلت له «دعْ حصاني وشأنه وإلا سيرفسك» فأجاب بلهجته الحقيرة «إنه لن يؤذيني إن فعل ذلك» وتقدّم أمامي ليفتح الباب، وبينما كان يرفع المزلاج نظر إلى الكتابة المحفورة فوق الباب وقال في بلاهة:

«آنسة كاثرن! لقد تعلّمت القراءة».

أجبتُ: «بديع! أرجوك أن تُسمعني - هل أصبحت أكثر ذكاء من ذي قبل؟!».

أخذ يهجي أحرف اسم هرتون أرنشو.

فقلت له مشجعة: «والأرقام؟».

أجاب: «إني لا أستطيع بعد قراءتها».

ضحكت من إخفاقه وقلت: «أوه، أيها الأبله!».

ذهل المجنون وفغر فاه ولم يعرف ما يقول ثم طلبت منه أن يبتعد عني لأني حضرت لرؤية لنتون ولم أحضر لرؤيته. احمر وجهه خجلاً ورفع يده عن المزلاج وابتعد عني.

قاطعتها قائلة: «كفى، يا عزيزتي! إنني غير راضية عن سلوكك. لو تذكرت فقط أن هرتون هو ابن خالك كما أن لنتون هو ابن عمتك لتبين لك سوء تصرفك.

لقد جعلته يخجل من جهله قبلاً وأراد أن يحاول إصلاح نفسه ويرضيك. فكان استهزاؤك بمحاولته عملاً غير طيب. فلو أنك نشأت في الظروف الذي نشأ فيها لكنت أكثر فظاظة منه. لقد كان ولداً ذكياً نبيهاً مثلك عندما كان طفلاً وإنه ليحزِنُني أن أراه يُحتقر الآن نتيجة سوء معاملة هيثكلف الحقير له».

دهشت من شدّة حماسي لهرتون وقالت: «حسناً يا ألن، لا تزعجي نفسك بسببه وعلى كل، لقد دخلتُ البيت، فوجدت لنتون يضطجع على الأريكة، وما أن رآني حتى نهض قليلاً ليرحّب بي. وقال:

«كاثرن! إنني تعب الليلة، يا حبيبتي، فسأترك لك الحديث كاملاً ودعيني أصغي إليك، تعالي واجلسي إلى جانبي. إني متأكد أنك لن تخنثي بوعدك ويجب أن تعديني مرة أخرى قبل أن تذهبي أنك ستعودين».

لقد كنت أعلم عند ذاك أنه لا ينبغي أن أكدّر مزاجه لأنه مريض، فحدثته بلطف ولم أسأله شيئاً وتجنبت إثارته أو إزعاجه بأية

وسيلة. كنت قد أحضرت له بعض كتبي الجميلة فطلب مني أن أقرأ له في أحدها قليلاً وكنت على وشك أن ألبّي طلبه، وإذ بأرنشو يدفع الباب بقوة ويتقدّم نحونا ويمسك لنتون من ذراعه ويطرحه أرضاً.

وقال بصوت مضطرب، وقد بدا على محياه الغضب الشديد: «اذهب إلى غرفتك، وخذها معك إلى هناك إنها قد جاءت لتراك، هيا اغربا عن وجهي كلاكما!».

وأخذ يصبّ جام غضبه وشتائمه علينا ولم يدع مجالاً للنتون ليردّ عليه، وكاد أن يقذف به إلى المطبخ، وبدا لي أنه يريد أن يضربني. ملأ الخوف قلبي في تلك اللحظة فسقط أحد الكتب من يدي فقذفه بقدمه خلفي وأغلق باب غرفته. وسمعت بعد ذلك قهقهة ورائي فأدرت وجهي ورأيت يوسف الشنيع يفرك يديه ويقول:

«لقد كنت متأكداً أنه سيطردكما، إنه ولد عظيم!».

لم أبالِ بسخرية ذلك العجوز التعس وسألت ابن عمتي: «إلى أين نذهب؟».

كان لنتون يرتجف وقد شحب لونه، وبدا مخيفاً. قبض على أكرة الباب وهزّه هزّاً عنيفاً إذ كان مغلقاً من الداخل، وزعق بأعلى صوته:

«إذا لم تدعني أدخل سأقتلك! أيها الشيطان سأقتلك، إنني سأقتلك!».

قهقه يوسف مرّة أخرى. وقال:

«إنه يشبه أباه! لا تبالِ يا هرتون، لا تخف إنه لا يستطيع أن يمسك بك!».

أمسكتُ بيدي لنتون وحاولت أن أبعده، إلا أنه زعق فلم أجرؤ على ذلك.

وأخيراً انتابته نوبة عنيفة من القحّة وتدفّق الدم من فمه وسقط على الأرض. خرجت إلى ساحة الدار بسرعة وأنا أرتجف من الفزع، ناديت زيلا بأعلى صوتي. فسمعت ندائي فوراً وتركت عملها في الإصطبل وأقبلت نحوي تسألني عما جرى. انعقد لساني من الخوف ولم أستطع أن أشرح لها الحادث فسحبتُها من يدها لأريها لنتون. كان أرنشو قد خرج من الغرفة ليرى ما جنت يداه وحمل المسكين إلى الطابق الثاني. صعدت أنا وزيلا السلّم خلفهما، لكن هرتون ردّني وقال لي: «اذهبي إلى بيتك». قلت له إنه سيقتل لنتون وإني لن أذهب أبداً. أغلق يوسف الباب في وجهي فأخذتُ أبكي حتى عادت زيلا وأكّدت لي أن حالته قد تحسّنت قليلاً عن قبل.

بكيت حتى كادت عيناي أن تبيضا من البكاء وأقبل الوغد فوقف أمامي وقال إن ما جرى لم يكن نتيجة خطئه فأكدتُ له أنني سأخبر أبي وأنه سيلقي به في غياهب السجون ويُشنق فيما بعد. فامتلأ قلبه ذعراً وأخذ ينتحب واختفى عن ناظري ليخفي اضطرابه، ومع ذلك لم أستطع التخلص منه. ولمّا أُرغِمْتُ على الرحيل وأصبحت على مسافة بضع مئات من الأمتار عن البيت أسرع خلفي وأمسك بمقود مهري وقال لي:

«إني حزين جداً».

ضربتُه بسوطي، وأسرعتُ إلى البيت وقد شردَ مني نصف عقلي.

إنني لم أحييك في تلك الأمسية تحية المساء ولم أذهب في الليلة التالية إلى مرتفعات وذرينغ. لقد كانت بي رغبة شديدة لزيارة المرتفعات ولكني كنت مضطربة إلى حدٍّ كبير. خشيت أن أذهب إلى

هناك فأسمع نبأ موت لنتون، وما أن جاء اليوم الثالث حتى تشجعت، إذ لم أستطع أن أصبر أكثر من ذلك على فراق لنتون وتسللتُ إلى هناك مرة ثانية. ذهبت في الساعة الخامسة سيراً على قدماي معتقدة أنني أستطيع أن أتسلل إلى غرفة لنتون دون أن يراني أحدهم. غير أن الكلاب أعلنت نبأ وصولي، فاستقبلتني زيلا وأبلغتني أن الفتى تحسّن كثيراً وأدخلتني إلى غرفة صغيرة، بسطت أرضها بالسجاد ورتّبت ترتيباً حسناً، وقد سررت جداً عندما أبصرت لنتون يجلس على أريكة صغيرة داخل الغرفة، ويقرأ أحد كتبي، ولكنه لم يتكلّم معي أو ينظر إليّ طوال ساعة كاملة، لقد كان يبدو حزيناً وقد ذهلت عندما فتح فاه وقال لي إنني كنت السبب في إثارة الضجة السابقة وإنه لا يضع اللوم على هرتون أبداً. لم أستطع أن أردّ عليه بلساني واكتفيتُ بأن خرجت من الغرفة، فتبعني بصوت خافت قائلاً: «كاثرن!» ولم يكن يعتقد أنني سأفعل ذلك، لم ألتفت إليه وعدتُ إلى البيت. وفي صباح اليوم التالي قررت ألا أزوره مرّة أخرى، ولكن ما أن أقبل المساء حتى ذهبت قراراتي أدراج الرياح. ولما سألني ميخائيل عما إذا كان من الضروري أن يعدّ لي المهر لزيارة مرتفعات وذرينغ أجبته بالإيجاب وما أن وصلت إلى هناك حتى رأتني زيلا فقالت لي:

«إن السيد الصغير في البيت».

دخلتُ فوجدت أرنشو هناك أيضاً ولكنه غادر البيت عندما رآني. كان لنتون يجلس على المقعد الكبير وهو نصف نائم. سرت نحو الموقد وقلت له في لهجة حازمة:

«بما أنك لا تودّ أن تراني، يا لنتون، وبما أنك تعتقد أني أقصد من وراء حضوري إيذاءك، فهذه آخر مرة نلتقي بها. فالوداع، وأبلغ

مستر هيثكلف عني أنك لا ترغب في رؤيتي. وينبغي عليه ألا يختلق أباطيل أخرى في هذا الموضوع».

أجاب: اجلسي واخلعي قبعتك، يا كاثرن إنك خير مني. لقد تحدّث أبي عن عيوبي ونقائصي ما فيه الكفاية، وهزَأ بي كثيراً حتى بتّ أشكّ بأنني شخص لا قيمة له وأصبحت أكره كل إنسان لأني شخص حقير، سيئ المزاج، مضطرب الفؤاد، فإذا كنت تودّين أن تستريحي من إزعاجي فاتركيني. ودّعيني الوداع الأخير. ولكن، صدقيني يا كاثرن لو أني أستطيع أن أكون لطيفاً، حلواً طيب القلب مثلك لما ترددتُ في ذلك، وصدّقي إن لطف معاملتك جعلني أحبك كثيراً، وإذا كنت لا أستطيع أن أبرهن عن مقدار حبي لك فإني حزين لذلك وسأظل حزيناً حتى أموت!

شعرت في قرارة نفسي بأنه لا ينطق إلا الصدق، كما شعرت بأنه ينبغي عليّ أن أسامحه، فتصافينا وامتزجت دموعنا.

ومنذ تلك الليلة أخذتُ أذهب دائماً إلى غرفة لنتون الصغيرة، لأن أباه عاد في اليوم التالي. وأعتقد أننا كنا سعداء يغمر نفسينا الأمل في ثلاث أمسيات كالأمسية الأولى التي قضيناها معاً. أما زياراتي الأخرى فكانت مجدبة، يسودها الاضطراب إما بسبب أنانيته أو بسبب مرضه. ولكني تعلّمت كيف أتحمّل أنانيته . ويبدو أن مستر هيثكلف كان يتجنّب ملاقاتي لغرض في نفسه فقلما رأيته هناك. وذهبت يوم الأحد الماضي إلى مرتفعات وذرينغ أبكر من المعتاد فسمعته يوبّخ لنتون المسكين على سوء تصرفه معي في الليلة السابقة، ولا أستطيع أن أعرف كيف علم بذلك، وأعتقد أنه كان يصغي إلينا. قطعتُ حبل محاضراته بأن دخلتُ الغرفة وقلت له إن ما جرى في الليلة الماضية يعنيني وحدي. انفجر ضاحكاً وغادر الغرفة بعد أن

قال إنه سعيد لأني نظرت إلى المسألة من هذه الناحية. وقد نصحت لنتون ألا يتحدّث لأحد بعد الآن عن آلامه.

والآن يا ألن، لقد سردت على مسمعك كل شيء، وليس باستطاعتي أن أمتنع عن الذهاب إلى مرتفعات وذرينغ، فإذا لم تقولي لوالدي فسيظل كل شيء على ما هو عليه ولن يقلق ذهابي إلى هناك باله. أرجوك ألا تخبريه فإن فعلت فستكونين بلا قلب».

أجبتها: «سأفكّر في الأمر حتى صباح غد. إن المسألة تحتاج إلى بعض الدراسة، فسأتركك الآن لتأخذي قسطاً من الراحة».

وقد غادرت غرفتي فوراً وتوجهت مباشرة إلى غرفة مستر لنتون وسردت له القصة بكاملها ما عدا حديث كاثي لابن عمتها، ولم أذكر شيئاً عن هرتون. دهش مستر لنتون وحزن أشد الحزن. وفي الصباح علمت كاثرن بخيانتي وعلمت أيضاً أن زياراتها السريّة قد انتهى أمرها. وعبثاً حاولت البكاء والشكوى من هذا الحكم، ورجت أباها أن يشفق على لنتون. فكان كل ما وعدها به هو أن يكتب إليه موجهاً الدعوة له لزيارة (غرانغ)، كلما سنحت له الفرصة، وقال لها والدها يجب ألا ينتظر لنتون رؤيتها في مرتفعات وذرينغ ولو علم بسوء حالة ابن أخته وتدهور صحته، لفضّل الامتناع عن مكاتبته.

25

قالت السيدة: لقد حدثت هذه الأشياء في الشتاء الماضي يا سيدي، قبل سنة واحدة تقريباً. لم أكن أعتقد في تلك السنة أنني بعد مضي اثني عشر شهراً سأروي إلى شخص غريب عن العائلة قصة أفرادها. ومع ذلك مَن يدري كم ستظل غريباً عن هذه العائلة؟ إنك شاب ولن ترضى بحياة الوحدة بالإضافة إلى أنه ما من أحد يرى كاثرن لنتون ولا يعشقها. أنت تبتسم، ولكن لماذا تشعّ في نفسك البهجة عندما أتحدّث إليك عنها؟ ولماذا طلبتَ مني أن أعلّق صورتها فوق الموقد؟ ولماذا؟

قلت: «كفى يا صديقتي الطيبة، من المحتمل أن أعشقها، ولكن هل ستبادلني الحب؟ إنني أشك في ذلك. إنني لست من سكان هذه البقعة، وإني من دنيا الأعمال وسأعود حتماً إلى أحضانها. امضي في حديثك، هل أطاعت كاثرن أوامر والدها؟».

أردفت مدبرة شؤون البيت قائلة: «لقد أطاعت أوامره. كان حبها له ما زال يسيطر على قلبها». ولقد قال والدها لي بعد مرور بضعة أيام:

«إنني أتمنى أن يكتب لنا ابن أختي أو يحضر إلى بيتنا. أخبريني

الصدق هل تحسَّنت حاله وهل هناك أمل في تحسّن صحته عندما يكتمل نموه ويصبح رجلاً؟».

أجبتُ: «إنه رقيق الجسم جداً يا سيدي، ولا يحتمل كثيراً أن يبلغ سن الرجولة، وما يمكنني قوله هو أنه لا يشبه أباه. وإذا ما أصاب الآنسة كاثرن سوء الطالع وتزوجت به فإنه سيكون رهن أمرها. وعلى كل حال فإن هناك يا سيدي متّسعاً من الوقت للتعرّف عليه ومعرفة ما إذا كان يصلح لها. إنه يحتاج إلى أربع سنوات أخرى ليصبح في سن صالح للزواج».

تنهّد إدغار، وتوجه إلى النافذة، وألقى بنظره، صوب غمرتون كيرك وقال محدثاً نفسه:

«كثيراً ما سألت الله أن يقرّب ما هو آتٍ، والآن بدأت أشعر بالخوف ممّا كنت أرجوه وآمل في أن يتحقق. ألن! لقد كنت سعيداً جداً برفقة كاثي الصغيرة، إنها كل أملي في الحياة. كيف يمكنني أن أتخلى عنها؟ إنني لا أبالي لحظة واحدة أكان ولد هيثكلف أم لا، ولا أمانع في أن يتزوج لنتون بها إذا استطاع أن يُسْلِيْها فقداني. إنني لا أمانع أن يفوز هيثكلف في النهاية ويسلبني آخر أعزّائي في الحياة! ولكن إذا كان لنتون لا يستحق هذه التضحية من جانبي وكان أداة طيّعة لوالده، فإنني لن أتخلى له عنها، وسأفضّل أن أسلّم أمرها إلى الله، وأدفنها تحت التراب بيدي».

أجبت: «سلم أمرها إلى الله، وإذا فقدناك، لا سمح الله ولا قدّر، فإني سأظلّ صديقة لها وأمحضها النصح حتى النهاية. إن الآنسة كاثرن فتاة طيبة حسنة الأخلاق، ولا أخشى عليها أن تحيد عن الطريق المستقيم».

وأقبل الربيع، ولم يستردّ سيدي قواه، غير أنه استأنف جولاته في الحديقة مع ابنته. وقد ظنّت الفتاة أن ذلك دليل على أن والدها قد أصبح في دور النقاهة، وتأكدت فيما بعد أنه قد شفي من مرضه عندما أصبحت ترى احمرار وجنتيه وبريق عينيه.

وحلّ يوم عيد ميلاد كاثرن السابع عشر، لكن إدغار لم يزر ساحة الكنيسة لأن الجو كان ماطراً فقلت له:

«إني أعتقد أنك لن تخرج هذا المساء من بيتك يا سيدي أليس كذلك؟».

أجاب: «كلا».

وكتب مرّة ثانية إلى لنتون يعرب عن رغبته الشديدة في رؤيته. فردّ عليه قائلاً إن مستر هيثكلف قد عارض ذهابه إلى (غرانغ) ولكن عطف خاله بعث في نفسه البهجة، وأعرب عن أمله في أن يلقاه يوماً ما أثناء جولاته. وقال إنه يرجو ألا يطيل الفراق بينه وبين ابنة خاله.

كان هذا الجزء من رسالته بسيطاً ويحتمل أن يكون من إنشائه، أما الجزء الآخر فقد قال فيه: «إني لا أطلب أن تزورني كاثرن في مرتفعات وذرينغ. ولكن أرجو أن ترافقها بين آنٍ وآخر في الطريق المؤدية إلى المرتفعات فعندئذٍ يمكن أن نتقابل معاً في الطريق فنتبادل بعض كلمات في حضورك! إننا لم نرتكب ذنباً يستوجب عقابنا بهذا الفراق، ومع هذا فأنت غير غاضب مني. خالي العزيز ! أرسل إلي غداً مذكّرة لطيفة واسمح لي أن أقابلك في أي مكان تختاره ما عدا (ثرشكروس غرانغ). أعتقد أن مقابلتي لك مرّة واحدة ستقنعك أن أخلاقي تختلف عن أخلاق والدي. إن والدي يؤكد لي أنني أشبهك أكثر مما أشبهه. ومع أن لي بعض العيوب التي تجعلني غير آهل لكاثرن فيجب أن تعفو عن هذه العيوب لأجلها. إذا سألت عن

صحتي فإنني أحسن حالاً الآن، ولكن إذا بقيت بدون أمل، أعيش مع أشخاص لا يحبونني ويعطفون علي، فكيف أكون سعيداً؟

ومع أن إدغار كان يعطف على الصبي إلا أنه لم يوافق على إجابة طلبه لأنه لم يكن بإمكانه أن يرافق كاثرن. فردّ عليه قائلاً إنهما اجتمعا في الصيف المقبل وفي الوقت ذاته أعرب له عن أمله في أن يستمر في كتابة رسائله. وقد استجاب لنتون لرغبة خاله، وكانت رسائله كلها تدور حول نقطة واحدة وهي بعده عن صديقته وحبيبته. وكانت كاثي حليفة قوية له في البيت، وأخيراً أقنعت كاثرن والدها بأن يوافق على أن تقوم بجولة مرة في الأسبوع تحت إشرافي وذلك في المروج القريبة من (غرانغ). لقد كان سيدي يرغب في أن تعود ثروة ابن أخته بعد وقت قصير إلى عائلة لنتون وكان يعتقد أن الأمل الوحيد لتحقيق ذلك هو قرانها من الوريث الشرعي لأملاك العائلة. ولم يكن يخطر على باله أن هذا الوريث يقترب من النهاية أسرع منه. ولم يكن ذلك يخطر على بال أحد، حسبما أعتقد، لأنه لم يزر المرتفعات أي طبيب، ليقدّم تقريراً عن حالة الصبي الصحية ولقد بدأت في ذلك الحين أعتقد أن تنبؤاتي السابقة كانت خاطئة، وأن لنتون الصبي قد استردّ نشاطه وقواه ولم أستطع أن أتصوّر أن أباً يعامل طفلاً يكاد أن يموت بمثل الطريقة الاستبدادية الفظة التي علمت فيما بعد أن هيثكلف يعامل بها ابنه. فيرغمه بالقوة على أن يظهر بمظهر القوي النشيط وذلك لتحقيق خططه وأطماعه.

26

استجاب إدغار مكرهاً إلى توسّلات كاثرن ولنتون بعد أن بلغ الصيف ذروته وعنفوانه، وتوجهتُ أنا وكاثرن لمقابلة ابن عمتها لأول مرة منذ افتراقهما الطويل. لقد كان ذلك اليوم حاراً، وكان مكان اجتماعنا قد حدد عند مفترق الطرق. فلما وصلنا إلى هناك قابلنا راعياً صغيراً وقال لنا إن السيد لنتون ينتظرنا بالقرب من المرتفعات وإنه سيكون شاكراً إذا واصلنا سيرنا إليه.

قلت: «إذن لقد نسي السيد لنتون أول موعد لابنة خاله».

وقالت رفيقتي: «حسناً، إننا سنعود إلى بيتنا دون أن نتكلّم معه حالما نصل إلى مكانه ونراه».

ولما وصلنا، وجدنا لنتون بدون جواد، فاضطررنا إلى أن نترجّل. كان يضطجع على الحشيش ينتظر وصولنا ولم ينهض حتى أصبحنا على مسافة بضعة أمتار منه. تقدّم نحونا يسير الهوينى وكان يبدو شاحب اللون فبادرته الحديث قائلة:

«ماذا دهاك يا سيد هيثكلف؟ إنك لا تبدو في حالة تسمح لك القيام بجولة في هذا الصباح إنك مريض جداً على ما يظهر».

نظرت إليه كاثرن باستغراب، وغاضت ابتسامة السرور التي

كانت ترتسم على ثغرها وتبدّلت تحية اللقاء التي كانت تتلهّف لها إلى سؤال عن حالته الصحية.

أجاب وهو يرتجف، وقد احتفظ براحتها في يده كأنه بحاجة إلى مساعدتها: «لا، لا، إنني أحسن حالاً».

ولكنها قالت: «إنك لا تبدو في صحة جيدة إنك تبدو أسوأ حالاً من المرة الأخيرة التي رأيتك فيها، إنك تبدو أكثر نحولاً و...».

قاطعها قائلاً: «إنني تعب، إن الطقس حار جداً، دعينا نستريح هنا. إني أشعر بتعب في الصباح غالباً. أبي يقول إن سبب ذلك نموي بسرعة أكثر من الطبيعي».

لم تقتنع كاثي وجلست وجلس إلى جانبها، وقالت وهي تحاول جهدها أن ترسل السرور في نفسيهما:

«إن هذا المكان يشبه بعض الشيء فردوسك الذي تنشده. هل تتذكر اليومين اللذين اتفقنا على أنهما خير أيام الحياة. هذا اليوم هو أحدهما، إنه اليوم الذي تنشده، ولكن هناك بعض الضباب في السماء إلا أنه ضباب رقيق يحمينا من أشعة الشمس».

لم يبدُ على لنتون أنه استطاع أن يتذكّر أقوال كاثرن، كما تبين لي أنه كان يلاقي صعوبة كبيرة في مواصلة أي حديث مهما كان نوعه. لقد كان عدم اهتمامه بالمواضيع التي شرعت كاثي في إثارتها معه وعدم مقدرته على مشاركتها الأحاديث واضحاً فلم تستطع أن تخفي بذلك خيبة أملها. لقد تبدّل كل شيء في شخصيته وأخلاقه تبدلاً كلياً. أصبح يعتبر كل مزاح صادر عن الآخرين بروح طيبة إهانة له. ولاحظت كاثرن، كما لاحظتُ، أنه كان يرى في اصطباره على تحمّل أحاديثنا عقاباً له. فلم تتأخر كاثرن عن إبداء رغبتها أمامه

بالعودة إلى البيت. فأثار هذا الاقتراح اضطراباً شديداً في نفسية الفتى لم يكن متوقعاً. ونظر بفزع إلى (مرتفعات وذرينغ) ورجا كاثرن أن تظل إلى جانبه نصف ساعة أخرى على الأقل.

قالت كاثي: «ولكني أعتقد أنك ستجد راحة في بيتك أكثر من هنا، وأرى أنني لا أستطيع اليوم أن أبعث البهجة في نفسك بقصصي وأغنياتي وحديثي. لقد أصبحتَ أكثر رزانة خلال الأشهر الستة الأخيرة. إنك لم تعد تستسيغ دعابتي، ولولا ذلك لبقيتُ بكل طيبة خاطر».

أجاب: «لا تذهبي، ولا تفكري يا كاثرن أو تقولي إني معتلّ الصحة، كل ما في الأمر أن الطقس الحار يؤثر على أعصابي ويجعلني كسولاً. أخبري خالي أنني في صحة جيدة».

قالت سيدتي الصغيرة: «سأبلغه ما تقول يا لنتون، ولكني لا أستطيع أن أؤكد أنك كذلك».

وأضاف يقول: «ستكونين هنا مرّة ثانية يوم الخميس القادم، وأبلغيه شكري لسماحه لك بالحضور، شكري الخالص له يا كاثرن، وإذا ما قابلت والدي وسألك عني فلا تدعيه يحكم عليّ أنني كنت غبياً معك إلى حدٍّ كبير، ولا تظهري أمامه بمظهر محزن فإنه سيغضب كثيراً».

قالت كاثي: «إني لا أبالي أبداً بغضبه».

أجاب ابن عمتها وهو يرتجف: «ولكني أبالي بغضبه، أرجوك ألّا تثيريه ضدي يا كاثرن، لأنه قاسٍ جدّاً!».

سألته: «هل هو قاسٍ في معاملتكَ، هل ملَّ رعايتك وتربيتك، وأصبح يكرهك؟».

نظر إليّ ولم يجب. وظلّت كاثي تجلس إلى جواره وبعد مضي

عشر دقائق أخرى، استسلم للنوم وألقى برأسه على صدره وهو يئن أنيناً ينمّ عن الألم والتعب.

وهمست كاثي في أذني أخيراً قائلة: «لقد مضى علينا أكثر من نصف ساعة يا ألن، إني لا أعرف ما الفائدة من بقائنا هنا طويلاً، إنه نائم وأبي ينتظر عودتنا».

أجبتها: «إننا لا تستطيع أن نتركه نائماً لوحده، انتظري حتى يستيقظ».

قالت: «لماذا طلب مقابلتي؟ لقد كنت سابقاً أحبّه في أعنف حالات اضطرابه أكثر مما أحبه الآن وهو في حالته الغريبة. إنه يبدو أنه يقوم بتمثيل دور مرغم على تأديته. إنني سعيدة لأن صحته تحسّنت عن ذي قبل، إلا أنني حزينة جداً لأنه أقل ميلاً لي».

قلت: «هل تعتقدين أنه أحسن حالاً من قبل؟».

أجابت: «نعم، لقد كان دائماً يشكو من آلامه، أما الآن فإنه يبدو في صحة جيدة وقد قال لي أن أبلغ أبي ذلك».

قلت: «إني أخالفك في الرأي يا آنسة كاثي، أعتقد أنه أسوأ من ذي قبل بكثير».

انتفض لنتون من نومه فجأة في خوف واضطراب وسأل عما إذا كان قد ناداه أحدهما.

قالت كاثرن: «لا، لا، أبداً ربما كان ذلك في الحلم».

قال: «أعتقد أنني سمعت أبي. هل أنتما متأكدتان أنه لم يتكلّم أحد معي؟».

أجابت ابنة خاله: «بكل تأكيد، لقد كنت أتجادل مع ألن حول صحتك. هل تشعر بأنك أحسن حالاً ممّا كنت عندما افترقنا في

الشتاء الماضي؟ إذا كنت كذلك فإني متأكدة أن حبك لي قد ضعف عن ذي قبل. تكلّم أليس ما أقوله صحيحاً؟».

انسابت الدموع من عينيه وأجاب قائلاً:

«نعم، نعم، إنني كذلك».

نهضت كاثي وقالت: «يجب أن نفترق الآن، ولا أخفي عليك أني حزينة ومع ذلك فلن أذكر شيئاً عن هذا لأحد سواك، وليس ذلك معناه أنني أخشى مستر هيثكلف».

تمتم لنتون قائلاً: «اسكتي بحق السماء إنه قادم صوبنا».

وتعلّق بذراع كاثرن محاولاً إبقاءها إلى جانبه. ولكنها ما أن سمعت بقرب وصول مستر هيثكلف حتى أفلتت نفسها بسرعة، ونادت مهرها.

وقالت وهي تقفز على صهوة جوادها: «سأكون هنا يوم الخميس القادم، وداعاً يا لنتون، وأسرعي، أسرعي، يا ألن».

وهكذا تركناه وحيداً غارقاً في تأملاته.

وقبل أن نصل إلى البيت، تحوّل سخط كاثرن على لنتون إلى شعور بالشفقة والأسى، نظراً إلى سوء حالته الصحية وظروفه الاجتماعية. وقد طلب سيدي أن نحدثه عن اجتماعنا بلنتون. فأبلغناه شكره، وسردت الآنسة كاثي بلطف ما جرى في الاجتماع وأجبتُ أنا عن أسئلته وقد وجدتُ كثيراً من الصعوبة في كتم ما يجب كتمه، وذِكْر ما يجب ذِكْره.

27

مرّت سبعة أيام سراعاً، وكان كل واحد منا يلاحظ أثناء ذلك التغير السريع الذي طرأ على حالة إدغار لنتون. وأصبحنا نتوقع الكارثة بين ساعة وأخرى، ولم يَخْفَ ذلك على كاثرن التي حاولت ألّا تذكر موعدها مع لنتون يوم الخميس غير أنني ذكرتها به وحصلتُ لها على إذن من والدها بمغادرة البيت، لقد اصفر لونها من الحزن والقلق على أبيها وأصبح عالمها مقتصراً على غرفة المكتبة التي كان يعتكف فيها أثناء النهار وعلى غرفة نومه. وكانت تُرى دائماً إما منحنية فوق وسادته وإما جالسة إلى جانبه، حتى إنه توسّل إليها أن تبدّل نظام حياتها.

لم نذهب بالموعد المحدد فقد أخرنا رحلتنا إلى ما بعد الظهر، وكان ذلك اليوم من أيام آب الذهبية الجميلة. ولما وصلنا وجدنا لنتون ينتظر في البقعة نفسها التي اختارها قبلاً. ترجّلت سيدتي الشابة وقالت لي إنها قد صمَّمت على أن تمكث برهة قصيرة جداً، فمن الأفضل أن أمسك بمقود المهر وأظلّ على صهوة جوادي. لم أصغِ إلى قولها وترجلتُ لأني لم أشأ أن أحيد نظري عنها لحظة واحدة، وصعدتُ معها المنحدر الصغير. استقبلنا لنتون بحيوية أكثر من السابق. إلّا أنه لم تبدُ عليه روح المرح، بل بدا عليه الخوف أكثر

من ذلك. وقال لكاثرن: «لقد تأخرت! هل والدكِ مريض جداً؟ ظننت أنك لن تحضري».

صاحت كاثرن دون أن تحييه: «لماذا أنت غير صريح معي؟ لماذا لا تقل على الفور أنك لا تود أن تراني؟ هذه هي المرّة الثانية التي تدعوني فيها للحضور إلى هنا هادفاً من وراء ذلك إزعاجنا فحسب».

نظر إليها نظرة مشوبة بالتضرّع والخجل ولكن الفتاة لم تستطع أن تتقبل هذا التصرّف المبهم. وقالت:

«أبي مريض جداً، فلماذا جعلتني أتركه وأبتعد عن سريره؟ لماذا تطلب مني أن أقابلك في الوقت الذي لا ترغب في ذلك؟».

تمتم قائلاً: «لا تغضبي يا كاثرن! احتقريني. إنني شخص خاسر، تعس، جبان، إلى غير ذلك».

صاحت كاثرن غاضبة: «هذا هراء! إنك صبي أحمق، غبي! إنك ترتجف!

اغرب عن وجهي! سأعود إلى البيت - من الحماقة أن تترك الموقد. ألن، أخبريه عن سلوكه المخزي المشين».

صاح باكياً: «أوه! لا أستطيع أن أتحمّل هذا يا كاثرن، إنني خائن ولا أجرؤ على القول! إذا تركتني وحيداً فسأقتل نفسي. عزيزتي كاثرن إن حياتي بين يديك».

وعندما شاهدت سيدتي الشابة شدّة بؤسه وتعاسته، انحنت لتساعده على النهوض عن الأرض. وقالت له: «اعترف لي فوراً بما يشغل ضميرك. إنك لن تدع أي عدو لي يؤذيني، وسترُدّ عني كَيْدَ أخصامي، أليس كذلك؟ أعتقد أنك جبان في الدفاع عن نفسك ولكنك لن تخون بجبن ونذالة وخسّة خير صديق لك».

فتح الفتى فاه وقال في اضطراب شديد: «ولكن أبي يهددني، وإني أخشاه، ولا أجرؤ أن أقول لك».

قالت كاثرن وهي تنظر إليه باحتقار: «حسناً! احتفظ بسرّك، إنني لست جبانة، أبقِ على حياتك وحافظ على روحك، لست خائنة».

أثار علو نفسها واعتزازها بشخصيتها الألم في نفسه فبكى، وسالت الدموع غزيرة على خديه وقبّل يديها ولم يجد لديه القدرة والشجاعة ليردّ عليها. وبينما كنت أفكّر في هذا السر سمعت وقع أقدام بالقرب مني فتطلّعت إلى مصدر الصوت وإذ بي أرى مستر هيثكلف. حيّاني بلهجة وديّة خالصة حتى جعلني أشكّ في أمره، وقال:

«إنني سعيد لرؤيتك بالقرب من داري يا نيلي! كيف حالك خبرينا عمّا يجري في غرانغ. لقد سمعت شائعات مفادها أن إدغار لنتون على فراش الموت، فهل ذلك مبالغ فيه؟».

أجبت: «إن سيدي يموت، إنه شيء محزن حقاً ولكن في ذلك رحمة له!».

سألني: «كم تعتقدين أنه سيظل بعد على قيد الحياة؟».

أجبتُ: «لا أعلم».

أدار وجهه إلى لنتون وكاثرن اللذين كانا يتبعهما بنظراته من طرف خفي وأضاف يقول: «إن ذلك الفتى يبدو على ما يظهر مصمماً على أن يهزمني، وسأكون شاكراً لخاله لو أسرع في مغادرة هذه الدنيا وسبقه إلى الآخرة. هل أحسن لنتون معاملة الآنسة؟».

أجبت: «كلا، إنه كان من الخير أن يلتزم فراشه، ويشرف عليه أحد الأطباء بدلاً من أن يتجوّل مع حبيبته فوق هذه التلال».

قال هيثكلف متلعثماً: «سأدعو إليه الطبيب خلال يوم أو يومين، ولكن قبل كل شيء - انهض يا لنتون! انهض! (صائحاً بأعلى صوته). لا تتمرّغ على الأرض!».

وخيّل لي أن الفتى قد غاص في لجّة من الخوف الشديد حتى إنه لم يستطع أن ينهض من مكانه، وعبثاً حاول ذلك عدة مرات، لقد كان يسقط على الأرض بعد كل محاولة، وهو يئنّ أنيناً خافتاً. تقدّم مستر هيثكلف نحوه ورفعه عن الأرض وقال له:

«إني حانق عليك، حلّت عليك اللعنة إذا لم تستطع أن تسيطر على روحك الحقيرة. هيا انهض يا هذا!».

تكلّم لنتون بجهد قائلاً: «سأفعل ذلك يا أبي. دعني فقط لوحدي قليلاً وإلا فإنه سيغمى عليّ. لقد فعلتُ ما أردتَه مني، إنني واثق من ذلك. وستُخبرك كاثرن أنني كنت مرحاً. آه ساعديني يا كاثرن على الوقوف، ناوليني يدك».

قال أبوه: «خذ يدي، قف على رجليك، والآن ستمدّ لك ذراعها. انظر إليها، هل تكرّمتِ بمرافقته إلى البيت؟ إنه سيرتجف فزعاً إذا لمسته».

همست كاثرن في أذن الفتى: «عزيزي لنتون! إنني لا أستطيع أن أذهب إلى مرتفعات وذرينغ لقد منعني من ذلك والدي، لن يؤذيك لماذا أنت خائف جداً؟».

أجاب: «لا أستطيع أن أعود إلى البيت، لن أعود إليه بدونك!».

صاح والده: «قِفْ! يجب علينا أن نحترم معارضة كاثرن. نيلي، رافقيه إلى البيت وسأتبع نصيحتك فيما يتعلّق بدعوة الطبيب لمعالجته بدون أدنى تأخير».

أجبت: «حسناً ستصنع، ولكن لا يمكنني أن أترك سيدتي وحيدة. ليس من واجبي الاهتمام بشؤون ابنك».

قال هيثكلف: «إنك قاسية. إنني أعلم أن - ولكنك سترغمينني على صفع الفتى، حتى أحرّك الشفقة في نفسك عليه. تعالَ معي يا شجاعي. هل أنت عازم على العودة برفقتي؟».

اقترب هيثكلف من ابنه مرّة أخرى وبدا كأنه يهمّ بأن يمسك شيئاً قابلاً للكسر كالزجاج ثم ابتعد عنه. وتعلّق لنتون بابنة خاله وتضرّع إليها أن ترافقه فلم تستطع أن ترفض طلبه، عارضتُ في طلبه ولكنني لم أستطع منعها من ذلك. ووصلنا إلى مقربة من البيت، ودخلته كاثرن ووقفتُ أنتظرها في الخارج، وبينما أنا في انتظارها وإذا بمستر هيثكلف يدفعني إلى الأمام ويقول:

«إن بيتي لم يبتلِ بداء الطاعون بعد، وإني اليوم أرحّب بكما. اجلسي واسمحي لي أن أغلق الباب».

أغلق الباب خلفي وأدار القفل فيه أيضاً فأذهلني عمله.

وأضاف يقول: «ستتناولين قدحاً من الشاي قبل أن تعودي. سأعدّه بنفسي، لقد ذهب هرتون إلى (لنز) وأخذ معه بعض الماشية، وذهبت زيلا ويوسف في نزهة. ومع أني معتاد على الوحدة، إلا أنه يلذّ لي أحياناً أن أجلس مع جماعة يجيدون التسلية والحديث. هيا اجلسي يا آنسة لنتون إلى جانب لنتون، إنني أقدّم لك ابني، وليس عندي ما أقدّمه غيره، أعلم أن هديتي لا تستحق التقديم إلّا إلى حدٍّ ما. لماذا تنظرين إليّ أيتها الفتاة الغريبة؟ إنني أحسّ بشعور وحشي نحو أي شيء يبدو أنه يخاف مني! فلو كنت أعيش في بلد قوانينه أقل صرامة منها في هذا البلد لما منعتُ نفسي عن تشريح جسدَيْ هذين الشخصين في هذه الأمسية».

وانتفخت أوداجه ثم ضرب الطاولة وقال: «إني أكرههما بحق الشيطان!».

قالت كاثرن التي لم تسمع الجزء الأخير من كلامه: «لست خائفة منك!».

واقتربَتْ منه وفي عينيها عزم وقوة وقالت له:

«أعطني هذا المفتاح، لن أشرب أو أتناول أي طعام هنا حتى ولو متّ من الجوع».

كان هيثكلف يمسك بالمفتاح. تطلّع إليها مدهوشاً من جرأتها أو ربما ذكره صوتها ونظرتها بالشخص الذي ورثتهما عنه.

حاولت أن تخطف المفتاح وكادت تنجح في ذلك، إلا أن عملها هذا أيقظه من أحلامه وردّه إلى الواقع فاستخلصه بسرعة. وقال:

«والآن يا كاثرن لنتون، ابتعدي عني وإلا فسأطرحك أرضاً، وسيطير بذلك قلب السيدة دين».

لم تبالِ بهذا الإنذار وأمسكت بقبضة يده مرّة أخرى وقالت: «يجب أن نغادر هذا المكان». وأخذت تحاول كل جهدها لتفلت من عضد عضلاته الفولاذية، ولما وجدت أن أظافرها لا تجدي نفعاً استخدمت أسنانها. وألقى هيثكلف إليّ نظرة سريعة جعلتني أقف على الحياد لبرهة واحدة. كانت كاثرن منهمكة في تفريق أصابعه عن بعضها فلم تلاحظ تغيُّر قسمات وجهه. وفتح راح يده فجأة وتخلّى عن المفتاح ولكن قبل أن تستولي عليه تماماً، أمسك بها بيده وأخذ يصفعها باليد الأخرى على رأسها، صفعات عنيفة واحدة بعد أخرى، وكانت كل صفعة كافية لتنفيذ تهديده.

وما أن رأيت هذا العمل الشيطاني حتى اندفعت نحوه مغتاظة حانقة وصحتُ في وجهه قائلة:

«إنك لوغد حقير!».

فما كان منه إلا أن دفعني بصدري فأسكتني، وبما أنني كنت بدينة انقطع نفسي، وكاد الدم يتفجّر من شراييني. ولم يستغرق هذا المنظر أكثر من دقيقتين، أفلتَ هيثكلف في نهايته كاثرن من قبضة يده. ووضعت الفتاة راحتيها على صدغيها وأخذت ترتجف كريشة في مهبّ الريح، واتكأت على الطاولة وهي مرتاعة مضطربة.

تقدّم الوغد ليلتقط المفتاح عن الأرض وقال: «أرأيتِ، كيف أعرف معاقبة الأطفال؟ اذهبي إلى لنتون الآن كما قلت لك، وابكي ما طاب لك البكاء! سأصبح والدك غداً، ستذوقين مثل هذا الضرب كلما لاحظت هذا الطبع الشيطاني في عينيك!».

اقتربت كاثي مني بدلاً من لنتون، وركعت على الأرض لتضع وجنتها المحترقة على ركبتي وأخذت تبكي بصوت عالٍ، كان ابن عمتها قد انكمش بعيداً كالفأر. ولما أدركَ مستر هيثكلف أن الارتباك والحيرة قد سادا الغرفة نهض من مكانه ليعدّ الشاي بنفسه. كانت الأكواب جاهزة فصبّ فيها الشاي وقدّم إليهما واحداً منها. وقال:

«أزيلي بهذا غضبك، إنه ليس مسموماً مع أني أعددته. أنا ذاهبٌ لأحضر لكما جواديكما».

وكان أول شيء طرأ على عقولنا عندما غادر غرفتنا هو إيجاد مخرج لنا بالقوة. حاولنا فتح باب المطبخ لكنه كان مغلقاً من الخارج. نظرنا إلى النوافذ فكانت ضيقة جداً لا تكفي لخروج كاثي. ولما تبين لي أن هيثكلف يقصد حجزنا في بيته صحتُ في وجه لنتون قائلة: «يا سيد لنتون إنك تعلم ماذا ينوي أبوك الشيطان أن يصنع

بنا، أخبرنا وإلّا فسأصفعك على وجهك كما صفع أبوك ابنة خالك».

قالت كاثرن: «نعم، يجب أن تخبرني يا لنتون، لم أحضر إلى هنا إلا من أجلك، وستكون ناكراً للجميل إذا رفضتَ طلبنا».

أجاب: «أعطني قليلاً من الشاي إنني ظمئ ثم أخبرك».

وأضاف يقول: «ابتعدي يا سيدة دين، لا أحب أن تقفي فوق رأسي، وأنتِ يا كاثرن، دموعك تسقط في كأسي، أعطني كأساً أخرى».

وأعطته كاثرن كأساً أخرى، ومسحت وجهها، واحترتُ في حالة هذا الشقي، إذ لم يكن يبدو عليه أي أثر للرعب أو الفزع. فالجزع الذي أظهره عندما كنا في المروج قد زال تماماً بعد دخولنا مرتفعات وذرينغ.

وبعد أن احتسى جرعة من الشاي، أردف يقول: «إن أبي يريد أن يزوِّجني منك. وهو يعلم أن أباك لن يوافق على زواجنا في الصباح وستبيتين هنا الليلة، وإذا ما تحققت رغباته سمح لكما بالعودة إلى البيت في اليوم التالي ورافقتكما إلى هناك».

صحتُ قائلة: «هل تأخذك معها أيها - هل ستتزوج أنت؟ لا شك أن الرجل قد فقد عقله أتعتقد أن هذه الفتاة الشابة الجميلة، الممتلئة صحة ونشاطاً ستربط مصيرها بمصير قرد صغير في طريق الفناء مثلك؟ هل تعتقد أن أية فتاة، إذا تركنا كاثرن على حدة، تقبل بك زوجاً لها؟ إنك تستحق الضرب بالسياط لأنك كنت السبب في دخولنا إلى البيت. إنها حيلتك وألاعيبك التي جعلتنا ندخل، فلا تظهر نفسك بمظهر الأبله الآن! ما أشدّ رغبتي في صفعك بقوة أيها الماكر المحتال!».

وصفعتُه فعلاً صفعة خفيفة فانتابته القحّة وأخذ يبكي ويئن كعادته.

أما كاثرن فوبّخته وقالت له: «هل تعتقد أننا سنظل هنا طوال الليل؟ كلا. إنني سأحرق هذا الباب وسأخرج من البيت».

وهمّت بتنفيذ تهديدها مباشرة غير أن لنتون خشي على نفسه مرة أخرى. فأمسك بها بكلتا ذراعيه الضعيفتين وتضرّع إليها قائلاً:

«هلا أنقذت حياتي، ألا تريدين أن تأخذيني معك إلى (غرانغ)؟ أوه يا عزيزتي كاثرن! لا تذهبي وتتركيني وحيداً. أرجوك أن تطيعي أوامر والدي!».

أجابت: «بل يجب عليّ أن أطيع والدي. إذا بقيت الليل بطوله هنا جالت في أفكاره مختلف الهواجس يجب أن أجد لنفسي مخرجاً من هذا البيت إما بحرقه أو بهدمه. ليهدأ بالك! إنك في مأمن من الخطر، ولكن إذا وقفت عقبة في طريقي - ألا تعلم أني أحب والدي أكثر منك؟».

وهنا عاد هيثكلف وقال: «لقد فرّ جوادكما، والآن قل لي يا لنتون، ماذا كانت تحدّثك؟ تقدّم، تقدّم واذهب إلى سريرك. سيكون في مقدورك أن ترد لها الصاع صاعين خلال شهر أو شهرين. هيا إلى فراشك! إن زيلا لن تعود إلى البيت هذه الليلة يجب أن تخلع ثيابك بنفسك».

فاه بهذه الكلمات ثم فتح الباب ليخرج ابنه وأعاد إقفاله بعد ذلك. وتقدّم هيثكلف نحو الموقد حيث كنت وسيدتي نقف وكأن على رؤوسنا الطير. ورفعت كاثرن رأسها ثم رفعت يدها إلى وجنتها بدون وعي وأرسلت أنّة خفيفة. فتمتم هيثكلف قائلاً:

«أوه! ألا تخافين مني؟!».

أجابت: «إني خائفة الآن، لأن والدي سيقلق عليّ وسيقتله الحزن إذا بقيت هنا. مستر هيثكلف، أرجوك أن تتركني أعود إلى البيت! أعدكَ بأنني سأتزوج لنتون، أبي يرغب في أن يتمّ زواجي به. وإني أحبّه، فلماذا إذن تودّ أن ترغمني على أن أفعل ما أحب أن أفعله من تلقاء نفسي وعن طيبة خاطر؟».

قلتُ: «إنه لا يجرؤ أن يرغمك على ذلك. شكراً لله على أن في البلاد قوانين وأنظمة».

قال الوغد: «صه! لا تتكلمي. إني سأمتّع نفسي يا آنسة لنتون بمجرّد التفكير بالتعاسة الذي يعانيها والدك ولن أنام الليلة من شدة سروري. أما بخصوص وعدك بالزواج من لنتون، فلن تغادري هذا المكان قبل أن يتم هذا الزواج».

قالت كاثرن وهي تنتحب: «أرسل ألن إذن لتبلّغ والدي أنني هنا في أمان! أو زوِّجني الآن من ابنك. مسكين والدي! إنه يعتقد بأنني وألن قد هلكنا، ماذا سنصنع؟»

أجاب هيثكلف: «كلا، إنه يعتقد أنكما مللتما من العناية به وفررتما لتمتِّعان نفسيكما قليلاً. إنكما لا تستطيعان أن تنكرا أنكما دخلتما بيتي بدون إكراه، وضد رغبته. كاثرن، لقد انتهت أيامه أما أيامك فإنها تبدأ الآن. لقد لعنك أبوك عندما أتيت إلى هذه الدنيا، فلا بأس إذن إذا لعنك وهو يغادرها. وإني أشاطره الرأي، إني لا أحبك! ولماذا أحبك؟ ابكي ما شئت، فسيكون البكاء عزاؤك الوحيد بعد الآن، إلا إذا استطاع لنتون أن يعوّض عليك ما ستفقدينه، ويبدو أن والدك يعتقد بصحة هذا الرأي. بمقدوركِ أن تسردي على مسمعه القصص الطريفة عن لطف لنتون عندما تعودين إلى البيت».

قلت: «لقد صدقت في شرح أخلاق ابنك. إن أخلاقه شبيهة

بأخلاقك. ولهذا آمل أن تفكر الآنسة كاثي مرتين وتمعن النظر قبل أن تربط نفسها بحيّة رقطاء..».

أجاب: «عليها أن تختار بين أمرين، إما أن تقبله أو تظل سجينة هنا وتظلين معها حتى يموت سيدك. فإذا كنت ترتابين في قولي فشجعيها على الحنث بوعدها وستتاح لك عندئذٍ فرصة الحكم على صحة أقوالي».

قالت كاثرن: «إنني لا أسحب كلامي ولا أحنث بوعد قطعته، سأتزوجه في هذه الساعة إذا سُمِح لي بعد ذلك بالذهاب إلى ثرشكروس غرانغ. إنك رجلٌ قاسٍ، فظ يا مستر هيثكلف، وإنك تهدم سعادتي لمجرد حبك للأذى. إذا اعتقد أبي أني تركته عن قصد، ومات قبل أن أعود إليه، فهل أستطيع أن أطيق الحياة بعد ذلك؟ لم أعد أبكي وأنتحب ولكني سأركع هنا بين يديك ولن أقف ولن أرفع عيني عن وجهك حتى تنظر إلي، إنني لا أكرهك كما إني غير غاضبة لأنك ضربتني. ألم تحب أحداً في حياتك يا عمي؟ انظر إليّ، إنني تعسة شقيّة. ارحمني أشفق عليّ».

ردّها هيثكلف عنه بوحشية وصاح قائلاً: «ابتعدي عني، وإلا فسأرفسك! أتريدين أيتها الشيطانة أن تحتالي عليّ، إنني أكرهك!».

نهضت وهممت أن أصبّ عليه سيلاً من الشتائم ولكنه أسكتني وهددني بسجني وحيدة إذا نطقت بكلمة أخرى. وابتدأ الظلام يخيم على الكون، وسمعنا أصواتاً تنبعث من مدخل الحديقة. أسرع مضيفنا حالاً إلى مصدر الصوت، لأنه كان متنبهاً حذراً. وجرى حديث بينه وبين القادمين لمدة دقيقتين أو ثلاثة ثم عاد وحيداً.

قلت لكاثرن: «أعتقد أن القادم هو هرتون، أتمنى أن يكون قد عاد إلى البيت».

سمعني هيثكلف فقال: «لقد قدم ثلاثة من الخدم ليرافقوكما إلى غرانغ. كان ينبغي عليك أن تفتحي النافذة وتنادي عليهم، إن الفتاة سعيدة لأنك لم تفعلي ذلك. إنها مبتهجة لأنها مرغمة على البقاء هنا».

ولما علمنا بالفرصة التي فقدناها، أخذ منا الحزن كل مأخذ. وظللنا نندب حظنا حتى الساعة التاسعة مساء. وأمرنا هيثكلف فيما بعد أن نصعد عن طريق المطبخ إلى غرفة (زيلا). فهمست في أذن رفيقتي أن تطيع، إذ لربما استطعنا الهرب من النافذة أو تسللنا إلى الغرفة العلوية ثم تدلينا منها إلى الأرض. غير أن نافذة الغرفة كانت ضيّقة كنوافذ الطابق السفلي. وكانت الغرفة العلوية مغلقة، وهكذا وجدنا أنفسنا في سجن مغلق كما كنا في الطابق السفلي. لم يلق أي منا بنفسه على السرير طوال الليل، ظلت كاثرن إلى جانب النافذة تراقب بقلق طلوع الفجر، وكنت كلما رجوتها أن تستريح أجابتني بآهة تنبعث من أعماق قلبها. وألقيت بنفسي على كرسي، وراحت تجول في خاطري شتى الأفكار وأصدرت حكماً قاسياً على إهمالي الكثير في واجباتي، وحتى بتّ أعتقد أنني شريكة هيثكلف في إجرامه.

وحضر هيثكلف في الساعة السابعة وسألني عما إذا كانت الآنسة لنتون قد استيقظت فما أن سمعت صوته حتى أسرعت نحو الباب فوراً وأجابت قائلة: «نعم».

فتح الباب وسحبها إلى الخارج. نهضتُ لألحق بها ولكنه أغلق الباب في وجهي وأعاد إقفاله. رجوته أن يطلق سراحي فأجاب:

«اصبري، سأرسل لك الفطور بعد برهة وجيزة».

قرعت بأصابعي على زجاج النافذة، وطرقت الباب بغضب،

وسألته كاثرن لماذا أقفل الباب في وجهي فأجاب بأنني يجب أن أسجن ساعة أخرى، وابتعَدَ وكاثرن عن الغرفة.

انتظرت ساعتين أو ثلاث ساعات، وأخيراً سمعت وقع أقدام ولكنها لم تكن وقع أقدام هيثكلف.

وسمعت صوتاً يقول لي: «لقد أحضرتُ لك شيئاً لتأكليه، افتحي الباب!».

استجبتُ لندائه بحماس، فإذ بي أرى هرتون أمامي وقد حمل في يديه طبقاً عليه صحاف من طعام يكفيني طوال النهار.

وأضاف يقول: «خذي، ودَفَعَ الطبق إلى يدي».

قلت: «انتظر لحظة واحدة».

أجاب: لا، وابتعد دون أن يعير توسلاتي أي اهتمام.

وهكذا بقيت مسجونة اليوم كله، وطوال الليلة التالية والليلة التي تلتها فيما بعد، وليلة أخرى وبقيت خمس ليال وأربعة أيام وحيدة لا أرى أحداً سوى هرتون مرة كل صباح، وكان خير مثال للسجّان، كان أصم أبكم، لم يعر أية محاولة لإثارة عطفه أو شعوره أي اهتمام!

28

وفي صباح اليوم الخامس سمعتُ وقع أقدام تختلف عن وقع الأقدام السابقة. كانت خفيفة وقصيرة، ودخل الغرفة في هذه المرّة شخصين غير هرتون ولم يكن هذا الشخص سوى زيلا.

وقد صاحت عندما رأتني: «أوه يا عزيزتي السيدة دين! إنك حديث الناس في غمرتون. لقد كنت أعتقد أنك قد متِّ غرقاً في إحدى المستنقعات وبرفقتك الآنسة الصغيرة. حتى أبلغني سيدي أنه قد عثر عليك وأنت في المستنقع، هل أنقذك سيدي؟ ولكنك لم تهزلي، أعتقد أنك قاسيت كثيراً أليس كذلك؟

أجبتُ: «إن سيدك وغد حقاً ولا مبدأ له! ولكنه سينال عقابه. كان لا ينبغي عليه أن يثير هذه القصة».

سألت زيلا: «ماذا تقصدين؟ لم يختلقها، إنهم يتحدثون في القرية عن فقدانك في المستنقع. لقد قابلت أرنشو عندما عدت من القرية وقلت له أن أشياء غريبة قد حدثت منذ مغادرتي البيت، أشياء محزنة قد حدثت للشابة ونيلي دين. حملق في وجهي واعتقدت أنه لم يسمع شيئاً فرويتُ له الشائعة. كان سيدي يستمع إلى حديثي يبتسم ثم قال لي: إنهما الآن هنا يا زيلا، ونيلي دين تقيم هذه

اللحظة في غرفتك. يمكنك أن تقولي لها أن ترحل عندما تصعدين إليها. ها هو المفتاح. لقد وصل الماء إلى رأسها وأرادت أن تذهب إلى البيت وهي بحالة ذهول ولكني حافظتُ عليها واهتممت بأمرها حتى عادت إلى صوابها. بمقدورك أن تقولي لها أن تعود إلى غرانغ إذا وجدت نفسها قادرة على ذلك وقولي لها إن سيدتها الشابة ستلحق بها في الوقت المناسب لحضور جنازة سيدها».

صحتُ باستغراب: هل مات مستر إدغار؟ أوه، زيلا، زيلا!

أجابت: «لا، لا، اجلسي يا سيدتي الطيبة. إنك ما زلت حقاً مريضة إنه لم يمت، الدكتور كينيث يعتقد بأنه سيعيش يوماً آخر، لقد قابلته في الطريق وسألته عنه».

اختطفتُ شالي، وأسرعت أهبط السلم إذ كان الطريق مفتوحاً أمامي. وعندما دخلت القاعة نظرت حولي باحثة عن شخص أسأله عن كاثرن. كانت أشعة الشمس تملأ المكان والباب مفتوح على مصراعيه. وبينما كنت أسأل نفسي عما إذا كان ينبغي عليّ أن أمضي وحدي حالاً أو أنتظر لأبحث عن سيدتي، لفت انتباهي صوت سعال بسيط ينبعث من جانب الموقد. كان لنتون يضطجع على الأريكة وحده يمصّ قطعة الحلوى ويلاحق حركاتي بعينين لا شعوريتين. سألته بلهجة يمتزج فيها الغضب بالقوة ظناً مني أنني أستطيع أن أخيفه لأحصل على معلومات منه: «أين الآنسة كاثرن؟» لم يجب وظلّ يمص الحلوى كرجل بريء كل البراءة.

سألته مرة أخرى: «هل ذهبت».

أجاب: «كلا، إنها في الطابق العلوي، إنها لن تذهب فنحن لن نسمح لها بذلك».

قلت: «لن تسمحوا لها أيها الأبله الصغير! أرشدني إلى غرفتها حالاً وإلا فأني سأرغمك على ذلك، وأجعلك تزعق من الألم».

أجاب: «إن أبي سيجعلك تزعقين إذا حاولتِ الدنو من غرفتها. لقد قال لي أنه يجب أن أكون صلباً قاسياً مع كاثرن، إنها زوجتي ومن العار أن تقول الآن إنها ترغب في التخلي عني! لقد قال لي إنها تكرهني وتودّ أن أموت حتى تستولي على أموالي ولكنها لن تستطيع ذلك، وإنها لن تعود إلى البيت. إنها لن تعود، فلتبكي وتنتحب ما شاءت».

وعاد إلى عمله يمصّ الحلوى، وأسبل جفنيه كأنه يقول لي إنني أريد أن أنام.

فقلت له: «يا سيد هيثكلف، هل نسيت عطف كاثرن عليك في الشتاء الماضي؟

لقد كانت تحضر لك الكتب، وتغني كل الأغنيات الجميلة، وكثيراً ما تأتي لزيارتك وسط العواصف والثلوج، وكانت تبكي إذا لم تستطع ليلة واحدة أن تزورك إرضاء لخاطرك، والآن تصدق أكاذيب والدك مع أنك تعلم أنه يكرهكما. وتقف إلى صفه ضدها. فهل هذا إلا نكران للجميل؟».

وأردفتُ قائلة: «هل حضرت كاثرن إلى مرتفعات وذرينغ لأنها تبغضك؟ فكر في الأمر ملياً! أما بخصوص أموالك، فإنها لا تعلم عنها شيئاً، ولقد قلت لي إنها مريضة ومع ذلك تتركها لوحدها! وأنت الذي ذقت مرارة الحرمان! إني أذرف الدموع على حالها وما أنا إلا امرأة عجوز وخادمتها، وأنت الذي يجب أن تعبدها لا تبالي ولا تكترث لها. آه! إنك أناني ولا قلب لك!».

أجاب بفظاظة: «لا أستطيع أن أبقى معها في غرفة واحدة، إنني

لن أبقى معها وحدي. إنها تبكي كثيراً، ولا أستطيع أن أتحمّل ذلك. إنها لا تتوقف لحظة واحدة عن النحيب حتى ولو هددتها بدعوة أبي. ولقد دعوته مرة فهدَّدها بالضرب إذا لم تهدأ، هدأت برهة إلا أنها استأنفت العويل في اللحظة التي ترك فيها الغرفة، وظلت تئنّ وتنتحب الليل بطوله فلم أستطع النوم».

ولمّا لاحظت أن المخلوق التعس ليس بمقدوره أن يعطف على ابنة خاله، سألته عمّا إذا كان مستر هيثكلف خارج البيت.

أجاب: «إنه في ساحة الدار يتحدث إلى الطبيب كينيث الذي قال إن خالي يحتضر حقاً. إنني سعيد لأني سأصبح سيد (غرانغ) بعده. كثيراً ما كانت كاثرن تقول إنّه بيتها، ولكن لن يصبح بيتها، سيصبح ملكي. لقد قال لي والدي إن كل شيء تملكه أصبح ملكاً لي، فجميع كتبها الجميلة أصبحت كتبي - ولقد عرضتها عليّ كما عرضت علي طيورها الجميلة ومهرها البديع إذا أعطيتها مفتاح غرفتنا ومهَّدتُ السبيل لها لتفرّ من البيت. ثم بكت وأخرجت صورة صغيرة من علبة ذهبية معلقة بجيدها وقالت إنها ستعطيني إياها. كانت العلبة تحتوي على صورتين إحداها صورة لأمها والأخرى لخالي عندما كانا في عنفوان الشباب. ولقد قلت لها إن الصورتين لي أيضاً وحاولت أن آخذهما منها إلا أنها أبت، ودفعتني فآذتني. صحت من الألم فأفزعها ذلك، ولمّا سمعت والدي يقترب فصلت الصورتين وأعطتني صورة والدتها أما الأخرى فحاولت أن تخفيها، وسألني والدي عمّا كان يجري بيننا فأوضحتُ له الموقف. فأخذ الصورة التي معي وطلب إليها أن تسلّم الصورة التي معها إليّ، ولما أبت صفعها على وجهها وانتزعها من السلسلة، وداسها تحت قدمه».

سألته عندئذٍ: وهل شعرت بالغبطة عندما رأيته يضربها؟

أجاب: «لقد أغمضت عيني. إني أغمض عيني كلما رأيت والدي يضرب كلباً أو حصاناً لأن ضربه مؤلم. ومع ذلك فقد اغتبطتُ بادئ الأمر لأنها كانت تستحق العقاب. ولكن بعد أن ذهب والدي دعتني إلى أن أقترب من النافذة وأرتني وجنتها وقد شقت من الداخل وامتلأ فمها بالدم. ثم جمعت قطع الصورة الممزقة ولم تتحدث إليّ بعد ذلك. إني أعتقد أنها لم تستطع أن تتكلم من الألم، كانت تبدو دائماً شاحبة اللون وحشية النظرات حتى إني أشعر بخوف منها».

سألته: «هل تستطيع أن تحصل على المفتاح إذا شئت؟».

أجاب: «نعم، عندما أصعد إلى الطابق العلوي ولكني لا أستطيع ذلك الآن».

قلت: «في أي غرفة تقيم الآنسة كاثرن؟».

صاح قائلاً: «آه، لن أقول لك أين هي الآن! إنه سر بيننا، لا أحد يعلم ذلك حتى ولا هرتون ولا زيلا. أوه، لقد أتعبتني، اغربي عن وجهي، اغربي!».

وغطى وجهه بذراعه وأغلق عينيه ثانية.

ورأيت أنه من الأفضل أن أغادر مرتفعات وذرينغ قبل أن أرى مستر هيثكلف وأُحضِرَ نجدة من غرانغ لإنقاذ سيدتي الشابة. ولما وصلت كان استغراب زملائي الخدم شديداً وفرحهم كبيراً جداً، ولما عرفوا أنّ سيدتهم الصغيرة في أمان هرع اثنين أو ثلاثة منهم لإبلاغ النبأ إلى مستر إدغار، ولكني أسرعت لأبلغه النبأ بنفسي. وجدته قد تغير إلى حدٍّ كبير خلال الأيام الأخيرة القليلة. كان يضطجع في سريره حزيناً ينتظر الموت. وبدا في مقتبل الشباب مع أن عمره

الحقيقي كان تسعة وثلاثين عاماً وكان يردد اسم كاثرن. لمست يده وقلت: «إن كاثرن قادمة يا سيدي العزيز. إنها على قيد الحياة وفي صحة حسنة وآمل أن تعود هذه الليلة».

رفع رأسه قليلاً وأجال بصره في أنحاء الغرفة ثم عاد فألقى برأسه على الوسادة وأغمض عينيه وراح في غيبوبة، ولما استيقظ رويتُ له قصة زيارتنا التي أرغمنا على القيام بها واعتقالنا في مرتفعات وذرينغ. وقلت له إن هيثكلف أرغمني على دخول البيت، ولم أذكر شيئاً عن لنتون سوى القليل، كما إني لم أروِ له سلوك والده الوحشي، لأني لم أكن أبتغي أن أزيد من تعاسته.

ولقد اتضح لسيدي أن من بين أهداف عدوه الاستيلاء على أملاكه وأراضيه من طريق ابنه فقرَّر أن يعدّل وصيته، فبدلاً من أن يترك أمواله وأملاكه وأراضيه إلى كاثرن تتصرف بها كيفما تشاء، اعتزم أن يضع جميعها في يد أوصياء طوال حياة ابنته وحياة أولادها من بعدها وبذلك لن يتمكّن مستر هيثكلف من الاستيلاء على الأملاك والأموال إذا توفي لنتون.

وطلب مني أن أهيئ كل شيء لتعديل وصيته، فأرسلتُ خادماً في الحال ليدعو كاتب العقود وأرسلتُ أربعة آخرين مزودين بالأسلحة إلى مرتفعات وذرينغ ليفكوا أسر سيدتي الشابة ويحضروها في الحال. وقد تأخر الوفدان إلى ساعة متأخرة جداً عاد الخادم الذي أرسلته لإحضار كاتب العقود أولاً، وقال إن مستر غرين المحامي لم يكن في بيته عندما ذهب إليه ليدعوه إلى غرانغ وظلّ ينتظر عودته إلى البيت أكثر من ساعتين، ولما عاد قال إن لديه بعض الأشغال في القرية ينبغي عليه إنجازها بسرعة وإنه سيصل إلى ثرشكروس غرانغ قبل صباح اليوم التالي.

وعاد الرجال الأربعة أيضاً صفر اليدين، وقالوا إن كاثرن مريضة إلى درجة لا تستطيع معها أن تغادر غرفتها ولم يسمح لهم هيثكلف بمشاهدتها. وبّختهم على غباوتهم وتصديقهم القصة التي لفقها هيثكلف، ولم أبلغ سيدي هذا النبأ، وقررت أن آخذ معي جميع الخدم في الصباح لنقتحم مرتفعات وذرينغ، إذا لم يطلق سراح السجينة. لقد أقسمت أن يراها والدها كما أقسمت أنه إذا حاول ذلك الشيطان أن يمنعها من الحضور فإننا سنقتله على عتبة منزله.

ومن حسن الحظ، أنني أعفيت من مشقّة الرحلة واقتحام البيت. هبطت إلى الطابق السفلي الساعة الثالثة صباحاً لأحضر إبريقاً من الماء وبينما كنت أحمل الإبريق في يدي وأنا أقطع القاعة، وإذا بي أسمع نقراً حاداً على الباب الداخلي. فقلت لا بدّ أنه مستر غرين، وواصلت سيري لأبعث بشخص آخر يفتح له الباب ولكن النقر تكرر، فوضعت الإبريق على الدرابزين وأسرعت لأُدْخِل الطارق. لم يكن كاتب العقود الطارق، بل كانت سيدتي الجميلة التي ألقت نفسها بين ذراعي وأخذت تبكي وتقول:

«ألن! ألن! هل أبي ما زال حياً؟».

أجبتُ والدموع تنهمر من عيني: «نعم، نعم يا ملاكي إنه ما زال حياً. شكراً لله على نجاتك وعلى عودتك إلينا!».

همّت أن تسرع إلى غرفة مستر لنتون في الطابق العلوي ولكني أشرت إليها أن تجلس على كرسي لتستريح قليلاً وتغسل وجهها الشاحب اللون وتشرب قليلاً من الماء. ثم قلت لها إنني سأدخل غرفة أبيها أولاً وأبلغه نبأ وصولها. ورَجَوْتُها أن تعبّر له عن سعادتها الزوجية مع ابن عمتها. حملقت في وجهي ولكنها أدركت حالاً

لماذا أشرتُ عليها ألا تقول الصدق، فأكَّدت لي أنها لن تبدي تذمرها أبداً.

لم أشأ أن أحضر اجتماعهما فوقفت أنتظر خارج الغرفة حوالي ربع ساعة، ولم أتجرأ أن أقترب من السرير بعد ذلك.

لقد فرح أبوها بعودتها وظلّ بصره عالقاً بها مدة غير قصيرة ثم قبّل وجنتها وتمتم قائلاً: «إنني ذاهب إليها، وأنتِ يا فتاتي الحبيبة ستأتي إلينا، ثم أسبل جفنيه وفارق الحياة».

ظلّت كاثرن بالقرب من السرير حتى أشرقت الشمس. واقترب وقت الظهيرة وما رغبت في أن تبرح مكانها غير أني ألححتُ عليها أن تخرج من الغرفة لتأخذ قسطاً من الراحة. وقد استطعتُ أخيراً إقناعها، ولم يمضِ وقتٌ حتى حضر المحامي بعد أن مرّ بمرتفعات وذرينغ وتلقّى التعليمات الخاصة بمعاملتنا. لقد باع نفسه إلى مستر هيثكلف، وهذا ما حمله على أن يتأخر في تلبية دعوة سيدي في اليوم الماضي.

وقد أخذ مستر غرين على عاتقه تدبير جميع أمور البيت والخدم فأبلغهم جميعاً بأنه تقرر الاستغناء عنهم، وراح يحاول أن يستخدم نفوذه إلى أبعد من هذا فأصرّ على عدم دفن إدغار لنتون إلى جانب زوجته وضرورة دفنه في الكنيسة مع أفراد عائلته ولكن الوصية واحتجاجاتي الشديدة منعته من ذلك. وتمَّ تشييع الجثمان إلى مقره الأخير.

ولقد روت لي كاثرن بعد انتهاء مراسم الدفن كيف استطاعت أن تفرّ من سجنها من مرتفعات وذرينغ، وما الذي حدا بلنتون إلى المخاطرة لتحريرها. كانت قد سمعت صوت الرجال الذين أرسلتهم لإحضارها وهم يتجادلون مع هيثكلف وأدركتُ جوابه لهم. وكان

لنتون في الوقت ذاته قد صعد إلى غرفتها بعد أن فَرَرْتُ من المرتفعات، وَدَفَعَتْه غيرته إلى إيجاد حيلة ينقذها بها من السجن، ففتح القفل ثم أعاد إقفاله دون أن يغلق الباب، ولما حان موعد نومه أعرب عن رجائه في أن ينام مع هرتون فسمح له حالاً. ولما كان باب غرفتها مفتوحاً فقد أسرعت كاثرن إلى التسلل من البيت قبل أن يطلع الفجر، وقد استخدمت شجرة الشوح القريبة من نافذة غرفة والدتها طريقاً لفرارها.

29

جلستُ وسيدتي الشابة في غرفة المكتبة في المساء بعد انتهاء مراسم تشييع الجثمان، وأخذنا نواسي بعضنا في الخسارة الكبيرة التي منينا بها بفقد الراحل العزيز ونجيل الفكر في مستقبلنا المظلم.

وقد اتفق رأينا على أنّ خير مصير يمكن أن تنتظره كاثرن هو السماح لها بأن تظلّ في غرانغ على الأقل طالما ظلّ لنتون على قيد الحياة. وأن يسمح له بالعيش إلى جانبها كما يسمح لي أيضاً بأن أظلّ مدبّرة لشؤون البيت. وقد بدا أن ذلك خير ما يمكن أن نأمل به. وبينما نحن نتبادل الحديث في هذا الموضوع وإذا بأحد الخدم الذين لم يرحلوا بعد يدخل مسرعاً الغرفة ويعلن أن الشيطان هيثكلف يجتاز ساحة الدار. وسألني الخادم فيما إذا عليه أن يغلق الباب في وجهه.

لم يكن هناك متسع من الوقت للإجابة عن هذا السؤال. فقد أرشده صوت الخادم إلى غرفة المكتبة فدخل وأغلق الباب خلفه بعد أن طرد الخادم. ولم يكن بحاجة إلى أن يعلن اسمه ويستأذن بالدخول بعد أن أصبح سيد البيت.

لقد كانت هذه هي الغرفة نفسها التي دخل إليها قبل ثمانية عشر عاماً كضيف. تقدم نحو الموقد، فبدا الرجل نفسه الذي دخل الغرفة

قبلاً بوجهه الأسمر القاتم وهيكله الصلب إذ لم يغير الزمن من سحنته إلا قليلاً. نهضت كاثرن عندما رأته تبغي الفرار من الغرفة. ولكنه أمسك بها من ذراعها وقال:

«قفي، لن تهربي بعد الآن! إلى أين تبتغين الذهاب؟ لقد حضرتُ لآخذك معي إلى البيت، وآمل أن تكوني ابنة طيّعة تعرف الواجب، ولا تشجِّعي ابني بعد الآن على عدم الطاعة. لقد احترتُ في معاقبته عندما علمت اشتراكه معك في الجريمة، إنه ضعيف إلى درجة لا يتحمّل أية ضربة، وإن أي شيء قد يقضي عليه. ولكن سترين أنه قد لاقى نصيبه! لقد دعوته مساء أول أمس وأجلسته معي في غرفة واحدة مدة ساعتين دون أن أحدثه. ثم دعوت يوسف ليحمله إلى الطابق العلوي ومنذ ذلك الحين تحطّمت أعصابه. واعتقد أنه أخذ يراني كالشبح ويتخيّل وجودي معه في الوقت الذي لست فيه إلى جانبه. ويقول هرتون إنه كثيراً ما يستيقظ ويصيح في الليل ويدعوك لحمايته مني، وسواء أكنتِ تحبين رفيقك الغالي أو لا عليك أن تأتي إلى مرتفعات وذرينغ. أنتِ المسؤولة عنه الآن، ولقد سلَّمتُ أمره لكِ».

سألتُه راجية: «لماذا لا تدع كاثرن هنا؟ وتُرسل السيد لنتون ليعيش إلى جانبها فسيكون عندئذٍ بمنأى عنك وتستريح من العناء الذي يسببه لك وجودهما».

أجاب: «إنني أبحث عن مستأجر (لغرانغ)، وأودّ أن يكون أولادي حولي حتى أطمئن عليهم، بالإضافة إلى أن على هذه الفتاة الآن أن تقوم ببعض الخدمات المنزلية. لا أريد أن ترفل بأثواب الكسل بعد موت لنتون، أسرعي أيتها الفتاة واستعدي الآن، ولا ترغميني على استعمال القوة».

قالت كاثرن: «سأفعل ما تشير إليّ به. إن لنتون كل ما تبقّى لي في هذه الدينا، ومع أنك قد صنعت كل ما في إمكانك لتجعله يكرهني وتجعلني أكرهه فإني سأظلّ وفيّة له مخلصة! أتحدّاك أن تؤذيه، وأتحداك إذا حاولت أن تفزعه وترسل الرعب إلى قلبه!».

أجاب هيثكلف: «إنك بطلة. لست أنا الذي سيجعلك تكرهينه، بل روحه الحلوة!».

قالت كاثرن: «أعلم أنه سيّئ الطبع، وهو ليس إلا ابنك. ولكني سعيدة لأن لي خلقاً أطيب من خلقه، وإني أعلم أيضاً أنه يحبني ولهذا السبب تراني أحبه.

أما أنت يا مستر هيثكلف، فلا يحبك أي مخلوق في الوجود، ومهما حاولت أن تُلحقَ بنا من التعاسة والشقاء، فإننا سنثأر لنفسنا منك. إن قساوتك ناجمة عن تعاستك. إنك تعس شقي أليس كذلك؟ إنك وحيد كالشيطان وحسود مثله أليس هذا صحيحاً؟ إنه ما من إنسان يحبك، ولن يَبْكيك أي مخلوق إذا متّ! إني لا أحب أن أكون مثلك!».

كانت كاثرن تتكلم بزهو وانتصار، ويظهر أنها قد قررت أن تستمدّ المنعة والسرور من تعاسة عدوها.

قال هيثكلف: «سوف تندمين إذا وقفت هنا دقيقة أخرى. هيا استعدي للذهاب!».

انسحبت من الغرفة. وفي أثناء غيابها رجوته أن أحلّ محلّ زيلا في (مرتفعات وذرينغ) وأن تحلّ هي محلي. فلم يوافق، وطلب مني أن ألزم الصمت، ولأول مرّة أجال بصره في أنحاء الغرفة ونظر إلى الصور المعلّقة على الحائط. وبعد أن أمعن النظر في صورة السيدة لنتون قال:

«سآخذ معي هذه الصورة. لا لأني بحاجة إليها ولكن ـ» وأدار نحو الموقد واستأنف يقول وقد ارتسمت على محياه شبه ابتسامة: «سأحدثك عمّا فعلته بالأمس! لقد طلبت من حفّار القبور الذي كان يحفر قبر لنتون أن يزيح التراب عن غطاء تابوتها وفتحته. وتطلّعت إلى وجهها، ما زال كما هو لم يتغير! وظللتُ أحدِّق النظر به وقد وجد الحفار صعوبة كبيرة في إبعادي عن المكان وقال لي أنه يجب عليه أن يعيد الغطاء خوفاً من أن تتغير ملامح الوجه إذا هبّت عليه الريح. ولقد رشوته بالمال ليسحب لنتون من جانبها عندما أموت ويدفنني مكانه».

صحتُ عجباً: «إنك لرجل آثم شرير يا مستر هيثكلف، ألم تخجل من إزعاج الموتى في قبورهم؟».

أجاب: «إنني لم أزعج أحداً يا نيلي، وأشعر الآن بأنني مرتاح الضمير والبال أكثر من ذي قبل. من قال إنني أزعجها؟ كلا! هي التي أزعجتني ليل نهار خلال السنوات الثماني عشرة الأخيرة بلا انقطاع حتى كانت ليلة البارحة، لم أشعر بالراحة والهدوء إلا ليلة أمس. لقد رأيت في منامي أنني اضطجعت الرقدة الأخيرة بالقرب منها وقلبي قد توقّف عن الحركة ووجنتي تجمّدتا والتصقتا بوجنتها».

قلت: «ولو كانت قد تحوّلت إلى تراب فما عسى أن يكون حلمك إذن؟».

أجاب: «أي شيء تتحول إليه، فأن أتحلل وأتحول إليه معها، وأنا أشعر بالسعادة. هل تظنين إنني أخاف أي تحوّل وتبديل من هذا النوع؟ إنك لا تعلمين كم شعرت بوحشة واغتراب بعد موتها، لقد أصبحت أتضرّع إليها صباح مساء كل يوم، أن تعود روحها إليّ.

إنني أؤمن بالأرواح إيماناً قوياً. وأعتقد أن الأرواح تعيش بيننا! ففي اليوم الذي دفنت فيه تساقطت الثلوج كما تعلمين. وذهبت في المساء إلى ساحة الكنيسة لأني كنت أعلم أنه ما من أحد يجرؤ أن يذهب إلى هناك في مثل هذه الساعة ولا حتى زوجها الأحمق. ولما كنت وحيداً ولم يكن بيني وبينها سوى حاجز من التراب لا يزيد عمقه عن بضعة أقدام قلت لنفسي: «لماذا لا أضمّها بين ذراعي مرّة أخرى!» وأخذت مجرفة من الغرفة التي يضع فيها حفّار القبور أدواته وابتدأت أجرف التراب بكلّ قواي، حتى ظهر التابوت. عندئذٍ شرعتُ أجرف التراب بيدي وكدتُ أصل إلى هدفي، وإذ يخيل إليّ أنني أسمع آهة تخرج من شخص يقف على حافة القبر وينحني فوقي. وأمسكت بالتابوت بقوة، فسمعت عندئذٍ آهة أخرى ترن في أذني. كنت أعلم أنه لا يقف إلى جانبي أي آدمي ولكن تبين لي في الظلام شبح كاثي يقف فوق التراب. فغمر جسمي كله شعور فجائي بالراحة. وزال عني الغم والحزن ووجدتُ العزاء الصحيح. ولقد ظللتُ أشعر بوجودها معي حتى أعدتُ التراب فوق القبر وعدت أدراجي إلى البيت. يمكنكِ أن تضحكي وتهزئي بي إذا أردت ولكني متأكد بأنني رأيتها هناك. وأنها كانت تقف إلى جانبي ولما وصلت إلى مرتفعات وذرينغ اندفعت نحو الباب بحماس شديد. كان مغلقاً، نظرت حولي بقلق وشعرت بوجودها معي، ولاح لي شخصها بجانبي، ولكن بغير وضوح، فكاد الدم أن يتصبب من جسمي شوقاً لرؤيتها ولو نظرة واحدة. ولم يقدَّر ذلك لي. ومنذ ذلك الحين وأنا أتلظّى بهذا العذاب الذي لا يُحتمل ولا يطاق! إنه الجحيم بذاته، إن أعصابي قد أصبحت على شفا هوّة، ولو أنها ليست أعصاباً فولاذية لأصبحتُ هزيلاً ضعيفاً كابني لنتون. عندما أجلس في البيت مع هرتون يبدو لي

أنني إذا خرجتُ منه أستطيع أن أقابلها. وعندما أسير في الحقول يبدو لي أنني سأقابلها عندما أعود إلى البيت. وإذا ما خرجت من البيت أسرعت في العودة إليه. لا ريب أنها موجودة في مكان ما في مرتفعات وذرينغ إنني واثق من ذلك! عندما أنام في غرفتها لا يغمض لي جفن، إذ منذ اللحظة التي أسبل فيها جفني، يتخيّل إليّ أنها إما تقف خارج النافذة، أو أنها تدخل الغرفة، أو واضعة رأسها الحبيب على وسادتي كما كانت تفعل عندما كانت طفلة، فأجد نفسي عندئذٍ مرغماً على أن أفتح جفني لأراها. وهكذا أغلقهما وأفتحهما أكثر من مائة مرّة في الليلة الواحدة، ولكن دون أن أراها مرّة واحدة. ما أكثر ما تألمت من هذا الإخفاق! وما أكثر ما صحت من الألم وبعثت من روحي أنَّة عالية بات يوسف العجوز اللعين يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الشيطان يلعب في عقلي. والآن وبعد أن رأيتها فقد هدأت روحي وارتاح قلبي قليلاً. لقد قتلتني بطريقة غريبة استغرقت ثمانية عشرة عاماً».

وهنا توقّف مستر هيثكلف عن الكلام قليلاً ومسح جبهته المبلّلة بالعرق، كانت عيناه عالقتين بالجمرات الحمر الملتهبة في الموقد، وحاجباه مقطّبين. ودلّت ملامحه على نظرة مشوبة بالقلق والحيرة. وظلّ صامتاً كما أنني حافظت على صمتي إذ لم أكن أحب سماع حديثه! وبعد فترة قصيرة استأنف تأملاته للصورة المعلّقة على الجدار ثم أنزلها ووضعها على الأريكة ليتأملها جيداً. وبينما هو كذلك وإذ بكاثرن تدخل الغرفة وتعلن استعدادها للرحيل بعد أن يتم إعداد مهرها.

خاطبني هيثكلف قائلاً: «أرسلي المهر إلى المرتفعات غداً». ثم أدار وجهه إليها وأضاف يقول: «يمكنك أن تذهبي بدون المهر. إن

الطقس في هذه الأمسية بديع، ولن تحتاجي إلى المهر في مرتفعات وذرينغ، إن قدميك - ستوصلانك إلى أي مكان تبتغينه، هيا بنا!».

قبّلتني سيدتي الصغيرة العزيزة فشعرتُ أن شفتيها باردتان كالثلج وهمست في أذني قائلة: «وداعاً يا ألن، لا تنسي أن تزوريني».

قال والدها الجديد: «إياك أن تزوري المرتفعات! إذا ما أردت أن أتحدث إليك حضرت إلى هنا».

وأشار إليها أن تسير أمامه. أطاعت وألقت نظرة إلى الوراء تصدّع لها قلبي. راقبتهما من النافذة وهما يقطعان الحديقة. كان هيثكلف قد وضع ذراع كاثرن تحت إبطه وبخطوات سريعة أسرع بها إلى الطريق التي أظلّتهما أشجارها.

30

زرت (مرتفعات وذرينغ) فيما بعد ولكنني لم أتمكّن من مقابلتها. لقد أمسك يوسف بأكرة الباب عندما ذهبت إلى المرتفعات للاستفسار عنها ومشاهدتها، وقال لي إن السيدة لنتون لا تودّ مقابلة أحد وسيد البيت غير موجود. وقد حدّثتني زيلا فيما بعد عمّا يدور هناك، وإلا لكان من الصعب عليّ أن أعلم من أفراد العائلة مَنْ ظلّ على قيد الحياة ومَنْ منهم قد مات. وقد لاحظت من حديثها أنها تعتقد أن كاثرن متعجرفة ولا تضمر لها حباً. وعلمت أن كاثرن كانت قد طلبت منها يد المساعدة بعد وصولها بقليل ولكن مستر هيثكلف أبلغها أن تهتم بشؤونها وتترك ابنته ترعى أمورها بنفسها. وقد وافقت زيلا على ذلك دون معارضة لكونها امرأة أنانية، محدودة التفكير. وقابلت كاثرن هذا الإهمال بكراهية وحقد وأضافت زيلا إلى القائمة التي تضم أعداءها. ولقد جرى بيني وبين زيلا حديث طويل قبل وصولك بمدة قصيرة أي قبل حوالي ستة أسابيع، وذلك في مجلس ضمَّنا بين الحقول. وقد سرَدَتْ على مسمعي ما يأتي:

قالت: «أول شيء صنعته السيدة لنتون إثر وصولها إلى مرتفعات وذرينغ، أن هرعت إلى الطابق العلوي دون أن تحييني أو تحيي

يوسف تحية المساء. ودلفت إلى غرفة لنتون وأغلقت الباب خلفها وظلّت قابعة في عقرها حتى الصباح. وبينما كان رب البيت وأرنشو يتناولان طعام الإفطار هبطت السلم مسرعة، ودخلت القاعة وهي ترتجف وطلبت استدعاء الطبيب لأن المرض قد اشتدّ على زوجها».

أجاب هيثكلف: «إننا نعرف ذلك، ولكن حياته لا تساوي شروى نقير، ولا أريد أن أنفق عليه فلساً واحداً».

قالت: «ولكني لا أعرف ماذا أصنع، وإذا لم يتقدّم أحد لمساعدته فإنه سيموت لا محالة».

صاح رب البيت: «اخرجي من الغرفة! ولا تتفوهي بأية كلمة بشأنه بعد الآن! ما من أحد هنا يبالي بمصير هذا الفتى، فإذا كنت تبالين به، فواسيه واعتني به، وإذا كنت غير مبالية بأمره أغلقي الباب عليه واتركيه وحده».

ثم أخذت تطلب مني التدخل في الأمر فقلت لها أن لدي الكثير من الواجبات، وكلّ منا مسؤول عن واجب مفروض عليه، وواجبها أن تهتم بشؤون لنتون.

ولا أدري كيف استطاعت أن تعالج أمورها وأعتقد أنها كثيراً ما احتدَّت وغضبت وانتحبت ليل نهار ولم تعرف طعم الراحة، وقد بدا ذلك واضحاً في شحوب وجهها وثقل جفونها. كانت تأتي إليّ أحياناً وأنا في المطبخ، تدل نظرتها على أنها تطلب العون والمساعدة ولكني لم أكن أرغب في عصيان أوامر سيدي. كنت أعتقد أنه من الخطأ ألا يستدعي الدكتور كينيث، ومع ذلك فلم أشأ أن أتدخل فيما ليس يعنيني. كنت أفتح باب غرفتي مرة أو مرتين في بعض الليالي بعد أن نأوي جميعاً إلى فراشنا فأجد كاثرن تجلس على درجات السلم تنتحب فأبادر فوراً إلى إغلاق باب غرفتي خشية أن

تتغلب عليّ عاطفتي فأتدخّل في الأمر. كنت أشفق عليها فعلاً إلا أنني لم أكن أودّ أن أفقد عملي.

وأخيراً تجرأت ذات ليلة وطرقت باب غرفتي وقالت: «أخبري مستر هيثكلف أن ابنه يحتضر، إني متأكدة أنه سيموت هذه المرة. انهضي حالاً وأخبريه!».

وما أن أنهت كلامها حتى غابت من جديد فبقيتُ في فراشي حوالي ربع ساعة وأنا أرهف السمع وأرتجف. ولكني لم أسمع شيئاً - كان كل شيء في البيت هادئاً ساكناً.

وحدّثت نفسي قائلة: «إنها مخطئة. لقد تغلّب لنتون على نوبته فلا حاجة إلى إزعاجهم»، وما أن أسلمت نفسي للنوم ثانية حتى عكّر صفو الليل صوت رنين الجرس الذي وضع خصيصاً للنتون. دعاني سيد البيت وأمرني أن أستوضح عن الأمر كما أبلغني أنه لا يودّ أن يتكرر رنين الجرس.

أبلغته رسالة كاثرن، فأخذ يصبّ اللعنات على نفسه، وبعد دقائق قليلة خرج من غرفته يحمل شمعة واتجه نحو غرفة لنتون، تبعته فرأيت السيدة هيثكلف تجلس إلى جانب السرير وقد عقدت يديها على ركبتيها. تقدّم عمها وألقى بضوء الشمعة على وجه لنتون ونظر إليه ثم لمسه بيده وبعد ذلك أدار وجهه إليها وقال: «والآن كيف تشعرين يا كاثرن؟» لم تنبس ببنت شفة.

فكرر عليها السؤال: «كيف تشعرين يا كاثرن؟».

أجابت: إنه الآن في أمان، وأنا حرّة طليقة.

وأضافت تقول بمرارة وأسى لم تستطع أخفاؤهما: «لقد تركتني لمدة طويلة أناضل وحدي ضد الموت فلم أعد أشعر وأرى سوى الموت! فما أشدّ شوقي إلى الموت!».

وقدَّمتُ لها فيما بعد قليلاً من النبيذ. ودخل الغرفة كل من هرتون ويوسف اللذين كانا قد أيقظهما صوت الجرس ووقع الأقدام. كان هرتون يبدو أكثر قلقاً من رفيقه وقد أمره مستر هيثكلف بالعودة إلى سريره.

وقال له: لسنا بحاجة إلى مساعدتك. ثم أمر يوسف بعد ذلك بنقل الجثة إلى غرفته وأمرني بالعودة إلى غرفتي وظلّت السيدة هيثكلف بمفردها.

وفي الصباح أرسلني لأبلغها بأنها يجب أن تغادر غرفتها، رفضت وقالت إنها مريضة، فأبلغت ذلك مستر هيثكلف فأجاب يقول:

«حسناً، دعيها لوحدها حتى يتمّ تشييع الجنازة. واصعدي إليها بين آونة وأخرى لتقدّمي إليها ما تحتاجه من مساعدة، وعندما تتحسّن حالتها أبلغيني ذلك».

ظلّت كاثرن قابعة في عقر غرفتها أسبوعين حسب ما روت زيلا التي كانت تزورها مرتين في اليوم الواحد، والتي كانت تحاول أن تتقرّب إليها، غير أن محاولاتها باءت بالخيبة.

وقد توجه هيثكلف إلى غرفة كاثرن بعد ذلك ليُطلعها على وصية لنتون. كان الابن قد أوصى جميع ما يملكه وما كانت تملكه كاثرن من ممتلكات منقولة وغير منقولة إلى والده. وكان ذلك المخلوق المسكين قد وقّع هذه الوصية خوفاً من أبيه خلال المدّة التي غابت فيها كاثرن في مرتفعات وذرينغ عندما توفي والدها. لم يتمكّن مستر هيثكلف أن يستولي شرعاً على الأراضي إلا أنه طالب ببعضها كحق زوجته المتوفاة وحق ابنه.

وقالت زيلا: لم يقترب أحد من باب غرفة كاثرن سواي، ولم يستفسر أحد عنها أبداً طوال الأسبوعين. وقد كان أول مرة تغادر فيها الغرفة وتهبط إلى قاعة البيت بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن علمت أن مستر هيثكلف قد ذهب إلى (ثرشكروس غرانغ). ظهرت أمامنا وهي ترتدي ثوباً أسود وعقصت شعرها ببساطة إلى الوراء خلف أذنيها.

لم يكن في القاعة سواي وهرتون. ودخلت ببرود كالثلج وكبرياء كالأميرة. نهضتُ عن مقعدي وقدَّمته لها. رفضته بكبرياء ونهض أرنشو بعد ذلك ودعاها لتجلس على الأريكة بجانب الموقد وقال لها: «إنه واثق أنها جائعة».

أجابته وهي تنظر إليه باحتقار: «لقد مضى عليّ شهر وأكثر من شهر وأنا جائعة».

واتخذت لها مجلساً بعيداً عنا. ولما شعرت بالدفء أخذت تنظر حولها فوجدت عدداً من الكتب في الخزانة. نهضت حالاً ومدّت قامتها لتصل إليها، ولكن الكتب كانت في موضع عالٍ. ولما لاحظ ابن خالها إخفاق محاولاتها، تشجع وتقدّم لمساعدتها. تناول الكتاب الأول وقدّمه لها. لم تشكره على ذلك، ومع هذا فقد شعر بارتياح لأنها قبلت مساعدته، وتجرأ على الوقوف خلفها بينما أخذت تتفحّص الكتاب، وبلغت به الجرأة حدّاً أشار فيه إلى بعض الصور القديمة الموجودة في الكتاب، فردعته. فاكتفى عندئذٍ بالنظر إليها بدلاً من الصور. وواصلت قراءتها أو البحث عن شيء تقرأه. بينما ركّز هرتون اهتمامه في دراسة تجعدات شعرها الحريري. لم تكن تعلم ماذا يفعل لأنه كان يجلس خلفها. وأخيراً انتقل من دور النظر إلى اللمس، فوضع يده برقّة ولطف على خصلة من شعرها، فكانت

كمن وضع سيفاً على جيدها، انتفضت من الغضب وأدارت وجهها إليه وصاحت بغضب واضطراب:

«ابتعد عني! كيف تجرؤ على لمسي؟ لماذا تقف على مقربة مني؟ لا أستطيع أن أتحمّلك! سأعود إلى غرفتي إذا تقدَّمت نحوي».

تراجع هرتون من الخوف، وبدا كأبله مجنون وجلس على الأريكة بهدوء جداً بينما استأنف تقلّب صفحات كتابها نصف ساعة أخرى. وأخيراً تقدّم أرنشو مني وهمس في أذني قائلاً:

«هلا رجوتِها يا زيلا أن تقرأ لنا شيئاً؟ إني أود أن أسمعها وهي تقرأ».

فقلت لها فوراً:

«مستر هرتون يرغب في أن تقرئي لنا شيئاً يا آنسة. سيكون ممتناً إذا تكرّمت بذلك».

قطبت جبينها وأجابت:

«إني أكرهكما وليس لدي شيء أقوله لكما. لقد قادني البرد إليكما لا لأجلب المتعة إلى نفسيكما أو أجد السلوى في التحدث إليكما».

رد أرنشو قائلاً: ماذا صنعتُ حتى توجّهي إليّ هذا الكلام؟

قالت: «صه! أفضّل أن أخرج من البيت على أن يتردَّد في أذني صوتك القبيح».

تمتم هرتون قائلاً إنه يمكنها أن تذهب إلى الجحيم. وأخذ يتحدث إليّ غير عابئ بها. فرأت عندئذٍ من الأفضل أن تتقهقر إلى غرفتها، لكن البرد القارس أرغمها على أن تبقى بيننا. ومنذ ذلك الحين وأنا أبادلها القساوة بقساوة مثلها، ولم تجد لها محباً بين ظهرانينا.

وما أن سمعت هذا الحديث من زيلا حتى قررت بادئ الأمر أن أترك عملي هنا وأقيم في كوخ صغير أدعو إليه كاثرن لنعيش فيه معاً.

وهكذا انتهت قصة السيدة دين. وقررتُ أن أمتطي جوادي غداً أو بعد غد، وذلك بعد أن عوفيت من الوعكة التي ألـمّت بي، متوجهاً إلى مرتفعات وذرينغ لأبلغ صاحب البيت الذي أسكنه بأنني سأقضي الأشهر الستة القادمة في لندن، وأنه بإمكانه أن يبحث عن مستأجر آخر، فقد قرَّرتُ ألا أقضي شتاء آخر في هذا المكان.

31

كان الطقس بالأمس جميلاً هادئاً، فذهبت إلى مرتفعات وذرينغ كما عزمت وطلبت مني مدبّرة شؤون منزلي راجية بأن أحمل منها رسالة صغيرة إلى سيدتها الشابة فلم أرفض طلبها، إذ لم أجد أي أذى في تلبيته. كان الباب الأمامي للبيت ما زال مفتوحاً أما المدخل فكان مغلقاً كما كان في زيارتي الأخيرة. قرعته ودعوت أرنشو الذي كان يعمل في الحديقة، فجاء وفتح المدخل، فدلفت منه إلى البيت.

سألته هل مستر هيثكلف موجود في البيت؟ أجاب: كلا ولكنه سيعود وقت تناول طعام الغداء. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة فأبديت رغبة في انتظاره داخل البيت. عندئذٍ ألقى أرنشو بأدواته جانباً ورافقني إلى الداخل لا ليحلّ محلّ المضيف وإنما ليراقب حركاتي وسكناتي.

دخلنا معاً، كانت كاثرن في الداخل تعدّ بعض الخضروات للغداء. وكانت تبدو أكثر حزناً من المرّة الأولى التي رأيتها فيها. لم ترتفع عيناها إلا قليلاً لتراني واستمرت في عملها ضاربة كالسابق عرض الحائط بقوانين الآداب العامة، ومع ذلك فقد حيّيتها تحية الصباح.

وحدّثت نفسي قائلاً: «إنها لا تبدو قريبة إلى القلب، محببة كما حاولت السيدة أن تصوِّرها لي. إنها جميلة حقاً ولكنها ليست ملاكاً».

طلب إليها أرنشو أن تنقل الأدوات التي تشتغل بها إلى المطبخ فقالت له: «انقلها أنت بنفسك». واتجهت إلى النافذة حيث أخذت تلهو بالمناظر التي أمامها.

اقتربتُ منها متظاهراً أني أودّ أن ألقي نظرة على الحديقة، وبينما أنا أجول ببصري في تلك المناظر أسقطتُ رسالة السيدة دين على ركبة الشابة دون أن ينتبه هرتون إلى ذلك ولكنها صاحت: «ما هذا؟».

أجبت: «رسالة من رفيقتك القديمة، مدبّرة شؤون غرانغ»، وقد أبديتُ امتعاضي لأنها فضحت ما قمتُ به من خير خشية أن يظن بي السوء، وما أن همّت بقراءة الرسالة حتى ضربها هرتون على يدها واختطفها ثم وضعها في صدريته، وقال إنه يجب أن يقرأها مستر هيثكلف أولاً. أدارت كاثرن وجهها عنّا بهدوء، وأخذت تبكي، فلم يستطع هرتون كبت شعوره الرقيق فألقى بالرسالة على الأرض بالقرب منها.

فتناولتها كاثرن حالاً وقرأتها بشوق ولهفة. ثم وجهت إليّ بضعة أسئلة عن بيتها السابق وألقت بنظرها صوب التلال وتمتمت تقول:

«يا ليتني الآن ممتطية مهري في طريقي إلى التلال، ما أشدّ رغبتي لتسلقها، لقد مللت الحياة هنا يا هرتون!» ثم خفضت رأسها الجميل وغرقت في حزن عميق وصمت طويل غير مبالية من حولها.

وأخيراً قلت لها: «لا تدرين أنني أعرف عنك الكثير، إن مدبّرة

شؤون منزلي لم تنفك أبداً ولم تضجر من الحديث عنك ومن مدحك. وستصاب بخيبة أمل كبيرة إذا عدت إليها بخفي حنين، ولم أبلغها شيئاً عنك سوى أنك تسلّمت رسالتها فقط».

استغربَتْ حديثي وسألتني قائلة:

«هل تحبّك ألن؟».

أجبتُ: «نعم، كثيراً».

أضافت تقول: «أخبرها أني أودّ أن أبعث بردّ على رسالتها ولكن ليس لدي أدوات للكتابة».

قلت متعجباً: «أليس لديك كتب قديمة؟ كيف يمكنك العيش بدونها هنا؟ إن عندي في (غرانغ) كتباً كثيرة ومع ذلك أشعر بالضجر والملل، فلو أُخِذَتْ مني لقتلني اليأس».

قالت كاثرن: «إني أحب القراءة كثيراً. وبما أن مستر هيثكلف لا يقرأ شيئاً أبداً فقد قرر أن يتلف جميع الكتب في البيت. ولم ألمح أي كتاب منذ عدة أسابيع. غير أني عثرت صدفة على مجموعة منها كانت مخبأة في غرفة هرتون، بعضها باللاتينية أو اليونانية وبعضها الآخر فيها قصص وحكايات وأشعار. وقد أحضرت إلى غرفتي كتب الشعر والقصص غير أن هرتون جمعها كما يجمع العقعق (Magpie) ملاعق الفضة لمجرد شغفه بسرقتها، مع أنها ليست ذات نفع له».

احمر وجه أرنشو خجلاً من هذه الإهانة فتمتم ببضع كلمات ردّ فيها الإهانة عنه.

فتدخّلت لأنقذه قائلاً: «إن مستر هرتون يرغب في زيادة معلوماته. إنه ليس حاقداً عليك وأعتقد أنه سيصبح من رجال العلم في بضع سنوات».

أخذ صدر هرتون يعلو ويهبط بهدوء لدقيقة واحدة من اضطرابه الذي لم يتمكن من التغلب عليه. ونهضت من مقعدي حتى أنقذه من هذا الاضطراب واتجهتُ نحو الباب. لحقَ بي وغادر الغرفة ولكنه عاد بعد قليل يحمل عدداً من الكتب وألقى بها بين يدي كاثرن وقال:

خذيها: «إني لا أرغب أن أقرأ أو أفكر بها مرّة ثانية!».

أجابت: «لا أريدها الآن، إني سأكرهها كما أكرهك».

لم يفه بأية كلمة وأسرع نحو المدخل. ولكن قبل أن يبتعد عن الغرفة التقى بمستر هيثكلف الذي أمسك به من كتفه وقال له:

«ما بالك أيها الفتى!».

أجاب: «لا شيء».

وفلت من بين يديه، ليخلو إلى نفسه.

وألقى هيثكلف نظرة عليه وتنهّد ثم تمتم قائلاً دون أن ينتبه إلى وجودي خلفه:

«ما أشدّ الشبه بينه وبين أبيه! إنني لا أستطيع تحمّل رؤيته».

وألقى بنظره على الأرض ودخل الغرفة واجماً وقد ارتسمت على ملامحه دلائل القلق وعدم الاستقرار التي لم ألاحظها من قبل. ولما أبصرت به كاثرن من خلال النافذة ولّت مسرعة إلى المطبخ، وهكذا ظللتُ وحدي.

ردّ على تحيتي قائلاً: «إنني سعيد لرؤيتك خارج البيت مرّة أخرى يا مستر (لوك ود). إني أستغرب ما الذي دعاك إلى الحضور إلى هنا مرّة أخرى!».

أجبتُ: «لمجرّد التنزّه. وعلى كلٍّ، فأنا أودّ إبلاغك أني

سأسافر إلى لندن في الأسبوع القادم. وقد وجدتُ أن من الواجب عليّ أن ألفت انتباهك إلى أنني لا أشعر برغبة في البقاء في ثرشكروس غرانغ بعد انتهاء مدّة الإيجار التي اتفقنا عليها».

قال: «أعتقد أنك قد سئمت الابتعاد عن العالم أليس كذلك؟ ولكن إذا ما حضرتَ لتطلب استرجاع بدل الإيجار فاعلم أنه لا فائدة تُرجى من رحلتك».

أجبتُ قائلاً: «لم أحضر لأطلب أي شيء من هذا القبيل. وإذا كنت ترغب في تسوية حسابنا فأنا على استعداد الآن».

أجاب ببرود: كلا، كلا، إني لست على عجل. اجلس وتناول طعام الغداء معنا. إن الضيف الذي لا يكرر زياراته يجب أن يرحّب به. يا كاثرن، هيا أعدّي الغداء أين أنت؟

بدت كاثرن أمامنا وهي تحمل طبقاً عليه عدد من الملاعق والسكاكين.

همس هيثكلف في أذنها قائلاً: «يمكنك أن تتناولي غداءك مع يوسف، وابقي في المطبخ حتى يخرج الغريب».

أطاعَتْ تعليماته بدقة.

وبين عبوس مستر هيثكلف من جهة وصمت هرتون من جهة أخرى تناولت طعامي، وما أن انتهيت حتى استأذنت بالانصراف في وقت مبكّر. وقد كنت أنوي أن أبرح البيت من الباب الخلفي لألقي نظرة أخيرة على كاثرن وأثير غضب يوسف العجوز غير أني لم أستطع تحقيق رغبتي إذ أمر هيثكلف هرتون بإعداد جوادي واقتياده إلى خارج البيت، كما رافقني مضيفي إلى الباب.

وبينما أنا عائد إلى (غرانغ) قلت محدّثاً نفسي ما أقسى الحياة

في ذلك البيت وما أملَّها! ولو وطدت علاقات الود والمحبة بيني وبين السيدة هيثكلف كما كانت تود مربيتها الطيبة وهجرنا معاً هذه المنطقة إلى جو المدينة الصاخب لكان ذلك ضرب من الخيال أشبه بالأساطير وقصص الجنيات.

32

عام 1803 - دعيت في شهر سبتمبر من هذا العام إلى زيارة صديق يسكن في الشمال، وفي طريقي إلى بيته أصبحت دونما أدري على مسافة خمسة عشر ميلاً من (غمرتون)، إذ بينما كان صاحب الخان يمسك بدلو من الماء لسقي خيلي مرّت عربة محمّلة بالشوفان. فسألني سائق العربة:

«أذاهب أنت إلى غمرتون؟».

قلت: «كم تبلغ المسافة إلى هناك؟».

أجاب: «أربعة عشر ميلاً فوق التلال عبر طرق وعرة».

تملّكني فجأة شعور غريب بزيارة ثرشكروس غرانغ. كان الوقت ظهراً فاعتقدت أنه بإمكاني أن أقضي الليلة تحت سقف منزلي، وفي الوقت ذاته أسوي حسابي بيني وبين صاحب بيتي، وأوفر على نفسي مشقّة زيارة تلك المنطقة مرّة أخرى فيما بعد. فبعد أن استرحتُ قليلاً طلبتُ من خادمي أن يستوضح عن الطريق المؤدية إلى القرية وقد استطعنا أن نقطع الطريق في زهاء ثلاث ساعات.

تركت خادمي في القرية وواصلت مسيري إلى الوادي وحيداً. كان الطقس دافئاً بديعاً فاستمتعت بالمناظر الجميلة وكم تمنيت أن

يكون لدي الوقت الوفير فأقضي شهراً كاملاً وحيداً بين أحضان الطبيعة في ذلك المكان.

وصلت غرانغ قبل غياب الشمس وقرعت الباب فلم يجبني أحد. وأخيراً لاحظت أن سكان البيت قد انتقلوا إلى الغرف الخلفية، تقدّمت نحو ساحة الدار فوجدت فتاة في التاسعة من عمرها تحيك الثياب وامرأة عجوز تجلس على مقربة من الاصطبل تدخن. سألت المرأة:

«هل السيدة دين في الداخل؟».

أجابت: «السيدة دين، كلا، إنها لا تسكن هنا. هي الآن في مرتفعات وذرينغ».

أعدتُ السؤال: «هل أنت مدبّرة شؤون البيت إذن؟».

أجابت: «نعم».

قلت: «حسناً، إنني مستر (لوك ود) مستأجر هذا البيت. هل هناك غرف نظيفة يمكنني أن أقيم فيها؟ إني أود أن أبيت هنا هذه الليلة».

صاحت في استغراب: «مستأجر البيت! إننا لم نكن نتوقّع عودتك».

دخلت البيت فوجدتُ الغرف يعلوها التراب فقلت لها إني ذاهب للقيام بجولة في الحقول وأمرتها أن تعدّ لي أثناء ذلك غرفة الجلوس لأتعشى فيها وغرفة أخرى لنومي. وخرجت قاصداً مرتفعات وذرينغ وقبل أن أغادر البيت سألت المرأة العجوز:

«هل الجميع بخير في المرتفعات؟».

أجابت: «نعم».

كنت أودّ أن أسألها لماذا هجرت السيدة دين غرانغ ولكني

عدلت عن ذلك وواصلت طريقي سائراً على مهل. كانت الشمس خلفي على وشك المغيب بينما كان القمر قد أخذ يبزغ أمامي بنوره الفضي البديع. وقبل أن يقع بصري على (مرتفعات وذرينغ) كان كل ما تبقّى من النهار بقية نور لا شعاع له في الجهة الغربية. واقتربت من البيت. تقدّمت نحو المدخل فاستسلم لي دون أن أطرقه. وقلت محدّثاً نفسي إن هذا دليل على تبدّل الحال وتحسّنه.

كانت أبواب البيت ونوافذه مفتوحة، ومع ذلك كانت النار الحمراء الجميلة تشتعل في الموقد، تجد العين في النظر إليها متعة وراحة. وسمعت صوتاً نسائياً عذباً في الداخل يرن كجرس فضي ويقول:

«على العكس، إن هذه هي المرة الثالثة. لن أعيدها مرّة أخرى. تذكّر وإلا فإنني سأسحب شعرك!».

أجاب صوت آخر بلهجة ناعمة: «والآن قبليني إذن لأنني تذكّرت!».

ردّ الصوت النسائي قائلاً: «كلا اقرأها أولاً بإتقان وبدون أي خطأ».

وابتدأ المتحدث يقرأ. كان شاباً يرتدي ثياباً أنيقة محترمة ويجلس على طاولة وقد فتح كتاباً بين يديه. كانت عيناه تشعّان سروراً وكان ينقلهما من الصفحة المفتوحة إلى اليد البيضاء الصغيرة الملقاة على كتفه. وكانت صاحبة اليد تقف خلفه وكلما انحنت إلى الأمام لتصلح له قراءته امتزجت خصلات شعرها الذهبي اللامع بخصلات شعره البني.

وأنهى التلميذ وظيفته فطلب مكافأة على ذلك فنال ما لا يقلّ عن خمس قبلات ردّها إلى الفتاة بسخاء ثم اتجها معاً نحو الباب

وتبين لي من حديثهما أنهما يعتزمان الخروج في نزهة إلى الحقول. التجأتُ إلى المطبخ لأنني كنت أعتقد أن هرتون أرنشو سيلعنني بقلبه إن لم يكن بلسانه إن رآني في البيت. كانت صديقتي القديمة نيلي دين تجلس عند الباب تخيط وتغنّي إحدى الأغنيات الشعبية القديمة. وما أن رأتني حتى قفزت على قدميها وصاحت:

«مستر لوك ود، رعاك الله! ما الذي حدا بك إلى أن تعود إلينا على هذا النحو؟ كان ينبغي ان تبلّغنا عن مجيئك!».

قلت: «إنني لن أقيم طويلاً وإني راحل غداً. وكيف انتقلت إلى هنا يا سيدة دين أخبريني؟».

أجابت: «لقد ذهبت زيلا، فدعاني مستر هيثكلف فور عودتك إلى لندن لأملأ مكانها. ولكن أرجوك أن تتقدّم! هل قدمت من غمرتون هذا المساء؟».

أجبت: «من غرانغ، أتيت لأصفّي حسابي مع سيدك لأني أعتقد أنه لن تتاح لي فرصة أخرى للاجتماع به لأني سأعود إلى لندن على وجه السرعة».

قادتني إلى داخل البيت وقالت: «أي حساب يا سيدي؟ لقد ذهب ولن يعود بسرعة».

أجبتُ: «الحساب المتعلّق بالإيجار».

قالت: «إذن يجب أن تسوّي المسألة مع السيدة هيثكلف، أو بالأحرى معي. إنها لم تتعلّم بعد كيف تدير شؤونها وإني مكلّفة بذلك الآن إذ لا يوجد أحد غيري».

نظرت إليها مدهوشاً.

فأضافت تقول: «أوه! أظن أنك لم تسمع بموت هيثكلف».

صحتُ باستغراب شديد: «أمات هيثكلف! متى كان ذلك؟».

أجابت : «قبل ثلاثة أشهر، ولكن اجلس ودعني أعلّق قبعتك على المشجب، وسأروي لك جميع ما حدث. وقبل كل شيء أودّ أن أسألك هل أكلت شيئاً؟».

قلت: «لا أريد شيئاً، لقد طلبتُ إعداد عشاء لي في ثرشكروس غرانغ. اجلسي لا تزعجي نفسك. لم يخطر ببالي أبداً أن يموت! حدثيني كيف كان ذلك. لقد قلتِ إنك لا تتوقعين عودتهما لمدة غير قصيرة، أتعني الفتى والفتاة؟».

أجابت: «إنني أوبخهما كل مساء للقيام بجولاتهما في الليل ولكنهما لا يباليان برأيي في هذا الشأن. إنك تبدو متعباً، سأقدّم لك كأساً من الجعة المعتّقة المحببة إليك، ستبعث فيك نشاطاً جديداً».

وأسرعت لتحضرها قبل أن أرفض طلبها. وعادت بعد لحظة تحمل كأساً من الفضة ثم أخذت تسرد على مسامعي بقية تاريخ هيثكلف.

* * *

قالت: «دعيت إلى مرتفعات وذرينغ بعد مغادرتك ثرشكروس غرانغ بأسبوعين، فلبَّيت الدعوة بسرور لأجل خاطر كاثرن. بعثت أول مقابلة بيننا الحزن في نفسي إذ لاحظتُ تغيُّرها إلى حدٍّ كبير منذ افتراقنا. لم يوضح مستر هيثكلف الأسباب التي حملته على دعوتي إلى هنا، ولم يقل لي سوى أنه يرغب في إعادتي، وأنه قد ضجر من رؤية كاثرن. وأبلغني أن أتخذ غرفة الجلوس الصغيرة مقاماً لي ولها. وقد سرّت كاثرن بهذا الإجراء، وقد استطعت تدريجياً أن أهرّب عدداً من الكتب وغيرها من الأشياء التي كانت تجد فيها تسلية في غرانغ، وخيّل إليّ أننا سنجد بعض الراحة في حياتنا الجديدة.

إلا أن هذا الأمل لم يدم طويلاً. فقد أخذت كاثرن بادئ الأمر تُبدي قلقها واضطرابها، لأنه كان محرّماً عليها أن تخرج حتى إلى الحديقة، خاصة وأن الربيع قد أخذ يقترب.

ولم يمضِ وقت طويل حتى أخذت تهرب من وحدتها وتلجأ إلى المطبخ حيث كان يقضي يوسف وهرتون أكثر أوقاتهما. كانت في بادئ الأمر تراقبهما من كثب دون أن تتدخل في شؤونهما ثم أخذت تصطدم مع يوسف، ولم تكتفي بهذا الحد، بل تعدّته إلى توجيه النقد إلى هرتون الذي كان يظلّ صامتاً، وأخذت تعلّق على غبائه وبروده، تعرب عن استغرابها لتحمّل هذه الحياة التي يحياها.

وقالت لي مرّة: «إنه يبدو كالكلب، أليس كذلك؟ يقوم بعمله ويأكل طعامه وينام دون أن ينطق ودواليك! ما أجفّ عقله وأضيق تفكيره!».

وسألته مرّة: «هل لك آمال يا هرتون؟ وبماذا تفكر؟» ثم نظرت إليه إلا أنه لم يفتح فاه بأية كلمة ولم يرفع عينيه إلى عينيها.

وأضافت تقول: «إنني أعلم لماذا لا يتكلّم هرتون عندما أحضر إلى المطبخ، إنه يخشى أن أهزأ به وأضحك منه. لقد كان مرّة يعلّم نفسه القراءة، ولأني ضحكت منه أحرق كتبه، أليس هذا نوع من الجنون؟».

قلت لها: «إنك بنت شقيّة».

وخاطبت هرتون قائلة: «إذا ما أعطيتك كتاباً هل تأخذه الآن؟» ووضعت كتاباً كانت تقرأه بين يديه فما كان منه إلا أن قذفه بعيداً وتمتم قائلاً: «إذا لم تستعيده فإني سأدقّ عنقها».

قالت: «حسناً، سأضعه هنا في الدرج، وأذهب إلى غرفة نومي».

ثم همست في أذني أن أراقب ما إذا كان سيلمسه أم لا وغادرت الغرفة. إلا أنه لم يقترب منه، وقد أبلغتها ذلك في الصباح التالي. فلاحظتُ أنها أسفت لعناده وجفاه، وأن ضميرها أخذ يؤنبها على توبيخه والهزء منه. وأخذت تحاول منذ ذلك الحين إصلاح ما بدر منها من بوادر سيئة، فكان إذا حضر هرتون مجلسنا قرأت أجمل كتبها وبدأت تتودد إليه. إلا أنه ظلّ على عناده لا يأبه بها.

وقد أخذ تبرم مستر هيثكلف بالحياة الاجتماعية يزداد يوماً عن يوم، فطرد أرنشو من غرفته. وحدث أن وقع حادث في مطلع شهر مارس أرغم أرنشو على البقاء في المطبخ بضعة أيام لا يبارحه، فقد انطلقت البندقية فجأة في يده وهو يتصيد فوق التلال وأصابت ذراعه. وقد كان نتيجة ذلك أن قبع بجانب الموقد يتمتع بالدفء والراحة ليتسنى له أن يستعيض ما فقده من الدم. وقد وجدت كاثرن فرصة طيبة للاقتراب منه بعد أن زاد كرهها للحياة وتبرّمها بالوحدة وصارت ترغمني على أن أجد لي عملاً في المطبخ كي ترافقني إليه.

وفي يوم عيد الفصح، ذهب يوسف إلى سوق غمرتون، وانهمكت بعد الظهر بنقل الكتان إلى المطبخ، بينما كان أرنشو يجلس فيه كالمعتاد حزيناً إلى جانب الموقد وسيدتي الشابة تتسلى برسم بعض الصور وأثناء ذلك ترفع عقيرتها بالغناء تارة وتارة أخرى بالضحك والتطلّع إلى أرنشو الذي كان يدخن غليونه باستمرار غير عابئ بها أبداً.

وأخيراً خاطبت كاثرن هرتون قائلة: «هرتون لقد اكتشفت أنني أود - إنني سعيدة - أن تكون ابن خالي الآن بالفعل فلا تعاكسني ولا تكن فظّاً معي».

لم يُجِبْها هرتون.

أردفت تقول: «هرتون، هرتون! ألا تسمعني؟».

صاح بصوت أجش: «ابتعدي عني!».

ثم تقدّمت نحوه بحذر واختطفت الغليون من فمه وقالت: «دعني آخذ هذا الغليون».

وقبل أن يحاول استعادته، ألقت به إلى النار وقالت: «اصغ إليّ أولاً، إنني لا أستطيع أن أحدّثك بينما تتصاعد هذه السحب من الدخان أمام وجهي».

قال بغيظ: «اذهبي إلى الشيطان!».

ألحّت عليه قائلة: «لا، لا أريد، لا أعرف ماذا أصنع حتى أجعلك تحدّثني. أصغِ إليَّ يا هرتون إنني ابنة عمتك».

أجاب: «ليس لي دخل بك وبكبرياء نفسك وتعجرفها وبألاعيبك الشيطانية. سأذهب إلى الجحيم قلباً وقالباً إِذا التفتُّ إليك. اغربي عن وجهي».

قطّبت كاثرن جبينها وانسحبت إلى النافذة وهي تقرض شفتيها وتحاول إخفاء ميلها المتزايد إلى البكاء.

وتدخّلتُ في الأمر وقلت: «يجب أن تكون وابن عمتك أصدقاء يا هرتون بعد أن ندمت على ما كانت تقوم به من مشاكستك. إن صداقتك لها ستعود عليك بالخير العميم، ستجعل منك رجلاً آخر».

صاح قائلاً: «صداقتي! إنها تكرهني، ولا تعتقد أنني أصلح لأمسح لها حذائها! كلا، لن أحاول مصالحتها ولو جعلتني ملكاً».

لم تستطع كاثي إخفاء اضطرابها فبكت وقالت: «إنني لا أكرهك وإنما أنت الذي تكرهني قدر ما يكرهني هيثكلف أو أكثر من ذلك».

قال أرنشو: «إنك كاذبة. لقد وقفت إلى جانبك ضده،

وتحمّلت غضبه علي في سبيلك. وماذا كان جزائي؟ لم يكن سوى احتقارك وكرهك لي».

أجابت وهي تجفّف دموعها: «لم أعلم أنك وقفت إلى جانبي، لقد كنتُ تعسة، شقية، قاسية مع كل إنسان، ولكني الآن أشكرك وأرجوك أن تسامحني».

وتقدّمت صوب الموقد، ومدّت يدها إليه لتصافحه. غير أنه ظلّ يحدق النظر بالأرض. لم تتخاذل كاثرن، بل تقدّمت منه بعد برهة وطبعت قبلة لطيفة على جبينه. ظنّت أنني لم أرَها فانسحبت إلى النافذة واتخذت مركزها السابق بالقرب منها ثم تقدّمت وهمست في أذني قائلة: «حسناً! ماذا يجب أن أصنع يا ألن؟ لا يريد أن يصافحني، حتى ولا ينظر إليّ. فيجب عليّ والحالة هذه أن أريه في طريقة ما أنني أحبه، وأنني أرغب في صداقته».

إنني لا أستطيع أن أقول ما إذا كانت القبلة قد أقنعت هرتون بصدق أقوال كاثرن أم لا. وكل ما أعرفه أنه ظل يخفي وجهه لبضع دقائق ولما رفع وجهه كان لا يدري إلى أين يدير عينيه.

وأخذت كاثرن كتاباً بديعاً ولفّته بإتقان بورقة بيضاء ثم عقدت حوله شريطاً فاخراً وكتبت عليه هدية إلى مستر هرتون أرنشو. وطلبت مني أن أكون سفيرتها وأحمل هديتها إلى المرسَل إليه. وقالت: «أخبريه أنه إذا قَبِلَ الهدية فسأعلّمه كيف يقرأ بإتقان، وإذا ما رفضها فسأصعد إلى غرفتي ولا أكلمه بعد اليوم أبداً».

حملت الهدية وبلّغته الرسالة بينما ظلّت كاثرن تراقبنا باهتمام. لم يفتح هرتون يده فوضعتها على ركبته، غير أنه لم يلقِ بها بعيداً. عدت إلى عملي، بينما أسندت كاثرن ذراعيها ورأسها إلى الطاولة، ولم يمض وقت طويل حتى سمعت حفيف الورقة التي لُفَّ بها

الكتاب. بعد ذلك تسللت بخفة وهدوء وجلست إلى جانب ابن خالها. ارتجفت أطرافه وطفح وجهه أملاً وبشراً. لقد خانته شجاعته في بادئ الأمر فلم يستطع أن يتفوه بأية كلمة أو يردّ على نظراتها. فما كان منها إلا أن قالت له: «قلْ إنك تسامحني يا هرتون! ستجعلني سعيدة جداً إذا تفوهت بهذه الكلمات الصغيرة». تمتم بكلمات غير واضحة.

ثم أردفت تقول: «هل ستصبح صديقي؟»

أجاب: «كلا، إنك لا تودّين صداقتي».

ابتسمت ابتسامة عذبة أحلى من الشهد والتصقت به وقالت: «وهكذا لا تبتغي أن تكون صديقي!».

وبعد ذلك لم أسمع منهما كلاماً واضحاً، ولكن عندما أدرت وجهي ثانية، رأيت وجهين يشعّان بالبِشْر والسعادة منكبّان فوق صفحة الكتاب فلم أشكّ أن المعاهدة قد أبرمت بينهما وأن العدوين قد أصبحا حليفين من الآن وصاعداً.

وبعد قليل قلت لكاثرن: «هيا بنا نصعد إلى غرفتنا لقد أنهيت عملي في المطبخ، فهل أنت على استعداد؟».

أجابت وهي تنهض متثاقلة: «الساعة لم تبلغ بعد الثامنة. سأترك هذا الكتاب على حافة المدخنة يا هرتون وسأحضر لك كتباً أخرى غداً».

هددها يوسف بأنه سيأخذ الكتاب غير أنها ابتسمت لهرتون وغادرت الغرفة وهي تغنّي.

وهكذا زرعت روح المحبة في نفسيهما ونمت بسرعة، مع أنها اصطدمت بجفاء في البداية. كانت أفكارهما تتجهان إلى نقطة

واحدة، الأول محب ويرغب في تقدير حبيبه واحترامه والآخر محب ويرغب في أن يحترم حبيبه ويجلّه.

أرأيت يا مستر (لوك ود) كيف أنه من السهل أن يفوز المرء بقلب السيدة هيثكلف!؟ وإنني الآن سعيدة لأنك لم تحاول ذلك. إن أقصى ما أتمناه في الحياة هو زواج هذين المخلوقين وسأكون في يوم زفافهما أسعد امرأة في الوجود.

33

وفي صباح اليوم التالي خرج أرنشو إلى الحديقة ليقوم ببعض الأعمال السهلة البسيطة، إذ كان يتعذّر عليه بعد أن يقوم بأعماله الاعتيادية في الحقل، وهبطت أنا وكاثرن من غرفتنا إلى المطبخ. ولما وجدت كاثرن أن ابن خالها في الحديقة لحقت به أما أنا فأعددتُ الفطور ثم توجهت إليهما فتبين لي أنها قد أقنعته بتنظيف قطعة واسعة من الأرض من الأعشاب ومن بعض شجيرات (القراسيا) وإعدادها لزرعها بأزهار من غرانغ.

ولقد هالني أن أرى الخراب الذي تمّ على يديهما في أقلّ من نصف ساعة. لقد كانت شجيرات (القراسيا) قرّة عين يوسف. فصحتُ قائلة:

«ما هذا! إن يوسف سيبلغ الأمر إلى رب البيت في اللحظة التي يكتشف فيها قطع هذه الشجيرات، وما هو العذر الذي ستقدمه لتصرّفك هذا في أشجار الحديقة؟ إن هذا الحادث سيثير ضجة كبيرة. كيف أصغيت إلى كلامها ولبيّت طلبها يا مستر هرتون؟».

أجاب: وقد بدا عليه الارتباك: «لقد نسيت أن الشجيرات ليوسف ولكني سأخبره أنني الذي اقتطعتها».

لقد كان من عادتنا أن نتناول جميع وجبات الطعام مع مستر هيثكلف. وكانت كاثرن تجلس عادة إلى جانبي ولكنها اليوم تسللت إلى جانب هرتون بينما كنت أعدّ الشاي.

وقبل أن نجلس إلى المائدة وندخل الغرفة همست في أذنها قائلة: «إياك أن تتحدّثي إلى ابن خالك كثيراً وتنظري إليه طويلاً. إن ذلك سيغضب مستر هيثكلف وسيحمل عليكما الاثنين».

أجابت: «لن أفعل ذلك».

ولكنها في اللحظة التي تلت دخولنا الغرفة تسلّلت إلى جانبه وأخذت تصبّ له الحساء في طبقه.

لم يجرؤ أن يتكلّم معها أو ينظر إليها، ومع ذلك ظلّت تداعبه حتى كاد أن ينفجر ضاحكاً مرتين. قطبتُ جبيني فهدأت قليلاً ولزمت الصمت غير أنها عادت بعد ذلك إلى ألاعيبها فضحك هرتون أخيراً ضحكة ناعمة. ذُهِلَ مستر هيثكلف الذي كان شارد اللب بمواضيع أخرى بعيدة كل البعد عمّا نحن فيه، وألقى نظرة سريعة على وجوهنا، وقابلت كاثرن نظرته بنظرة تحدّي ممّا أثار غضبه. فصاح قائلاً:

«إنك حسنة الحظ لكونك الآن بعيدة عن متناول يدي. أي شيطان قد حلّ فيك حتى تلقي إليّ بهذه النظرة بعينيك الجهنميتين؟ اخفضي بصرك! ولا تذكّريني بوجودك مرة ثانية. لقد كنت أعتقد أنني قد قضيت على سعادتك وابتسامتك!».

تمتم هرتون يقول: «أنا الذي ضحكت».

قال رب البيت: «ماذا تقول؟».

نظر هرتون إلى طبقه ولم يُعِدْ اعترافه. تطلّع إليه هيثكلف قليلاً

ثم استأنف طعامه بهدوء. وما كدنا ننهي طعامنا حتى ترك الشابان مكانهما على الطاولة، فحمدت الله على أنه لم تحدث أية مشادة أخرى أثناء الطعام. ولكن ما كاد يوسف يخرج من الباب حتى التمعت عيناه من الغضب إذ رأى شجيراته مقتلعة من مكانها وأخذ فكّاه يرتفعان ويهبطان كفكي البقرة وهي تمضغ لعابها وصار من الصعب علينا أن نفهم كلماته.

وقاطعه هيثكلف قائلاً: «ما بالك أيها الأبله! ماذا حدث؟ هل أساءت نيلي إليك بشيء».

أجاب: «إنها ليست نيلي. إنها تلك الملكة المدلّعة لقد سحرت صبيّنا بألاعيبها السحرية فنسي كلّ ما صنعته من أجله واقتلع شجيراتي».

سأل مستر هيثكلف: «هل الأحمق هرتون ثمل؟ ماذا دهاك يا هرتون؟».

أجاب الفتى: «لقد اقتلعتُ ثلاث شجيرات من الأرض ولكنني أود أن أعيدها إلى مكانها».

سأل هيثكلف: «ولماذا اقتلعتها؟».

تدخلت كاثرن وقالت: «أردنا أن نزرع بعض الأزهار بقربها. إنني الشخص الوحيد الذي يجب أن يُلام على هذا العمل لأنني أنا الذي طلبتُ منه أن يفعل ذلك».

دُهش هيثكلف كثيراً وسألها: «ومَن هو الشيطان الذي سمح لك بلمس أي شيء في هذا البيت؟» وأدار وجهه إلى هرتون وسأله: «مَنْ أمرك أن تطيعها؟» لم ينبَس الشاب ببنت شفة فأجابت كاثرن نيابة عنه:

«يجب ألا تتذمر وتغضب بسبب قطعة صغيرة من الأرض لا

تزيد عن بضعة أمتار في الوقت الذي استوليتَ فيه على جميع أرضي!».

قال هيثكلف: «أراضيك أيتها الوقحة! لم يكن عندك أي أرض».

أردفت تقول: «وأموالي!».

أجاب: صه! واغربي عن وجهي.

ومضت قائلة: «وأموال هرتون وأراضيه! إنني وهرتون أصدقاء وسأخبره كل شيء عنك».

بدا على رب البيت الاضطراب وامتقع لونه ونهض وهو ينظر إليها بعين تنمّ عن الكره الشديد.

قالت: «إذا، ضَرَبْتَني ضَرَبَكَ هرتون، فخير لك أن تجلس».

زمجر هيثكلف قائلاً: «إذا لم يطردك هرتون خارج الغرفة، فسأضربه حتى الموت. أيتها الساحرة اللعينة، إياك أن تحاولي إثارته ضدي. أبعدها من أمامي! ألا تسمع؟ اطردها إلى المطبخ! إنني سأقتلها يا (ألن دين) إذا رأيتها مرّة ثانية!».

حاول هرتون مكرهاً أن يقنعها بالخروج من الغرفة فصاح هيثكلف بوحشية:

«اسحبها ما هذا، أتحدِّثها بلطف؟».

قالت كاثرن: «إنه لن يطيعك أيها الرجل الشرير بعد الآن، وسيكرهك قريباً ككرهي لك».

تمتم الشاب بضع كلمات مؤنباً إياها على كلامها وقال لها: «لا أحب أن أسمعك تفوهين بمثل هذا القول له».

صاحت: «ولكن أتسمح له بضربي؟».

همس في أذنها قائلاً بحماس: «تعالي إذن!».

إلّا أن مغادرتها جاءت متأخرة وأمسك هيثكلف بذراعها وقال لأرنشو: «اذهب أنت الآن! لم أستطع أن أتحمّل إهانتها هذه المرّة، سأجعلها تندم على ذلك إلى الأبد!».

أمسك شعرها بيده، وحاول هرتون أن يفلتها ورجاه ألا يؤذيها هذه المرّة. ولمعت عينا هيثكلف السوداوان وبدا كأنه على استعداد ليمزّقها إرباً إرباً، فأسرعتُ إلى نجدتها فأفلت شعرها وقبض على ذراعها وحدّق النظر في وجهها. ثم سحب راحة يده على عينيها وقال لها بعد أن استردّ أنفاسه:

«يجب أن تتعلمي كيف تتجنبين إثارة غضبي وإلا فإنني سأقتلك فعلاً ذات مرّة! اذهبي مع السيدة دين ولا تفترقي عنها. أما هرتون أرنشو فسأطرده من البيت شرّ طردة إذا علمتُ أنه يستمع إلى أقوالك. إن حبك له سيجعله طريداً فقيراً معدماً. خذيها معك، يا نيلي، واتركوني جميعاً لوحدي! اتركوني!».

تقدّمت أمامي سيدتي الشابة إلى الخارج وظلّ مستر هيثكلف وحيداً في الغرفة حتى حان موعد العشاء. نصحت كاثرن أن تتناول عشاءها في غرفتها ولكن حالما لاحظ هيثكلف فراغ مقعدها أرسلني أستدعيها، لم يتحدّث بشيء إلى أحد منا، ولم يأكل إلا قليلاً، وخرج من الغرفة مباشرة بعد ذلك قائلاً إنه لن يعود قبل حلول المساء.

واتخذ الصديقان مقعدين لهما في القاعة أثناء غياب هيثكلف وقد سمعت هرتون يؤنب ابنة عمته على إغضاب عمها. وقال لها إنه لا يريد أن يسمع منها أية إهانة توجَّه إليه. وإنه سيقف إلى جانبه، وأنه من الأفضل أن تهينه هو بدلاً من أن تهين مستر هيثكلف.

عارضته كاثرن في ذلك إلا أنه وجد الوسائل التي جعلتها توافق

على عدم التفوه بأية إساءة له. وقد ظهرت صفاء نية وحسن طوية فيما بعد فتجنبت كل شيء قد يغضب هيثكلف، واعترفت لي بأنها قد شعرت بالندم لأنها حاولت أن تثير الخلاف بينه وبين هرتون.

ولما انتهى هذا الخلاف البسيط بين الفتاة والفتى، عادا صديقين حميمين وأخذ هرتون يتلقى دروسه على يد معلمته. وبعد أن أنهيتُ عملي جلست إلى جانبهما وشعرتُ براحة وطمأنينة في مراقبتهما ولا أدري كيف مرّ علينا الزمن. ولم أصدّق نفسي أن هرتون هو الشخص نفسه الذي رأيته يوم اكتشفتُ سيدتي الصغيرة في مرتفعات وذرينغ بعد أن قامت برحلتها إلى تلال (كراجز). وبينما أنا معجبة فخورة بهما وهما يدرسان، حلّ الظلام وبحلوله عادَ رب البيت. دخل البيت على غير انتظار وألقى ببصره علينا جميعاً قبل أن يرفع أحد منا رأسه ليراه.

ورفعتُ عيني ثم رفع أرنشو وكاثرن عينيهما معاً فواجها مستر هيثكلف. ربما لم تلاحظ يا مستر (لوك ود) أن عينيهما متشابهتان، تماماً وأنهما شبيهتان بعين كاثرن أرنشو. وأعتقد أن هذا التشابه جرّد مستر هيثكلف من سلاحه. تقدّم نحو الموقد باضطراب واضح ولكن هذا الاضطراب هدأ بسرعة عندما نظر إلى الفتى. وأخذ هيثكلف الكتاب مِن يد هرتون وألقى نظرة على الصفحة الأولى ثم أعاده دون أن يُبدي أية ملاحظة سوى أنه أشار إلى كاثرن بأن تغادر المكان. تباطأ رفيقها خلفها بالخروج وكنت على وشك مغادرة الغرفة أيضاً لكنه أمرني بألّا أبرح مكاني وقال:

«إنها نهاية غير حسنة، إنها نهاية مخالفة لجهودي القاسية، أليس كذلك يا سيدة دين؟ لقد أعددتُ كل شيء لأمحي اسم هاتين العائلتين من الوجود، ودربت نفسي لأصبح قادراً على ذلك ولمّا تمّ

كل شيء وأصبح جاهزاً وفي مقدوري وجدتُ أن إرادتي لم يعُدْ لها وجود. إن أعدائي القدامى لم يهزموني ولم ينتصروا عليّ، والآن هو الوقت المناسب لأثأر لنفسي من ممثليهم، إنّ ذلك باستطاعتي، ولا أحد يستطيع أن يقف حجر عثرة في طريقي. ولكن ما الفائدة! إنني لا أبتغي الآن أن أوجّه الضربة القاضية، ولا أريد أن أزعج نفسي برفع يدي! لقد فقدتُ مقدرتي على الاستمتاع بزوالهم وتحطيمهم.

نيلي، إن تبدّلاً غريباً سيطرأ - إنني في ظل هذا التبدّل في الوقت الحاضر. لم أعد الآن أجد سوى لذّة ضئيلة في حياتي اليومية حتى أصبحتُ لا أتذكّر طعامي وشرابي إلا نادراً. إن مظهر الشخصين اللذين تركا الغرفة هو الذي يسبّب لي الألم، لا أريد أن أتكلّم عن الفتاة وليس لي رغبة في التفكير بها وأرجو من كل قلبي ألا أراها أبداً، إذ إن وجودها لا يثير في نفسي سوى مشاعر وإحساسات جنونية. أما الفتى فإنه يثير في نفسي شعوراً آخر».

وأضاف يقول وهو يحاول جاهداً أن يفتر ثغره عن ابتسامة:

«ربما تعتقدين أنني أقترب من الجنون. أتعدين بألا تتحدثي إلى أحد عمّا سأقوله لك؟ إنني سأحاول أن أصف لك الآن الذكريات والأفكار التي تنبعث أو تشكلها رؤيته.

لقد بدا لي هرتون قبل خمس دقائق أنه إنسان غير عادي، إنه يشبه كاثرن إلى حدٍّ مخيف، حتى إنه يذكّرني بها دائماً. إنني أتخيلها أمامي في كل سحابة وفي كل شجرة، إنني أشعر بنفسي محاطاً بصورها من كل جانب.

ولكن من الحماقة أن أصور لك هذه الأفكار. ولكنها تساعدك على فهم الموقف ومعرفة ميلي إلى العزلة الدائمة، وكيف أن رؤية هرتون لا تسبب لي إلا العذاب المقيم.

أذهلني كلامه وأسلوب حديثه مع أنه لم يكن يبدو في خطر من فَقْدِ مداركه أو من موته، لقد كان قوي البنية تماماً ويتمتع بصحة طيبة، أما بالنسبة إلى تفكيره فقد كان منذ طفولته يحب التحدّث عن الظلام والأشباح والخيالات الغريبة».

سألته: «ما تعني بتوقعك تبدّلاً غريباً في حياتك؟».

أجاب: «إنني لا أعلم شيئاً عن هذا التبدّل حتى يقع».

سألته: «أتشعر بأي مرض؟».

أجاب: «لا».

سألته: «ألا تخاف من الموت؟».

أجاب: «كلا! إنني لا أخشى الموت ولا أتوقعه ولا آمله - لماذا أخشاه؟ سأظلّ على قيد الحياة حتى لا تظل شعرة سوداء واحدة في رأسي. ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أستمر على هذه الحال. لي أمنية واحدة، وسأعمل كل ما في وسعي لتحقيقها. ولكن الطريق طويلة شاقة للوصول إلى نهايتها، وكم أتمنى أن يتحقق ذلك!».

وأخذ بعد ذلك يقطع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يتمتم بكلمات غريبة إلى نفسه حتى أخذت أميل إلى الاعتقاد، كما قال يوسف لي أنّ عقله قد أحال قلبه إلى جحيم أرضي.

34

وبعد مُضيّ بضعة أيام على تلك الأمسية امتنع مستر هيثكلف عن مقابلتنا وقت تناول الطعام، وقد أصبح يأكل مرّة واحدة كل أربع وعشرين ساعة حتى يسد رمقه ويحافظ على صحته.

وذات مساء بعد أن ذهب كل فرد من أفراد العائلة إلى مخدعه سمعته يهبط السلم ويتوجه إلى الباب الأمامي. وفي الصباح تبين لي أنه لم يعد وأنه ما زال خارج البيت.

كان الطقس جميلاً ودافئاً والعشب مخضراً، إذ كنا في شهر أبريل. وألحّت كاثرن عليّ بعد تناول طعام الإفطار أن أحضر كرسياً لأجلس عليها تحت شجرة الشوح. وبينما كنت أمتّع نفسي بالأريج الذي ينبعث من أزهار الربيع، وبالسماء الزرقاء الصافية، أقبلت كاثرن وأبلغتني أن مستر هيثكلف قد عاد إلى البيت.

وأضافت تقول وقد بدا عليها الاضطراب: «لقد تحدّث إلي».

سأل هرتون: «ماذا قال؟».

أجابت: «لقد أبلغني أن أغرب عن وجهه بأسرع ما يمكنني، ولكنه كان ينظر إليّ نظرة تختلف كثيراً عن نظراته السابقة حتى إنني وقفت لحظة واحدة أحدق النظر به!».

سألتها: «كيف؟».

أجابت: «إنه مبتهج وسعيد».

قلت: «إن التنزّه في الليل يُبهجه إذن».

لقد دهشت فعلاً كما دهشت كاثرن من هذا التحوّل، إذ إن رؤية مستر هيثكلف مسروراً لَهُوَ من الأمور الغريبة. فانتحلتُ عذراً لأدخل البيت لرؤيته. كان يقف بالباب المفتوح، وقد شحب لونه، وكان في عينيه بريق غريب بَدَّلَ جميع ملامح وجهه.

سألته: «هل تود أن تتناول طعام الإفطار؟ أظنك جائع بعد أن سِرْتَ طوال الليل». كنت أرغب في أن أكتشف أين كان ولكن لم أشأ أن أسأله مباشرة.

أجاب: «كلا، إنني لست جائعاً».

شعرتُ باضطراب شديد، ولم أعرف ما إذا كانت الفرصة مناسبة لأقدّم له النصح.

وقلت: «إنني لا أعتقد أنه من المستحسن أن يتجوّل المرء في الليل بدلاً من أن يأوي إلى فراشه. إنه عمل ليس فيه شيء من الحكمة في هذا الفصل الرطب. إذ من المحتمل أن يُصاب ببرد شديد أو حمى. أتشعر بأي شيء الآن؟».

أجاب: «لا أشعر بشيء البتّة. وإذا أردتِ أن تدخلي الغرفة فأنا أرحّب بك شريطة ألا تزعجيني».

أطعتُ أوامره وتركته وحيداً ولاحظتُ أنه كان يتنفس بسرعة كما يتنفس القط.

وعندما حلّ وقت الظهيرة جلسنا معاً لتناول طعام الغداء وقدّمت له طبقاً مملوءاً بالطعام، وقال لي ردّاً على الكلمات التي خاطبته بها في الصباح!

«إنني غير مصاب ببرد أو حمى يا نيلي، وإني على استعداد لأن ألتهم كل ما تعطيني إياه من طعام. وما أن أمسك بالمعلقة ليبدأ الأكل وإذا به ينتصب واقفاً حتى بدا كأنه فقد قابليته فجأة. فأعاد الملعقة إلى الطاولة وألقى ببصره نحو النافذة ثم استقام وخرج من الغرفة. ورأيناه يسير ذهاباً وإياباً في الحديقة بينما كنا نتناول طعامنا. وقال أرنشو إنه سيذهب ويسأله لماذا لم يتناول غداءه ظناً منه أننا قد أغضبناه. ولمّا عاد هرتون سألته كاثرن:

«ألا يودّ أن يعود؟».

أجاب: «كلا، إنه ليس غاضباً على أحد، بل على العكس، يبدو سعيداً، لقد ألححت عليه السؤال حتى ضجر مني وطردني».

وضعتُ طبقه بالقرب من النار ليظلَّ ساخناً، وبعد زهاء ساعة أو ساعتين عاد إلى الغرفة ولم يكن فيها أحد سواي، وكانت علامات البِشْر ترتسم على محياه، وكان ثغره يفتر بين آنٍ وآخر عمّا يشابه الابتسامة. كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه لا كمَنْ يرتجف من البرد أو الضعف، لكن كارتجاج حبل محكم الربط.

قلت في نفسي يجب أن أسأله ما به فبادرته قائلة: «هل تلقيتَ أخباراً طيبة يا مستر هيثكلف؟ إنك تبدو ممتلئاً حياة وقوة على غير عادتك».

أجاب: «من أين تأتي إليّ الأخبار الطيبة؟ إنني ممتلئ قوة من الجوع، ويظهر أنه ينبغي عليّ ألا أتناول أي طعام بعد الآن».

قلت: «إن غداءك معدٌّ هنا، لماذا لا تتناوله؟».

تمتم قائلاً بسرعة: «لا أريده الآن، سأنتظر حتى يحين موعد العشاء، وهذه آخر مرّة أرجوك فيها يا نيلي أن تحذِّري هرتون وكاثرن من الدنو مني. لا أريد أن يزعجني أحد».

سألته: «هل هناك من سبب جديد لهذا التحذير؟ أخبرني يا مستر هيثكلف لماذا أنت شاذّ في تصرفاتك الآن وتبدو غريباً جداً. أين كنت الليلة الماضية؟ لا أوجه إليك سؤالي إلا لمجرّد حبّ الاستطلاع ولا شيء غير ذلك».

قاطعني بضحكة وقال: «إنك تضعين السؤال لمجرد حب الاستطلاع ومع ذلك فسأجيب عنه. لقد كنتُ الليلة الماضية أقف على عتبة الجحيم، وإنني أقف اليوم على مرأى من الجنة. إنني أراها الآن بعيني، ولا يفصل بيني وبينها سوى ثلاثة أقدام! والآن من الأفضل أن تذهبي! وإذا وفَّرت على نفسك عناء الاستقصاء والبحث فلن تري أو تسمعي ما يزعجك ويُرهِبُك».

ولمّا كنت قد نظّفت الموقد والمائدة غادرت الغرفة وأنا أكثر حيرة من أي وقت مضى.

لم يغادر هيثكلف البيت مرّة ثانية بعد ظهر ذلك اليوم، ولم يحاول أحد أن يعكّر عليه صفو وحدته، حتى قاربت الساعة من الثامنة فوجدت من المناسب أن أحمل إليه عشاءه وشمعة يضيء بها غرفته. كان يتكئ على حافة نافذة مفتوحة، وقد أدار وجهه إلى داخل الغرفة المظلمة. كانت النار في الموقد قد تحوّلت إلى رماد وامتلأت الغرفة بالهواء الرطب. أبديت عدم موافقتي على هذه الحال وأغلقتُ النوافذ واحدة بعد أخرى حتى وصلت إلى النافذة التي يجلس بقربها.

سألته وأنا أتأمل في أن يتزحزح عن مكانه: «أينبغي أن أغلق هذه النافذة؟».

أوه يا مستر (لوك ود) لا أستطيع أن أعبّر بكلماتي البسيطة عن الفزع الذي ألمّ بي عندما نظرتُ إلى وجهه في تلك اللحظة! ولقد بدا

لي أنه لا يمت إلى مستر هيثكلف بصلة وإنما هو شيطان مريد. ومن شدة فزعي ارتطمت الشمعة بالحائط فانطفأت وساد الغرفة ظلام دامس.

وأجابني بصوته العادي: «نعم أغلقيها! لماذا أمسكتِ بالشمعة أفقياً؟ أسرعي وأحضري أخرى».

خرجتُ وأنا في حالة خوف شديد وقلت ليوسف:

«رب البيت يطلب منك أن تأخذ معك ناراً لتشعل الموقد».

حمل يوسف معه جمرات من النار ثم أعادها حالاً وهو يحمل في اليد الأخرى عشاء مستر هيثكلف وقال إن رب البيت ذاهب إلى سريره ولا يرغب في أن يأكل شيئاً حتى الصباح.

وسمعناه يصعد الدرجات بعد ذلك مباشرة. لم يتجه صوب غرفته العادية، بل اتجه إلى الغرفة، تلك الغرفة التي تحتوي على السرير المطرّز، والتي فيها نافذة واسعة تتسع لأي إنسان أن يمر من خلالها. ومما أذهلني أنه قام بجولة أخرى في منتصف الليل.

وسألت نفسي: هل هو غول أو شبح من الأشباح التي تمتص الدماء؟ لقد قرأت عن وجود مثل هذه الشياطين الخفية. ثم أخذت أستعيد في مخيلتي أيام طفولته وكيف كنت أرعاه وأراقب نموه يوماً بعد يوم. وقد عجبتُ كيف أنه أصبح يستسلم لمثل هذه المخاوف. ورحت أسائل نفسي وأنا أقاوم النعاس من أين جاء هذا الطفل الأسود الصغير؟ وأخذتُ أجهد تفكيري لأتخيل له أصلاً يناسبه، وأخيراً بدا أمام عيني مشهد وفاته وجنازته، وكيف أننا لم نستطع معرفة السنة التي ولد فيها واسم عائلته، فوجدنا أنفسنا مرغمين على الاكتفاء بحفر اسم هيثكلف على قبره وتاريخ وفاته.

وقد أعاد الفجر إليّ عقلي وتفكيري. فنهضتُ من سريري

وخرجتُ إلى الحديقة حالما انبلج نور الصباح لأرى ما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته. لم أرَ أي أثر فقلت في نفسي: «إنه ما زال في البيت، وسيكون اليوم أحسن حالاً». ثم أخذت أعدّ طعام الإفطار للجميع كما كانت عادتي، ولكنني أبلغت كاثرن وهرتون، أن يتناولا فطورهما قبل أن يهبط رب البيت من غرفته لأنه لم ينم إلا في ساعة متأخرة من الليل.

وما أن دخلت قاعة البيت حتى وجدتُ مستر هيثكلف هناك، وكان يتحادث مع يوسف حول بعض الشؤون الزراعية. ولما غادر يوسف القاعة اتخذ هيثكلف لنفسه مقعداً في الموضع الذي كان يختاره عادة ثم وضعتُ أمامه فنجاناً من القهوة. قرّبه منه ثم أسند ذراعيه إلى الطاولة ونظر إلى الجدار المقابل بعينين قلقتين وباهتمام شديد جداً حتى أنه توقف عن التنفس خلال نصف دقيقة.

صحتُ في وجهه وأنا أدفع بقطعة صغيرة من الخبز أمامه: «هيا، اشرب القهوة قبل أن تبرد».

لم يلتفت إليّ ومع ذلك ارتسمت ابتسامة على محياه.

ناديته: «مستر هيثكلف! سيدي! بحق الإله لا تحدق بنظرك كأنك ترى رؤيا سماوية».

أجاب: «لا تصرخي عالياً بربك. أخبريني هل نحن هنا بمفردنا؟».

أجبته: «طبعاً، طبعاً إننا وحيدان».

ثم وضع يده على المائدة وانحنى إلى الأمام وأخذ يحدّق فيها.

وتبين لي الآن أنه لم يكن يتطلّع إلى الجدار، بل كان يحدّق النظر في شيء لا يبعُد عنه أكثر من مترين. ومهما كان ذلك الشيء فإنه كان يبعث في نفسه في آنٍ واحد السرور والألم في أقصى

حدودهما. وحاولت عبثاً تذكيره بالطعام الذي أمامه، فكان إذا مدّ يده تلبية لطلباتي المتكررة انكمشت أصابعه وظلّت يده على الطاولة دون أن تبلغ هدفها.

ويبدو أنه اضطرب من بقائي في الغرفة إذ نهض وسألني لماذا لا أسمح له بتناول طعامه على انفراد؟ وقال لي لا ضرورة لانتظاره في المرة القادمة. ثم غادر البيت بخطوات بطيئة إلى ممر الحديقة وغاب عن ناظري.

ومرّت الساعات بطيئة متثاقلة، وأقبلت أمسية أخرى. لم آوي إلى سريري حتى ساعة متأخرة من الليل ولما ألقيت بنفسي على السرير لم أستطع النوم. ولقد عاد هيثكلف بعد منتصف الليل وبدلاً من أن يذهب إلى فراشه دلف إلى غرفة في الطابق السفلي وأغلق بابها خلفه. أصغيت علّني أستمع إلى ما يدور في الغرفة ثم غادرت السرير وهبطت إلى الطابق السفلي.

ولما وصلتُ سمعته يقطع أرض غرفته ذهاباً وإياباً وكثيراً ما كان يقطع حبل الصمت الذي كاد يسود البيت بآهة عميقة، وينطق ببعض كلمات مبهمة لم أفهم منها كلمة سوى اسم «كاثرن» لم تكن لدي الشجاعة الكافية لأدخل الغرفة مباشرة، فأخذتُ أحطّم حطب الموقد في المطبخ لأحوِّل أفكاره وأبعد عنه أوهامه. وقد تحوّل عن ذلك بأسرع مما كنت أتوقّع، إذ فتح الباب حالاً وقال:

«نيلي تعالي إلى هنا – هل طلع الفجر؟ ادخلي».

أجبتُ: «إن الساعة تشير إلى الرابعة. أتريد شمعة لتحملها معك إلى فوق؟».

قال: لا، لا أريد أن أصعد إلى الطابق العلوي. ادخلي وأشعلي النار.

أجبت: «ينبغي أن أنفخ على الفحم حتى يحمرَّ قبل أن أقوم بنقله إلى الموقد».

وبعد ذلك أخذ يحوم في الغرفة في حالة تشبه الجنون وينفث آهات عنيفة واحدة تلو الأخرى. ثم قال:

«عندما ينبثق الفجر سأستدعي مستر غرين لأني أريد أن أطّلع منه على بعض المعلومات القانونية. إنني لم أكتب بعد وصيتي ولست أدري لمن سأترك أملاكي. كم أتمنى أن أزيلها عن وجه الأرض».

قاطعته قائلة: «ما بالك يا مستر هيثكلف؟ لم أتوقّع أن تنهار أعصابك إلى هذا الحدّ، وإن الطريقة التي صرَفْتَ فيها وقتك خلال الأيام الثلاثة الأخيرة كافية أن تودي بحياة أقوى إنسان في الوجود. تناول بعض الطعام واسترح قليلاً. لو نظرت إلى نفسك في المرآة لرأيتَ كم أنتَ بحاجة إلى الطعام والراحة. إنك تبدو كشخصٍ يموت من الجوع ويكاد أن يُصاب بالعمى من قلّة النوم».

أجاب: «إن الخطأ ليس خطئي لأنني لا أستطيع الأكل والانتجاع إلى الراحة. ولن أتوانى عن تناول أي شيء من الطعام وأستمتع ولو بقليل من الراحة حالما أستطيع ذلك. ولكن كيف تطلبين من رجل يناضل في البحر أن يستريح ولم يبقَ بينه وبين الشاطئ سوى مسافة ذراع واحد! ينبغي عليّ أن أصل الشاطئ أولاً ثم أستريح. إنني سعيد جداً ومع ذلك فإنني لم أصل بعد إلى السعادة التي أنشدها».

قلت: «أأنت سعيدٌ يا سيدي؟ إنها لسعادة غريبة! سأقدّم لك نصيحة تزيد من سعادتك، إذا أكدتَ لي أنك لن تغضب من كلامي».

سألني: «ما هي نصيحتكِ؟».

قلت: «إنك تعلم يا مستر هيثكلف إنك عشت حياة أنانية، بعيدة عن روح الدين منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمرك، ولم تتصفح الكتاب المقدّس طول حياتك بعد بلوغك هذا السن، لا بدّ أنك قد نسيت ما جاء فيه. فهل هناك أي ضرر إذا أرسلتُ في طلب أحد رجال الكنيسة مهما كانت منزلته ليفسّر لك تعاليم الكتاب ويُريك طريق الضلال التي مشيتها؟ ينبغي أن تتحوّل عن هذه الطريق قبل أن تموت».

قال: «إنني ممتنٌّ لكِ لأنك ذكَّرتني بالطريقة التي أرغب أن أدفن فيها - احملوني إلى ساحة الكنيسة عندما يُقبل المساء، ورافقي نعشي أنت وهرتون ولا حاجة أن يشهد الجنازة أي قسيس أو كاهن، ويجب ألّا يتلى شيء فوق رأسي. لقد قلت لك أنني قد بلغت فردوسي».

قلت وقد صُعِقْتُ من إلحاده: «وإذا ما فرضنا أنك أصررت على عنادك وواصلتَ صومك فمتَّ نتيجة ذلك ورفَضَ رجال الكنيسة أن يدفنوك داخل أسوار الكنيسة، فما قولك إذن؟».

أجاب: «إنهم لن يفعلوا، وإذا ما فعلوا ذلك يجب أن تنقلوني سراً، وإذا ما أهملتم هذه الأمانة تكونون عندئذٍ قد أسأتم إلى حرمة الميت».

وحالما سمع ضجة أفراد العائلة الآخرين عاد إلى دنياه فتنفَّست الصعداء. ولكن ما أن حان بعد الظهر حتى حضر إلى المطبخ ثانية وفي عينيه نظرة غريبة وطلب مني أن أحضر وأجلس معه داخل البيت. رفضتُ طلبه وأخبرته بوضوح أن أسلوب حديثه في الصباح أفزعني وليس لي الآن مقدرة على تحمّل رفقته.

أطلق من فمه ضحكة حزينة وقال: «أعتقد أنك تظنين أنني

شيطان»، ثم التفت إلى كاثرن التي كانت تقف خلفي وقال لها: «اقتربي مني إنني لن أؤذيك. هناك شخص واحد لا يملّ رفقتي!».

وعند الغسق صعد إلى غرفته، وظلّ يئنّ طوال الليل حتى مطلع الفجر. كان هرتون يودّ أن يدخل الغرفة ليعرف ما أصابه ولكنني نصحته بأن يُحضِر الطبيب قبلاً ثم يدخل وإياه لرؤيته. وعندما أقبل الطبيب اقتربتُ من الباب لأحاول فتحه ولكني وجدته مقفلاً فصاح هيثكلف من الداخل يطلب منا أن ننصرف لأنه أحسن حالاً وأنه يفضّل أن يُترك لوحده، فعاد الطبيب.

كان المساء التالي ممطراً، وظلّ المطر ينهمر كالسيل طوال الليل حتى انبثاق الفجر، وبينما كنت أقوم بجولتي الصباحية حول البيت، لاحظت أن نافذة غرفة رب البيت مفتوحة على مصراعيها، والمطر ينساب إلى الداخل، قلت: «إنه لا يمكن أن يكون الآن في فراشه، لأن المطر سيبلّله تماماً! فإما أن يكون في الطابق العلوي أو خارج المنزل وعلى كلٍّ سأذهب لأرى بنفسي الحقيقة».

وقد استطعتُ أن أدخل الغرفة بمفتاح آخر كان معي وما أن فتحت الباب حتى أسرعتُ لأغلق النافذة وبعد أن أغلقتها نظرت حولي وإذ بي أرى مستر هيثكلف وقد استلقى على ظهره. التقت عيناي بعينيه فأصابتني رعشة ثم بدا لي أنه يبتسم، لم أفكر أبداً أنه ميت. كان وجهه وعنقه مبتلّين بالمطر، والفراش يسبح في الماء ومع ذلك كان لا يُبدي حراكاً. ولمّا اقتربتُ منه لم أشكّ أنه ميت!

رفعتُ شعره الطويل الأسود عن جبهته ومشطّته. وحاولت أن أغلق عينيه لأطفئ تلك النظرة المرعبة قبل أن يتطلع إليها أحد غيري فلم يغلقا وكأنهما أرادا أن يهزآ بمحاولاتي، وشعرت بالخوف فناديت يوسف الذي أسرع إلى الغرفة في الحال.

وما أن عرف جليَّة الخبر حتى رفع يديه وشكر الله على إعادة الحق إلى نصابه والمنزل العتيق إلى صاحبه الشرعي.

ولقد أذهلني هذا الحادث المفزع وعادت بي الذكريات إلى الأيام الخوالي المحزنة، ولقد كان هرتون هو الشخص الوحيد الذي تألم كثيراً وحزن حقاً على موت هيثكلف وقد ظلّ طوال الليل إلى جانب الجثة يبكي وينتحب ويشدّ على يدي هيثكلف ويقبّل وجهه الوحشي الذي لم يتقدّم أحد للتطلّع إليه وقد ندبه بحزن عميق لا ينبعث عادة إلا من قلب كريم.

لقد احتار مستر كينيث في معرفة المرض الذي توفي بسببه هيثكلف. ولقد أخفيتُ عنه حقيقة امتناعه عن تناول أي نوع من الزاد والشراب مدة أربعة أيام خشية أن يؤدي ذلك إلى مشكلة. وقد اقتنعت فيما بعد أنه لم يمتنع عن الطعام عن قصد وإنما كان ذلك نتيجة مرضه الغريب وليس سببه.

وقد دفناه كما أوصى. ولم يحضر الجنازة سواي وأرنشو، وحفّار القبر، وستة من الرجال الذين حملوا النعش. وقد وضع الرجال الستة النعش في الضريح حال وصولهم إلى المقبرة وغادروا المكان فوراً. وبقيتُ وأرنشو حتى هال الحفّار التراب على القبر وغطاه به. وآمل أن يكون ساكنه نائماً الآن فيه بهدوء. ولكن لو سألت سكان القرية عنه لحلفوا لك بالكتاب المقدس أنهم رأوه يسير، وبعضهم يقول إنهم قابلوه بالقرب من الكنيسة أو في الحقل، وحتى داخل هذا البيت. ستقول إنّها أقاصيص خرافية وكذلك رأيي.. ومع ذلك فإن يوسف العجوز يؤكد أنه يرى هيثكلف وكاثرن ينظران من نافذة غرفته في كل ليلة ممطرة منذ وفاته - وقد حدث معي حادث غريب منذ شهر مضى. لقد كنت في طريقي إلى غرانغ

ذات ليلة وقد كانت ليلة مظلمة تتخللها الرعود - وعند منعطف الطريق إلى مرتفعات وذرينغ قابلت صبياً صغيراً يسوق أمامه خروفاً وحملين وكان يبكي بمرارة فظننت أن الحملين عنيدان وأنه غير قادر على قيادتهما.

سألته: «ما بالك يا عزيزي الصغير؟».

أجاب والدموع تنساب على خديه: «إن هيثكلف وامرأة معه يقفان تحت ذلك النتوء، وإني لا أجرؤ على الاقتراب منهما لأواصل طريقي».

لم أرَ شيئاً لكنه لم يرض المسير من ذلك الطريق لا هو ولا قطيعه، فأشرت إليه أن يأخذ الطريق الأخرى، وأعتقد أنه تذكر الأقاصيص والخزعبلات التي يكررها على مسمعه رفقاؤه ووالده وهو يقطع الحقول لوحده فصوَّر الوهم له هذه الأشباح. ومع ذلك أصبحت منذ هذا الحادث لا أحب أن أسير في الظلام بمفردي ولا أحب أن أترك وحيدة في هذا البيت المحزن. آمل في أن نترك مرتفعات وذرينغ وننتقل إلى غرانغ.

قلت: «إذن ستعيشون في غرانغ؟».

أجابت السيدة دين: «نعم حالما يتمّ عقد قرانهما وسيكون ذلك في عيد رأس السنة».

سألتها: «ومَنْ سيقطن هنا إذن؟».

أجابت: «لماذا؟ إن يوسف سيعتني بأمور البيت وسيعاونه في ذلك أحد الفتيان. سيعيشان في المطبخ ويغلقان باقي غرف المنزل».

قلت: «لتعيش فيها الأشباح كما يحلو لها».

هزّت نيلي رأسها وقالت: «كلا يا مستر لوك ود، أعتقد أن الموتى في سلام وليس من الحق أن نتحدث عنهم».

وفي تلك اللحظة انفتح باب الحديقة وعادت كاثرن وهرتون من جولتهما.

قلت وأنا أراقبهما من النافذة وهما يقتربان: «إنهما لا يخافان شيئاً، هما معاً يتحديان الشيطان وأعوانه جميعاً».

وما أن وطئا بأقدامهما عتبة البيت وألقيا آخر نظرة على البدر في عليائه أو بالأصح تطلّع كل واحد إلى وجه صاحبه في ضوء البدر، تملّكني شعور قوي لا يقاوم يدعوني إلى الفرار منهما. فأسرعتُ حالاً إلى مصافحة السيدة دين واختفيتُ عن طريق المطبخ قاصداً منزلي.

وفي طريقي إلى البيت مررتُ بالكنيسة. وما أن وصلت إلى ساحتها حتى أخذتُ أجيل نظري بين القبور وقد اكتشفتُ حالاً الشواهد الثلاثة في منحدر الساحة بالقرب من المرج الأخضر، كان الشاهد الوسط رمادياً تغطّي نصفه الأعشاب، أمّا شاهد إدغار لنتون القائم على اليمين فكان ترابي اللون وقد تساقطت الطحالب عليه، ولم يكن قد نبت أيّ شيء على شاهد هيثكلف.

تلكّأت بين الأضرحة وتحت السماء الصافية أراقب الفراشات تحوم حول الأعشاب والأزهار، وأستمع إلى النسيم في الليل يداعب الحشائش، ورحت أسأل نفسي كيف يستطيع أي إنسان أن يتصوّر نوماً مضطرباً للنائمين تحت التراب الهادئ.

إميلي برونتي

مرتفعات وذرينغ

مرتفعات وذرينغ هي الرواية الوحيدة لإميلي برونتي، وهي بلا جدال إحدى روائع الأدب الإنجليزي. وقد عدَّها النقاد من قصص الحب الأروع والأقوى في كل العصور.

ولأنها قصة غرام وانتقام، فإنّ هذه الرواية المفعمة بالإثارة والحيوية تصوّر حباً عميقاً ومدمّراً جمع بين الشخصيتين الرئيستين فيها، وهما كاثرين الفاتنة العنيدة وهيثكلف الوسيم صاحب البشرة الداكنة والطبيعة المندفعة، وكلاهما يتصفان بالجموح مثلما هي حال مستنقعات يوركشاير حيث تدور أحداث الرواية.

ولكونها واحدة من أعظم الأعمال الأدبية في التاريخ، فإنّ قصة الحب الممنوع هذه لا تزال تحتفظ حتى اليوم بقدرتها على التشويق والتأثير، تماماً كحالها لدى نشرها عام 1847، وهي تتناول موضوعات إنسانية مثل الحب والكراهية والأنانية والقسوة والهوس والانتقام... والطبيعة المعقدة دائماً للحب.

❖ ❖ ❖

«لقد ألقت إميلي برونتي نظرة تأملية على عالم مزقته فوضى عارمة واستشعرت داخلها القدرة على جمع شتاته عبر كتاب. وهذا الطموح الكبير يمكن أن يُلمَس عبر صفحات الرواية».

فرجينيا وولف

ISBN 978-9953-68-788-9

9 789953 687889

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

لوحة الغلاف للفنان إدوار مانيه